يهدي ولا يُباع

المستقبل للإسلام

بمنهج السلف الكرام

تأليف
سليم بن عيد الهلالي
السلفي الأثري
كان الله له وعفا عنه بمنه وكرمه

دار الإمام أحمد
دار الصواب للكتاب
ناشرون / عمّان - الأردن



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المستقبل للإسلام

بمنهج السلف الكرام

الطبعة الأولى لـ :



١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٤٨٩٤ / ٢٠٠٧م



٦ شارع عزيز فانوس منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com

المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

تأليف

فضيلة الشيخ
أبي أسامة
سليم بن عيد الهلالي




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة القول

إن الحمد للَّه ؛ نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده اللَّه ؛ فلا مضل له ، ومن يضلل ؛ فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وحده لا شريك له .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد: فإن اللَّه ﷻ جعل المستقبل للإسلام ، بالفتح المبين ، والنصر العزيز ، والاستخلاف والتمكين لعباده المستضعفين ؛ لينتشر الهدى والنور في جميع أنحاء المعمورة ، ويعم دين الحق والهدى الذي تحمله الفرقة الناجية المبرورة ، وتذب عنه الطائفة السلفية المنصورة .

والمستقبل للإسلام ليس شعارًا نرفعه محوطًا بالأمل والرجاء -فقط- ، وإنما هو منهج وعقيدة ووفاء ، نؤمن به يقينًا ، ونوقن به جزمًا ، ونجزم به إيمانًا ؛ لأن المسلم يعتقد بأن لكل مشكلة حلًّا ، ولكل مسألة جوابًا ، ولكل داء دواءً : علمه من علمه ، وجهله من جهله ، ولذلك ؛ فهو يؤمن : أن المستقبل للإسلام -وهو واثق مطمئن- مهما ادلهمت الظلمات ، وتكالبت الأعداء ، وتداعت الأمم ، وتكاثر المخالفون ، ونكص على أعقابهم الخاذلون ؛ فبشِّروا ولا تنفروا ، ويسِّروا ولا تعسِّروا : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥و٦] .

وذلك ؛ لأننا مأمورون أن نبشِّر ولا ننفِّر ، ونيسِّر ولا نعسِّر ؛ لأن هذا منهج نبوي في الدعوة إلى اللَّه : فحينما بعث رسول اللَّه ﷺ معاذًا وأبا موسى الأشعري ﷺ إلى اليمن

للتعليم والدعوة؛ أوصاهما بوصية بليغة من جوامع الكلم: «**يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا**»[١].

ولذلك؛ فداعي اللَّه يلتزم التيسير لا التعسير، ويعتمد على التبشير لا التنفير، ويخاطب الأمة بوضوح التعبير لا جنوح التقعير.

وبخاصة أن المسلمين بعامة، والداعين إلى اللَّه بخاصة: يمرون بمراحل عصيبة تكاد تغلب عليها عوامل اليأس والقنوط، وتحوطها مشاعر الإحباط التي تُخدِّر العزائم، وتقتل الهمم، وتدمر الطموح.

وبخاصة من يرى ويسمع، فهو يعيش المأساة بتفاصيلها: بقلب يتفطر، وأعصاب تحترق؛ لما يرى من تخاذل أكثر المسلمين، وعجز معظم دولهم، وتفرق جُلِّ حكامهم: حيث غُزيت بلادهم في عقر دارها، ودمرت مدنهم العريقة على أهلها، وهدمت مساجدها الجوامع على عُمَّارها، وقتِّل الركع السجود فيها، وانتهكت أعراض المحصنات المؤمنات... ومع ذلك لم نر مُجَرّدَ محاولة انتصار للمستضعفين من الشيوخ والنساء والولدان: الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، ولا كلمة إنكار، ولا موقف استنكار؛ بل هو صمت أهل القبور في جنح ليل أَلْيَل(!)

يصاحب ذلك كله حرب نفسية ضروس، طارت منها -شعاعًا- القلوب والنفوس، تحركها قوى المكر العالمي: حيث بدأت حملات مسعورة، وراءها قلوب موتورة، وتقودها أقلام مأجورة، وتروِّج لها أبواق مأمورة؛ لتضلل الأفهام، وتُزِلَّ الأقدام، وتذيع في الأنام: أن رجوع الإسلام إلى مصدر القيادة وسُدَّة السيادة أضغاث أحلام!

وصَاحَبَ ذلك انتشار فكر خاطئ عن مستقبل الإسلام: مؤسَّس على قراءات مغلوطة، وقواعد منفلتة غير مضبوطة لأحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة[٢].

فكان لزامًا أن نقاوم هذه الحملات؛ بنشر الأمل المشروع بانتصار الإسلام،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) وانظر -لزامًا- كتابي: «صحيح السنن الواردة في أشراط الساعة والملاحم والفتن: دراسة حديثية منهجية».

وشحن النفوس وشحذ هممها بهذا النور الساري، الذي يبدد ظلمات اليأس، ويقشع غيوم القنوط.

بكل يقين نقول: إن المستقبل للإسلام؛ ما التزم المسلمون دينهم، وكانوا أهلًا لحمل دين اللَّه، ومحلًّا لنصر اللَّه الذي لا يتخلف أبدًا؛ لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠]، وكلما ادلهمَّ الليل وزاد ظُلْمَةً؛ أيقنَّا ببزوغ الشمس، وميلاد الفجر المستطير: الذي يملأ الشعاب والأودية، ويتوِّج رءوس الجبال، ويضيء الأفق المديد.

لهذا كله: كان ضربة لازب[1] أن نشيع هذه المبشرات الشرعية، ونقرر تلك السنن الكونية التي نجري بها، ونذيعها بين المسلمين؛ حتى نبعث الأمل المحرِّك للعزائم، ونهزم اليأس القاتل للنفوس، ونقتل الفشل المُذْهِبَ للريح!

ولكن علينا أن نقوم بما وجب علينا شرعًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فتغيير المسلمين ما بأنفسهم من حالة سيئة إلى حالة حسنة زعيم بتغيير واقعهم إلى واقع أحسن حالًا، وأجمل مآلًا.

وعلينا أن نفهم: أن إظهار الدين وانتصاره وانتشاره ليس محصورًا في وقت من الأوقات؛ وإن كان قد حدث بعضه أيام رسول اللَّه ﷺ وصحبه الكرام والملوك الصالحين، ويتم اللَّه بعضه الآخر عندما ترجع هذه الأمة المرحومة لدينها الحق؛ لتكون بحق مما يشملها قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

---

(١) أي: واجب لازم، وقد قيل هذا المثل بالميم -أيضًا-.
والأول: أفصح.
قال النابغة:
ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب
انظر: «القاموس المحيط» (١/ ٢٢٥).

وكذلك قول اللَّه -تعالى- : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

فالمسلمون الموجودون -اليوم- يعلمون أنهم مخاطبون بهذه الآية وأمثالها، وأن اللَّه ﷻ قد وعدهم بالتمكين لدينهم الذي ارتضاه لهم، والاستخلاف في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم؛ حتى يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئًا، وهذا الوعد قطعًا سيتحقق؛ لأن وعد اللَّه لا يتخلف، وسنته لن تتبدل ولن تتحول.

لكن لا بد من عواصم السنن التي تعصم المسلمين من قواصم الشك، أو التردد، أو التواكل، أو القنوط، أو السقوط في المحن والفتن: ذلك أن المسلمين بذلوا محاولات كثيرة، ومروا في تجارب خطيرة مريرة، في بلاد شتى، ومع ذلك؛ ما حدث لهم هذا (الوعد)! فما (السر؟!!)

(وعد): قاعدة ربانية، وسنة إلهية، لا يمكن لمسلم أن يرتاب فيها مطلقًا؛ وإلا كانت ثالثة الأثافي، وشك في الدواء الشافي، وتحيَّر في الجواب الكافي، حيث قال رب العزة: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

ثم بين سبحانه (السر) بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فحيثما وجدت محاولة لاستعادة مستقبل الإسلام، أو تجربة لاستئناف حياة إسلامية راشدة على منهاج النبوة، أو فكرة لبناء دولة الإسلام الواحدة القوية، ورفع راية القرآن العلية؛ لم تُمكَّن ولم تنتصر ولم تستخلف! فارجع البصر إلى هذه الآية تأملًا وتدبرًا؛ عندئذ تعلم: أن اللَّه ينصر مَن إذا مُكِّنوا في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر.

ثم ما يدريك أن هؤلاء -الذين ذُكِرُوا- لو مُكِّنُوا لفعلوا ما ذَكَرَ اللَّه، وكانت عاقبتهم الثبات.. فهذا أمر غيبي لا يطَّلع عليه إلا علَّام الغيوب ومُقلِّب القلوب... ولذلك! فإن اللَّه -سبحانه- ينصر من يعلم أنهم إذا انتصروا: جاهدوا، وصبروا،

وصابروا، ورابطوا، وأمروا، ونهوا، وأقاموا شرع اللَّه . . . هذا هو (السر)، ولا يزال قائمًا، وذاك (الوعد) لا يزال مستمرًا، فمن وفّى؛ وُفِّيَ له، ومن لا؛ فلا، فلا تكن في مرية من هذا الأمر.

لكن غربة الإسلام الثانية[1] -كما في حديث الغرباء- وقعت في أعصارنا المتأخرة؛ كما حدثت في بداية البعثة النبوية، حتى أضحى المسلم غريبًا بين أهله الأقربين وإخوانه الأدنيين، منبوذًا بينهم؛ لأنه يدعوهم إلى الجنة، ويرشدهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الكتاب والسنة بالبراهين والدلائل، وهم يتثاقلون إلى حَمَأة وبيئة من الشهوات والشبهات، ولكن الغريب يعود إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله؛ يتنسم أنفاس الغرباء الذين أضناهم السُّرى في بيداء العوائد، ولفحهم سَمُومها، واجتاحتهم بيدها السافيات، وصكّ وجوههم زيف التَّيار، حيث ينقلون خطاهم على الرمال المحرقة، وتحت وهج الشمس الملتهبة؛ فراحوا ينشدون السلسبيل العذب النمير؛ عساهم يستقبلون واحة خصبة، وارفة الظلال، رقراقة النبع، نديَّة النسيم، تتحدَّى الجو القاسي من حولها بما تنفث من شذى فواح يفعم أرجاء الوجود؛ فتنتشي الأرواح وتستقر، فلا جيئة ولا رواح، بل تهدأ وتستمر، وتنتعش وتثمر.

. . . فسقطوا عليها، فَهُدوا إلى السكينة والطمأنينة، وهدءوا على السكن والقرار عبر مفازات الضواري، وأدغال الكواسر.

. . . أفيكم من لا يحتضنها بحبات القلوب، ويوسدها أهداب العيون، ويسقيها دمع المآقي لا ماء السواقي؟!

كغريب من الغرباء ممن سُمِّلت أعينهم؛ لكي لا ترى النور في رائعة النهار، وضرب على آذانهم سنين عددًا؛ كي لا تسمع نداء التوحيد المنبعث من وراء الأبعاد، المتهادي من ثنايا الأفق المديد، الهاتف: أن وراء الليل والفجر المستطيل فجرًا

---

(١) هي غربة جهل وبدعة، وليست غربة كفرٍ وردَّة، فتأمل ولا تتعجل(!)
وقد يستعمل هذا المصطلح عند القطبيين للدلالة على جاهلية المجتمع المسلم المعاصر وردّته وكفره -زعموا-، وبخاصة عند محمد قطب وشيعته في كتابه: «واقعنا المعاصر»!! وانظر -تفضلًا- كتابي: «عقد الخناصر في بيان أباطيل كتاب واقعنا المعاصر».

مستطيرًا جديدًا يملأ الآفاق والأودية والشعاب ورءوس الجبال . . عندئذ يلبي قائلًا : لبيك اللّهم وسعديك، والخير بين يديك، والشر ليس إليك .

ومن هذه التلبية الإيمانية القائمة على فقه التربية الربانية استخلصت ما ورد في بيان المستقبل للإسلام من الكتاب والسنة والإرهاصات الكونية . . ولكن هذه الدراسة امتازت وتميزت عن كل ما كتب في هذا الباب -وهو كثيرٌ جدًّا[١]- بالبيان الواضح والبرهان اللّائح : أن المستقبل للإسلام لن يكون إلا على منهج السلف الصالح، ولذلك سميته : «المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام» .

وأسأل اللّه : أن يتقبل مني جهد المقل : بيانًا لكتابه، وشرحًا لسنة نبيه ﷺ، وتقريرًا لمنهج الصحابة الكرام ﷺ، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأن يكتب له القبول في السماء والأرض، وأن يدخر لي ثوابه وأجره إلى يوم لقائه، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم، وأن يجعله لهداة منهج السلف الصالح ودعاة التوحيد والسنة منارًا يهدي إلى صوى الإسلام، وحاديًا إلى سبل السلام، وهاديًا إلى معاني الطريق القويم، وإمامًا إلى معالم الصراط المستقيم .

وعلى اللّه قصد السبيل، ومنها جائر .

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد بن محمد بن حسين

الهلالي، السلفي، الأثري

أصيل يوم الأحد لخمس ليال بقيت

من ربيع الآخر لسنة (١٤٢٥ هـ)

في عمان البلقاء عاصمة جند الأردن

من بلاد الشام المحروسة

---

(١) وقد استفدت من أكثر البحوث التي نشرت، والمصنفات التي كتبت في هذا الباب كل بحسبه، فجزى اللّه من أعان على نصرة الإسلام ولو بشطر كلمة، فاقتضى التنويه في هذه المقدمة، دون التكرار؛ إلا في المواطن المهمة .

الاعتقاد بأن المستقبل للإسلام من فقه التربية الربانية

الإسلام منهج حياة واقعية بكل مقوماتها؛ فهو يحدد مكان الإنسان، وغايته، ويضبط حركته في هذا الوجود.

وهذه المقومات مترابطة غير منفصل بعضها عن بعض؛ لأنها منظِّمة لشتى جوانب الحياة البشرية، ملبية لجميع حاجات الإنسان الحقيقية، مهيمنة على مختلف أوجه النشاط الإنساني.

والإسلام ليس عقيدة منعزلة عن واقع الناس، وليس مجرد شعائر تعبدية تؤدى فرادى -أو جماعة-، وليس مجرد طريق إلى الآخرة دون الالتفات إلى الدنيا؛ بل هو دين، ودولة، وسياسة شرعية، وعبادة.

والإسلام من الوضوح ومن العمق والقوة في هذا المعنى بحيث لا يمكن تصويره في صورة الحياة المُنْبَتَّةِ عن واقع الإنسان، على الرغم من الجهود الضخمة التي بذلها أعداء اللَّه منذ قرون لحصر الإسلام في «دائرة الأحوال الشخصية»، وكفِّه عن الهيمنة على «نظم الحياة الواقعية». . . كما هي حقيقته. . . بل هي وظيفته.

ولذلك؛ فالمستقبل للإسلام وحده الذي ارتضاه رب العالمين لنا دينًا، ومنهج حياة:

فهو -وحده- القادر على إنقاذ البشرية مما يحيط بها من أخطار ماحقة.

وهو -وحده- القادر على منحها المنهج الملائم لفطرتها، ولاحتياجاتها الحقيقيَّة.

وهو -وحده- القادر على تنظيم خطواتها في الإبداع المادي والاطمئنان الروحي.

وهو -وحده- القادر على ذلك كله؛ كما عرفته أول مرة فلماذا يُجرِّبون غيره ويبحثون عن سواه؛ وكله مجرَّب؟! فقد أوصلنا إلى الثُّريا بعد ما كنا في الثَّرى . . . واللَّه لا يُجَرَّبُ، ورحم اللَّه شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ الذي سمعناه يقول: «من جَرَّبَ المُجَرَّب؛ فَعَقْلُهُ مُخَرَّب»!.

ولقد ثبت الإسلام في وجه كل المحاولات التي تبغي اجتثاثه، ولم يولِّ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة؛ لأن عناصر القوة كامنة في طبيعته:

كامنة في يسره، ووضوحه، وشموله، وكماله، وموافقته للفطرة البشرية، وتلبيته لحاجاتها الحقيقيَّة.

كامنة في استعلائه عن عبوديَّة العباد بالعبودية لرب العباد . . . وفي رفض التلقي إلا من اللطيف الخبير، ورفض الخضوع إلا للسميع البصير.

كامنة في استعلاء أهله بالإيمان على المُلَابسات الطارئة؛ كالوقوع تحت تسلط الجبارين . . . فهذا السلطان يبقى خارج نطاق القلب والروح مهما اشتدت وطأته . . . ومن ثمَّ لا تقع الهزيمة الإيمانية طالما عَمَرَ الإسلام القلب والروح، وإن وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحايين.

ورحم اللَّه إمام العلماء الربانيين، وعميد السلفيين، شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس اللَّه روحه-، الذي قرر هذه الحقيقة الدقيقة -عندما تكالب عليه الخصوم من كل حدب وصوب- بقوله: «ماذا يفعل أعدائي بي؟! إن قتلي شهادة، ونفيي سياحة، وسجني خلوة؛ جنتي وبستاني في صدري».

ولجملة ما سبق؛ فنحن نعتقد يقينًا جازمًا حاسمًا أن المستقبل للإسلام، وقد مضى ذلك بشرى في كلام رب العالمين، وتأكد بالتواتر المعنوي في سنة سيد المرسلين؛ كما سيأتي تأصيله وتفصيله وتحليله بعد حين.

هذا الاعتقاد -بأن المستقبل للإسلام وحده- هو الذي صنع الجيل القدوة الأول -محمدًا ﷺ والذين معه-، وتدبر هذا النص القرآني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ

جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾

[الأحزاب: ٩-٢٧].

إنَّ العبد المؤمن ليتلو هذا النص القرآني؛ فيجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المُعقَّدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم، وإلى الاطمئنان العميق.

إن النص القرآني يذكِّر المؤمنين بغزوة الأحزاب، حيث لم تكن معركة خسائر، بل

معركة أعصاب، ومع ذلك؛ فهي من أهم المعارك في تأريخ الإسلام[1]، إذ إنَّ مصير الإسلام كان فيها أشبه برجل يمشي على حافة قمة سامقة، أو حبل ممدود، فلو اختلَّ توازنه لحظة، أو اضطرب فؤاده لمحة؛ لهوى من السماء، فتخطفه الطير ممزق الأعضاء، ممزع الأشلاء، أو تهوي به الريح في مكان سحيق وواد عميق، ولقد أصبح المسلمون كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يتهددها بالغرق ليل نهار... جيش عرمرم يريد أن يستأصل شأفتهم، ويجتثَّ جذورهم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

يا للهول الذي روَّع المدينة النبوية! ويا للكرب الذي شملها! والذي لم ينج منه أحد من أهلها؛ فقد أطبق المشركون -من قريش، وغطفان، ويهود- من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾.

لقد بلغ الخوف والكرب والضيق أشده؛ فيخبر عنها رب العزة -تبارك وتعالى- بملامح الوجوه، وحركات القلوب، ونظرات العيون، فهي أبلغ من الكلام المجرد.

لم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو: استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، ونظراتها للمقدمات والنتائج ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

ومن ثَمَّ كان ابتلاءً كاملًا، وامتحانًا شاملًا، وهولًا مروِّعًا رهيبًا مزلزلًا، زلزل المؤمنين زلزالًا شديدًا ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

---

(١) حيث تحول المسلمون بعدها إلى مرحلة الهجوم، ونقل الحرب إلى دار الأعداء؛ كما عند البخاري من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نَغزُوهُم، ولا يَغْزُوْنَا؛ نحن نَسِيْر إليْهِم».

وله شاهد أخرجه البزار من حديث جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعًا كثيرة: «لا يَغزُوكم بَعْدَهَا أبدًا؛ ولكن نَغْزُوهُم».

حسنه الحافظ في «فتح الباري»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «ورجاله رجال الصحيح».

قلت: في إسناده مقال؛ لكنه حسن بما قبله.

قال الحافظ رحمه الله (٧/ ٤٠٥): «وفيه: أنهم رجعوا بغير اختيارهم، بل لصنع الله -تعالى- لرسوله.

وفيه علم من أعلام النبوة؛ فإنه ﷺ اعتمر السنة المقبلة، فصدّته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها؛ فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال النبي ﷺ».

لذلك؛ كان التميز في هذه الغزوة بين المنافقين والمؤمنين حاسمًا لا تردد فيه، واضحًا لا غبش يعتريه، صريحًا لا لبس فيه، ولا غموض يأتيه.

لقد وجد المنافقون والذين في قلوبهم مرض في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة الخناق فرصة سانحة للكشف عن خبيئة أنفسهم الخبيثة؛ فلا يلومهم أحد، وفرصة في التثبيط والتخذيل، وبثِّ الشك والريبة في وعد اللّه ورسوله؛ فلا يأخذهم بقولهم أحد، أو يرد عليهم أحد. فالواقع المشاهد بظاهره يصدقهم في التوهين والتثبيط، فقد اجتمعت الجزيرة على حرب رسول اللّه محمد ﷺ والذين معه فالهوى أزاح عن وجوههم قناع التجمل، والكرب كشف إيمانهم المهلهَل، وهذه نتائج عدم الثبات والتوكل عند نزول الهول المرعب المزلزل: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ولذلك؛ فهم ينتحلون الأعذار الكاذبة فتراهم يستأذنون رسول اللّه ﷺ بحجة أنَّ بيوتهم عورة مكشوفة للعدو متروكة بلا حماية فإقامتهم أمام الخندق مرابطين لا موضع لها، ولا محل، ولا معنى، وبيوتهم مُعرَّضة للخطر من ورائهم: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

وهنا تبدأ الآيات القرآنية بكشف حقيقتهم، وتجردهم من العذر والحجة، وتضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال، مواقعين للجبن والبخل والغدر والفرار: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

وهذه الصورة الظاهرية للهزيمة النفسية المنبثقة عن وهن العقيدة في النفس، وخور المنهج في الفؤاد... فهم مستعدون للانسلاخ من الصف بمجرد موافقة: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

ولكن لِمَ هذا النقض والغدر؟... إنه ابتغاء النجاة من الخطر، والأمان من الفزع... إنه التصور البوار، الذي دعاهم إلى نقض العهد والفرار.

ولكن الموت -أو القتل- قَدَرٌ لا مفر من لقائه في موعده، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر، ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن الفارِّ؛ فلا عاصم اليوم من أمر اللَّه إلا من رحم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

كل هؤلاء المُعوِّقين المُثبِّطين والمرجفين يعلمهم اللَّه، ويعلم ما يسرون وما يعلنون، وما يخططون وما يمكرون: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وأمام هذا الزلزال الشديد والإعصار العنيد: كفار الجزيرة -الذين تحزَّبوا ضد الرسول ﷺ والذين معه-، والمرجفون المثبِّطون -الذين والوا الأحزاب، وكشفوا عن حقيقة النفاق-، ويهود بني قريظة الذين نقضوا العهد والميثاق... كانت هناك جماعة مطمئنة وسط الزلزال، واثقة باللَّه الكبير المتعال، مستيقنة من نصر اللَّه وإن طال... على رأسها رسول اللَّه ﷺ، الذي أخذ يعمل في الخندق مع المسلمين؛ يضرب بالفأس، ويجرف التراب بالمسحاة، ويحمله في المكتل، ويرفع صوته مع المرتجزين وهم يرفعون أصواتهم بالرجز في أثناء العمل، فيشاركهم في الترجيع، ولا تحسبن عمل رسول اللَّه ﷺ في ذلك كله من قبيل التمثيل الذي يحسنه رجال السياسة العصرية.. كلَّا.. كلَّا.. إن الرجولة الكاملة في أنبل صورها كانت تقتبس من مسلك رسول اللَّه ﷺ في هذا الموقف وفي كل موقف.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب، وَخَنْدَقَ رسول اللَّه ﷺ: رأيته ينقل من تراب الخندق؛ حتى وارى عنه التراب جلدة بطنه -وكان كثير الشعر-، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة -وهو ينقل التراب- يقول:

اللَّهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: وكان يمد صوته بآخرها[1].

وتأسَّى برسول اللَّه ﷺ الرجال الكبار الكبار، ممن لم يألفوا هذا العمل من قبل، فشهدت المدينة النبوية منظرًا عجبًا: وجوهًا ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفئوس وتحمل المكاتل، فتلبس حُللًا من نسج الغبار المتراكم والعرق واللغوب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثم كان رسول اللَّه ﷺ يستشرف النصر من بعيد، ويراه رأي العين في ومضات الصخور على ضرب المعاول، فَيُخْبِر بها المسلمين، ويَبُثُّ فيهم الثقة والأمل واليقين... فمن أحكام السياسة الشرعية وإحكامها: أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المُضني.

وهذه قاعدة من قواعد التربية الإيمانية؛ أَصَّلَهَا رسول اللَّه ﷺ وهو يصنع جيل القدوة الأول، وقرن الأسوة الأمثل من (التكوين) إلى (التمكين)، ليكون الأنموذج الأنبل في كل العصور، والجيل الأجمل على مرِّ الدهور، وحجة اللَّه البالغة في جميع الأمور:

ففي (عهد التكوين): أصَّلَ فيهم (فقه الابتلاء).

ودونك مفرداته:

لقد فَقِهَ سلفنا الصالح مسألة الابتلاء؛ فكانت دافعًا للثبات، وطاقة عطاء لا تَنْفَد، وقوة عزم لا تنقطع.

ودونك معالم (فقه الابتلاء) عند سلفنا الصالح:

---

(١) أخرجه البخاري.

١- الابتلاء ضرورة إيمانية.

قال -تعالى-: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

لا بد أن يمتحن اللَّه -تبارك وتعالى- أهل الإيمان ويبتليهم؛ حتى يَميزَ الصادق من الكاذب، ولذلك اقتضت حكمة اللَّه -تعالى- البالغة أن يكون نصب الابتلاء سببًا مُفضيًا إلى تمييز الخبيث من الطيب، والشقيِّ من السعيد، ومن يصلح ممن لا يصلح: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ويخلص الصادق من الوهن البشري، الذي لا تسلم منه نفس بشرية؛ فتسمو همَّته فوق الألم، فيدرك أنه جسر إلى المعالي.

لا تحْسبنّ المجدَ تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ويُبْتَلَى المرء على قدر دينه، كلما اشتد إيمانه عظم ابتلاؤه؛ حتى يخلص من شرور نفسه، وسيئات أعماله، ويطهر طيب نفسه بِكير الامتحان؛ كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بكير النيران، ولذلك قال ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاس بَلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمثلُ فَالأَمثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسْبِ دينهِ؛ فإِنْ كانَ دينُه صُلْبًا اشتدَّ بلاؤه، وإِنْ كانَ في دينه رِقَّةٌ ابتليَ حَسْبَ دينهِ، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعَبْدِ حتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلى الأَرْضِ ما عَلَيْه مِن خَطِيْئَةٍ**»[١].

ولذلك؛ فالمؤمن ينظر إلى الابتلاء: أنه نعمة ورحمة من اللَّه على عباده، يتعهدهم بالابتلاء المرَّة بعد المرَّة؛ لينقِّيهم، ويطهِّرهم، ويُذهب عنهم رجز الشيطان، ويربط على قلوبهم، ويثبت به الأقدام.

وكذلك ينظر إليه أنه دليل رضا ومحبة من اللَّه لعباده؛ فإن اللَّه إذا أحبَّ عبدًا ابتلاه، وكلما صلب إيمان المرء وقويَ يقينه؛ اشتدَّ بلاؤه، فمن رضي؛ فله الرضا، والعكس بالعكس.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وغيرهم، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ بإسناد صحيح.

٢- الابتلاء سنة من سنن الله الجارية في الأمم الخالية.

قال -تعالى- : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

٣- الابتلاء مقدمة التمكين.

لما كان الابتلاء ضرورةً إيمانية؛ فإن المؤمن يحصل له الألم ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة.

وسئل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيهما أفضل للرجل، أن يُمَكَّن، أو يبتلى؟

فقال: لا يُمَكَّن حتى يبتلى.

وقد ابتلى الله المؤمنين، فلما صبروا مكّنهم في الأرض واستخلفهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فلا يظنَّ عاقلٌ أنَّ أحدًا يخلص من الألم ألبتة، وإنما يتفاوت أهل الألم في العقول؛ فأوسطهم من باع ألمًا مستمرًّا عظيمًا بألم منقطع يسير، ثم تَعْقُبُهُ لذَّةٌ عظيمة في الدنيا والآخرة.

وكما أن الابتلاء سنة جارية؛ فكذلك التمكين والاستخلاف، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٤- عدم استعجال التمكين واستدعاء البلاء.

المؤمن يتأنى في الأمور، وينظر في عواقبها؛ لأن الفقيه من نظر في العواقب، ولم تستفزه البداءات، ولذلك؛ فهو لا يستعجل التمكين وإن جاشت عاطفته، وغلبت حماسته؛ لأنه يعلم أنه لا بدّ من الابتلاء ابتداء، وهو لا يتمنى الابتلاء ولا يستدعيه؛ لأن في طيَّاته فتنة مجهولة العواقب، لا يدري الإنسان أيثبت أم ينكص على عقبيه -عياذًا بالله-؟

ويدل على ذلك: الأدعية المأثورة عن رسول اللَّه ﷺ، التي يسأل اللَّه فيها العفو والعافية والمعافاة. . . من البلاء والابتلاء.

وكذلك الأحاديث التي فيها النهي عن تمني لقاء العدو، أو المرض، وغير ذلك من البلاء.

عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول ﷺ: «**لا يَنْبَغِي للمؤمنِ أن يُذِلَّ نَفْسَه**».

قالوا: وكيف يذل نفسه؟!

قال: «**يَتَعَرَّضُ مِن البَلاءِ مَا لا يُطِيقُ**»(١).

. . . واعلم -أيها الأخ المحب، لا زلت موصولًا بما تحب-: أنَّ فقه هذه المسألة مداره على حديث خباب بن الأَرت رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول اللَّه ﷺ -وهو متوسِّد بردة له في ظل الكعبة-، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟

قال: «**كانَ الرَّجلُ فيمَن قَبْلَكُم يُحْفَرُ له في الأرضِ؛ فَيُجْعَلُ فيها، فَيُجَاءُ بالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ على رأسِهِ، فَيُشَقُّ باثنتين وما يَصُدُّه ذلك عن دينهِ، ويُمْشَطُ بِأَمشَاطِ الحديدِ ما دونَ لَحْمِهِ مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِيْنِهِ.**

واللَّه، لَيُتَمَّنَّ هذا الأمر؛ حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرمَوتَ لا يُخافَ إلا اللَّهَ والذئبَ على غَنَمِهِ، ولكنَّكُم تَسْتَعْجِلُونَ»(٢).

وبيان ذلك:

أ- إخباره عن ابتلاء مؤمني الأمم الماضية يشير إلى أنه:

١- ضرورة إيمانية.

---

(١) حسن لغيره: أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، والبغوي، وأبو الشيخ في «الأمثال»، والقضاعي في «الشهاب» وإسناده ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان ضعيف، والحسن البصري مدلس، وقد عنعنه.
وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أخرجه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط»، والبزار في «مسنده»، وأبو الشيخ في «الأمثال».
قلت: فالحديث حسن لغيره، واللَّه أعلم.

(٢) أخرجه البخاري.

٢- سنة جارية في المؤمنين على مر العصور.

ب- إخباره بانتشار الدين، وانتصاره بعد ذكر الابتلاء؛ يدل على أنَّ:

الابتلاء مقدمة التمكين، وأن المؤمن لا يمكَّن حتى يُبتلى.

ت- قوله: «**ولكنكم تستعجلون**» تحذير من استعجال التمكين قبل النضوج، وتقرير عدم استدعاء البلاء والاستعداد لملاقاة أعداء اللَّه؛ واللَّه أعلى وأعلم، وأعزُّ وأكرم.

وهذا الحديث فيه دلالة على أن رسول اللَّه ﷺ ربّى أصحابه على هذه القاعدة الإيمانية الصلبة؛ فتبين لهم أن المستقبل للإسلام وحده بإذن اللَّه وحده، فهان عليهم الألم في ذات اللَّه وأصبح أملًا، وتحوَّلت المحنة إلى منحة، والحيرة إلى خبرة وعبرة.

وفي (عهد التمكين) أَصَّلَ فيهم (فقه الثبات)، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: أمرنا رسول اللَّه ﷺ بحفر الخندق قال: وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول.

قال: فشكوها إلى رسول اللَّه ﷺ، فجاء رسول اللَّه ﷺ -قال عوف: وأحسبه قال: وضع ثوبه-، ثم هبط إلى الصخرة؛ فأخذ المعول، فقال: «**بِاسْمِ اللَّهِ**» فضرب ضربة؛ فكسر ثلث الحجر، وقال: «**اللَّهُ أكبرُ، أعطيتُ مفاتيح الشامِ، واللَّه إنّي لأبصرُ قصورَها الحُمر مِّن مكاني هذا**».

ثم قال: «**بِاسْمِ اللَّه**»، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر، فقال: «**اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيْتُ مَفَاتِيْحَ فَارِسَ، واللَّهِ إني لأُبْصِرُ المَدائِنَ، وأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأبيضَ مِن مَكَاني هَذَا**».

ثم قال: «**بِاسْمِ اللَّهِ**»، وضرب ضربة أُخرى، فقلع بقيَّة الحجر، فقال: «**اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيْتُ مَفَاتِيْحَ اليَمَنِ، واللَّهِ إِنِّي لأُبصِرُ أَبَوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هذا**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسَّنه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٩٧).

قلت: وهو كما قال.

وروى البخاري قصة الصخرة مختصرة.

تفتَّتِ الصخرة تحت ضربات الرجل الأيِّد الجَلِد، الموصول بـ(مَن في السماءِ)، الراسخ على الأرض، ونظر الرسول ﷺ إلى أصحابه ﷺ ونفسه مفعمة بنصر اللَّه.

ولك أن تتصور اليوم كيف يقع مثل هذا القول في القلوب، وقد انسابت الأحزاب حول المدينة النبوية، وضيقوا عليها الخناق، ولكن نفوس المسلمين لم تطر شعاعًا بل جابهوا الحاضر المُرَّ، وهم موطَّدو الأمل في غدٍ كريم، لقد كان هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين والثبات: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ .

إنها الصلة التي لا تنقطع باللَّه، والإدراك الذي لا يضل عن سنن اللَّه، والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن، وتحقق أواخرها كما تحققت أوائلها، وقد اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة- كونهم ناسًا من البشر، وللبشر طاقة- سببًا في انتظار النصر، ذلك لأنهم صدَّقوا قول اللَّه -تعالى- من قبل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وهاهم يُزلزلون؛ فنصر اللَّه قريب. . . وصدق اللَّه ﷻ.

وهاهو رسول اللَّه ﷺ يبشِّرهم بميلاد فجر. . . وهم يعلمون بفطرتهم وإيمانهم وفراستهم: أنه كلما اشتد غلس الليل اقترب ميلاد الفجر. . . وصدق رسوله ﷺ.

وهكذا جعلهم يقينهم بأن المستقبل للإسلام وحده -ولو كره الكافرون-يرتبطون بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى اللَّه، وتمنعهم من السقوط، وتُجدِّد فيهم الأمل، وتحرمهم من القنوط؛ فكانوا بهذا وذاك أنموذجًا فريدًا في الثبات على الدين.

وعلينا أن ندرك هذا؛ لندرك قوة ثباتهم علينا أن ندرك أنهم بشر لم يتخلَّوا عن طبيعة البشر بما فيها من قوة ومن ضعف ولكنهم بلغوا الكمال المُهيأ لبني الإنسان لذلك علينا أن نتشبه بهم -إن التشبه بالكرام فلاح-.

ونتمسك بالعروة الوثقى -إنّ التمسك بغرزها نجاح-؛ لننهض من الكبوة، ونعرض عن العثرة، ونسترد الثقة والطمأنينة، فنثبت ونستقر، ونقوى ونستمر، وننتصر

ونزدهر، ونسير على طريق الرجال كما وصفهم الكبير المتعال بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

... إن الرجولة صفة كمال ترقى بالمجتمع المسلم إلى علياء الاستقامة وقمة الاستقرار، فهي:

تُطهِّر: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وحافز لعبودية الله وحده: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وثبات في الموقف، وصدق في العهد: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وتنظيم لعلاقة الذكر بالأنثى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فلا جرَم أن يصف الله ﷻ أصحاب محمد ﷺ بالرجولة، نعم؛ لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ رجالًا، تبوَّءوا العلم والإيمان والغِيرَة على دينهم وعرضهم، فقد كانوا أذلة على المؤمنين، أعزَّة على الكافرين.

نعم؛ قد: «كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون[1] بالبِطِّيخ؛ فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال»[2].

... هكذا -والله- الرجال ...

---

(١) يتضاربون.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» بسند حسن.

ولِلَّه دَرُّ القائل :

رجال صفت أخلاقهم وتمخَّضت　　　وليس الكريم المحض مثل الممزج

أما إذا استنوق الرجال ؛ فقد ذهبت الغيرة على الدين والعرض ، وصدق القائل :

أبنيَّ إنَّ من الرجال بهيمةً　　　في صورة الرجل السَّميع المُبْصِرِ

فطن بكل مصيبة في ماله　　　فإذا أصيب بدينه لم يَشْعُرِ

وإذا استبعرت النساء ؛ فقد كثر الخبث فالهلاك الهلاك :

ما كانت العذراء تبدي سترها　　　لو كان في هذي الجموع رجالُ

وعندئذ لا ينفع البكاء على الأطلال ، أو ضرب الأمثال ، أو تذكير الأجيال ؛ لأن المقال سيكون كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لشيعته المخذولة : «يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال ، وعقول ربات الحجال» .

أو كما قالت أم أبي عبد اللَّه الأحمر -آخر ملوك الطوائف- لابنها أبي عبد اللَّه الصغير :

اِبْكِ مثل النساء مُلكًا مُضاعًا　　　لم تحافظ عليه مثلُ الرجالِ

فيا مسلم! يا عبد اللَّه! :

كن رجلًا رِجْلَه في الثرى　　　وهامةُ همَّتِه في الثُّريَّا

وتذكر يا مسلم! يا عبد اللَّه! أنهم :

قد هيَّئوك لأمر لو فطنت له　　　فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَلِ

وتمسّك بغرز السلف الصالح الذين قالوا في (دينهم) : يا له من دين لو أن له رجالًا وحملة!!

* * *

الآيات القرآنية الدالة على أن المستقبل للإسلام

قال الله -سبحانه-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢و٣٣].

وقال -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

وقال -عز شأنه-: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨و٩].

هذه الآيات القرآنية الصريحة الدالة بمنطوقها ومفهومها على أن المستقبل للإسلام -وحده-، اشتملت على حقائق شرعية، وسنن كونية:

أولها: أن المشركين يريدون أن يقضوا على الإسلام جملة وتفصيلًا.

قال شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول -جلّ ذكره-: يريدون هؤلاء المتخذون أحبارهم ورهبانهم والمسيح بن مريم أربابًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، يعني: أنهم يجادلون بتكذيبهم بدين الله الذي ابتعث الله به رسوله، وصدَّهم الناس عنه بألسنتهم أن يبطلوه»[1].

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يريد هؤلاء الكفار من المشركين، وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما بعث الله به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم، وافترائهم»[2].

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: يبطلوا دين الله

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٤٢٢ ط- هجر).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٧٤).

بألسنتهم، وتكذيبهم إياه»[1].

قال السمرقندي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿يُرِيدُونَ﴾، يعني: اليهود، والنصارى ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، يعني: يريدون أن يردُّوا القرآن تكذيبًا بألسنتهم.

ويقال: يريدون أن يغيروا دين الإسلام بألسنتهم.

ويقال: يريدون أن يبطلوا كلمة التوحيد بكلمة الشرك»[2].

قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق، وهو: ما راموه من إبطال الحق؛ بأقاويلهم الباطلة التي هي مجرد كلمات ساذجة، ومحاولات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم في محاولة إبطال دين الحق ونبوة نبي الصدق، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم قد أنارت به الدنيا، وانقشعت به الظلمة؛ ليطفئه، ويذهب أضواءه ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾؛ أي: دينه القويم.

وقد قيل: كيف دخلت (إلَّا) الاستثنائية على (يأبى)، ولا يجوز: كرهت -أو بغضت- إلا زيدًا؟

قال الفراء: إنما دخلت؛ لأن في الكلام طرفًا من الجحد.

وقال الزجاج: إن العرب تحذف مع (أبى).

والتقدير: ويأبى اللَّه كل شيء إلا أن يتم نوره.

وقال علي بن سليمان: إنما جاز هذا في (أبى)، لأنها منع أو امتناع، فضارعت النفي.

قال النحاس: وهذا أحسن؛ كما قال الشاعر:

وهل لي أمٌّ غيرها إن تركتها ... أبى اللَّه إلا أن أكون لها ابنا

---

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ٣٩).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ٤٦).

قال صاحب «الكشاف»: إن (أبى) قد أُجري مجرى (لم يرد)، أي: ولا يريد إلا أن يتم نوره.

قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ معطوف على جملة قبله مقدرة؛ أي: أبى اللَّه إلا أن يتم نوره، ولو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوا.

ثم أكد هذا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بما يهدي به الناس من البراهين، والمعجزات، والأحكام التي شرعها اللَّه لعباده ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، وهو: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: ليظهر رسوله، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين، وقد وقع ذلك وللَّه الحمد»[1].

وقال -أيضًا-: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: إرسالًا مُتَلَبِّسًا بالهدى، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، وهو: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: يعليه على كل الأديان؛ كما يفيده تأكيد الجنس، وقيل: ليظهر رسوله، والأول أولى.

وقد كان ذلك بحمد اللَّه؛ فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان، وانقهر له كل أهل الملل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: كفى اللَّه شهيدًا على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به، وعلى صحة نبوة نبيه ﷺ»[2].

وقال -أيضًا-: «﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الإطفاء: الإخماد، وأصله في النار، واستعير لما يجري مجراها من الظهور، والمراد بنور اللَّه: القرآن؛ أي: يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمد ﷺ، أو الحجج والدلائل، أو جميع ما ذكر، ومعنى (بأفواههم): بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمِّنة للطعن، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ بإظهارهِ في الآفاق وإعلائه على غيره.

قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ بالإضافة، والباقون بتنوين (مُتِمٌّ) ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك؛ فإنه كائن لا محالة، والجملة في محل نصب على الحال.

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٣٥٤).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٥٥).

قال ابن عطية: واللام في ﴿لِيُطْفِئُوا﴾ لام مؤكدة دخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، وأكثر ما تلتزم هذه اللام المفعول إذا تقدم؛ كقولك: لزيد ضربت، ولرؤيتك قصدت.

وقيل: هي لام العلة، والمفعول محذوف؛ أي: يريدون إبطال القرآن، أو دفع الإسلام، أو هلاك الرسول؛ ليطفئوا.

وقيل: إنها بمعنى (أن) الناصبة، وأنها ناصبة بنفسها، قال الفراء: العرب تجعل (لام كي) في موضع (أن) في: أراد وأمر، وإليه ذهب الكسائي، ومثل هذا قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، وجملة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مستأنفة مُقرِّرةٌ لما قبلها، والهدى: القرآن أو المعجزات، ومعنى ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: الملة الحقة، وهي: ملة الإسلام؛ ومعنى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: ليجعله ظاهرًا على جميع الأديان، عاليًا عليها، غالبًا لها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك؛ فإنه كائن لا محالة.

قال مجاهد: ذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام.

والدين مصدر يعبر به عن الأديان المتعددة، وجواب (لو) في الموضعين محذوف، والتقدير: أتمه وأظهره»[1].

وقال الثعلبي: «﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: يبطلوا دين اللَّه بألسنتهم، بتكذيبهم إياه وإعراضهم عنه.

وقال الكلبي: يعني: يردُّون القرآن بألسنتهم تكذيبًا له.

وقال ابن عباس: يريد اليهود والنصارى أن يلزموا توحيد الرحمن بالمخلوقين الذين لا تليق بهم الربوبية.

وقال الضحاك: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه، ولا يعبد اللَّه بالإسلام.

---

(١) المصدر نفسه (٥/ ٢٢١).

﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، أي: يعلي دينه، ويظهر كلمته، ويتم الحق الذي بعث به رسوله ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، يعني: محمدًا ﷺ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾، قال ابن عباس: بالقرآن، وقيل: تبيان فرائضه على خلقه، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، هو: الإسلام.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، ليعليه، وينصره، ويظفره ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: على سائر الملل كلها ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

واختلف العلماء بمعنى هذه الآية:

فقال ابن عباس: الهاء عائدة على الرسول ﷺ، يعني: ليعلِّمه شرائع الدين كلها، فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء.

وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق.

قال أبو هريرة، والضحاك: ذلك عند خروج عيسى ﷺ؛ إذا خرج اتَّبعه كل دين، وتصير الملل كلها واحدة، فلا يبقى أهل دين إلا دخل في الإسلام، أو أدَّى الجزية إلى المسلمين[(١)]»[(٢)].

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصّلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه، وافتراء افتروه؛ أخبر أنهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه اللَّه: نورًا؛ لأنه يستنار به في ظلمات الجهل، والأديان الباطلة؛ فإنه علمٌ بالحق، وعمل بالحق، وما عداه، فإنه بضده، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهاهم من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور اللَّه، بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلًا.

(١) قولهم: «أو أدَّى الجزية إلى المسلمين» فيه نظر؛ لأن عيسى ﷺ يضع الجزية، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل إلا الإسلام من جميع الأنام.
(٢) «الكشف والبيان» (٥/ ٣٥).

﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق -ولو اجتمعوا على إطفائه- أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفَّل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وسعوا ما أمكنهم في ردِّه وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئًا.

ثم بَيَّنَ -تعالى- هذا النور الذي قد تكفَّل بإتمامه وحفظه؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح؛ فكان ما بعث اللَّه به محمدًا ﷺ مشتملًا على بيان الحق من الباطل، في أسماء اللَّه وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان؛ من إخلاص الدين للَّه وحده، ومحبة اللَّه وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم، والأعمال الصالحة، والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه؛ من الأخلاق والأعمال السيئة، المضرة للقلوب والأبدان، والدنيا والآخرة.

فأرسله اللَّه بالهدى ودين الحق ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، أي: ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد اللَّه لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به»(١).

وقال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: قال بعض العلماء: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾، هو: هذا القرآن الكريم، وقد سمى اللَّه هذا القرآن نورًا في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨]، هو نور أضاء اللَّه به كل شيء، وكل من لا يعلم أنه نور، وأنه حق؛ فإن ذلك إما جاءه من قبل عماه؛ لأنه خفاش أعمى، والأعمى لا يرى الشمس، وقد بيَّن اللَّه في سورة الرعد في قوله: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد: ١٩]، فصرح بأن الذي يمنعه على أن يعلم أنه الحق إنما هو عماه.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٥١).

إذا لم يكن للمرء عين بصيرة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفرُ

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، يعني: يُذهبوا أدلة هذا القرآن العظيم ويبطلوها، ويمنعوا إقامة أدلته وإظهاره للحق والدين.

في قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وجهان:

أحدهما: أن المراد إطفاءه بأفواههم هو: تكذيبهم به، وقولهم: إنه شعر، أو سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، أو مكذوب على اللَّه؛ فهذا إرادتهم تكذيبه، وإبطاله بأقوالهم بالقول الكاذب.

وقال بعضهم: يشبه فعلهم بمن رأى نورًا مستضيئًا ملأ أقطار الدنيا، وأراد أن ينفخه؛ ليطفئه بنفخه؛ لأن النفخ يطفئ النور الضعيف، ولا يقدر على النور العظيم القوي.

وكأنه شبَّه إرادتهم لإطفائه بمن يريد أن ينفخ في نور عظيم ملأ الأرض؛ ليطفئه بالنفخ، وهذا لا يمكن أبدًا ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ -جل وعلا- ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فلو كره الكافرون إتمامه؛ فهو مُتَمِّمُهُ مهما كان.

﴿هُوَ﴾، أي: اللَّه ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾، هو: محمد ﷺ ﴿بِالْهُدَى﴾، قال بعض العلماء: الهدى هو: القرآن؛ لأن اللَّه يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] قالوا: ﴿بِالْهُدَى﴾، أي: بالقرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾، هو: دين الإسلام، الذي لا يقبل اللَّه غيره ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ الضمير في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ فيه وجهان للعلماء:

قال بعضهم -وهو مروي عن ابن عباس-: الضمير عائد إلى النبي ﷺ، أي: أرسله بهذا الهدى ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾: ليطلعه على جميع الأديان؛ فبيِّن لأهلها حقيقها من باطلها؛

كما قدمناه في قوله: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وغير ذلك من الآيات، أن النبي ﷺ علم من كتاب اللَّه ما جاء في جميع الكتب المتقدمة.

القول الثاني -وعليه الأكثر-: أن الضمير للدين ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، أي: ليظهر دين الإسلام؛ أي: يعليه على جميع الأديان كلها، وهذا الإعلاء يدخل فيه إظهاره بالحجة والبرهان، فبراهينه قاطعة، وحججه ساطعة لا شك فيه، وكتابه محفوظ، فلا شيء يوازيه ولا يشابهه.

قال بعض العلماء: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، أي: ينصره ويعليه على جميع الأديان، وقد وفَّى اللَّه بهذا فيما مضى، وسيفي به في المستقبل؛ لأن الدين فيما مضى ظهر على جميع الأديان، وأذل الدول الكبار العظيمة المعروفة؛ كالدولة الكِسروية، والدولة القيصرية، لم يبق منهم إلا من هو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر، أو مسلم، وانتشر في أقطار الدنيا من شرقها وغربها، وظهر على كل الأديان، وأذلَّ أهلها، وسيأتي ذلك في آخر هذا الزمان؛ كما جاء في أحاديث صحيحة كثيرة: أنه لا يبقى في آخر الزمان أحد إلا كان مسلمًا، ولم يكن في المعمورة غير دين الإسلام»[1].

* * *

(١) «العذب النمير في مجالس الشنقيطي في التفسير» (٥/ ٢٢٧٣-٢٢٧٥).

دلالات منهجية في الحقيقة الأولى

الأولى: أن الأعداء الحقيقيين للإسلام هم الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللَّه: يهودًا ونصارى؛ لأن هذه الآيات جاءت في سورة التوبة بعد قوله -تعالى-: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٢٩و٣٠].

وإليك أقوالهم بأفواههم لتنبئك عن الحقيقة: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]

١- كان الجندي الصليبي الآتي من وراء البحار ينادي بأعلى صوته:

«أماه . . .

أتمي صلاتك . . لا تبكي . .

بل اضحكي وتأملي . .

أنا ذاهب إلى طرابلس . . .

فرحًا مسرورًا . .

سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة . . .

سأحارب الديانة الإسلامية . . .

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن . . .»[1].

(١) «القومية والغزو الفكري» (ص ٢٠٨).

٢- قال أيوجين روستو -رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية، ومساعد وزير الخارجية الأمريكية، ومستشار الرئيس جونسون لشئون الشرق الأوسط حتى عام (١٩٦٧م)- :

«يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية.

لقد كان الصراع محتدمًا ما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمرّ حتى هذه اللحظة بصور مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي.

ويتابع :

إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي : فلسفته، وعقيدته، ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي، بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام، وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية؛ لأنها إن فعلت عكس ذلك؛ فإنها تتنكر للغتها، وفلسفتها، وثقافتها، ومؤسساتها»(١).

٣- يقول باترسون سمث في كتابه «حياة المسيح الشعبية» :

«باءت الحروب الصليبية بالفشل، لكن حدثًا خطيرًا وقع بعد ذلك، حينما بعثت انكلترا بحملتها الصليبية الثامنة، ففازت هذه المرة، إن حملة (اللنبي) على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى هي الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة»(٢).

٤- أما غورو؛ فإنه عندما تغلب على جيش ميسلون خارج دمشق، توجه فورًا إلى قبر صلاح الدين الأيوبي -رحمة اللّه عليه-، وركله بقدمه، وقال له :

«ها قد عدنا يا صلاح الدين»(٣).

---

(١) «معركة المصير» (ص ٨٧-٩٤).

(٢) «مجلة الطليعة القاهرية» مقال وليم سليمان (ص ٨٤)، عدد ديسمبر عام (١٩٦٦م).

(٣) «القومية والغزو الفكري» (ص ٨٤).

٥- قال راندولف تشرشل:

«لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود.

إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست اليهودي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية، ولن تعود إلى المسلمين في أيَّة مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود»[١].

٦- واستغلت دولة اليهود صليبية الغرب؛ حيث خرج أعوانها بمظاهرات قبل حرب الـ (١٩٦٧م) تحمل لافتات في باريس، سار تحت هذه اللَّافتات جان بول سارتر، كتبت على هذه اللَّافتات، وعلى جميع صناديق التبرعات لإسرائيل جملة واحدة من كلمتين، هما:

«قاتلوا المسلمين».

فالتهب الحماس الصليبي الغربي، وتبرع الفرنسيون بمليار فرنك خلال أربعة أيام فقط، كما طبعت إسرائيل! بطاقات معايدات كتبت عليها «هزيمة الهلال»، يبعث بالملايين لتقوية الصهاينة الذين يواصلون رسالة الصليبية الأوربية في المنطقة، وهي محاربة الإسلام وتدمير المسلمين»[٢].

٧- يقول المستشرق الفرنسي كيمون في كتابه «أثولوجيا الإسلام»:

«إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكًا ذريعًا، بل هو مرضٌ مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه من الخمول والكسل إلا ليدفعه إلى سفك الدماء، والإدمان على معاقرة الخمور، وارتكاب جميع القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رءوس المسلمين، فيأتون بمظاهر الصرع والذهول العقلي إلى ما لا نهاية، ويعتادون

---

(١) «حرب الأيام الستة» (ص ١٢٩) من الترجمة العربية.

(٢) «طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية» (ص ٢٠-٢١).

على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة؛ ككراهة لحم الخنزير، والخمر والموسيقى.

إن الإسلام كله قائم على القسوة والفجور في اللذات!

ويتابع:

أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر»[(١)].

الثانية: أن هؤلاء الأعداء مجمعون على معاداة المسلمين، ومجتمعون على حرب الإسلام -مع تفرقهم فيما بينهم، وعداوتهم لبعضهم، وتشتُّت مناهجهم، واختلاف عقائدهم، وتربصهم لبعضهم الدوائر-، كما أخبر اللَّه ﷻ، فالنصارى واليهود على اختلاف عظيم وتباعد كبير: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

فعلى الرغم من عداء الكفار بعضهم لبعض -هذا-؛ إلا أنهم يجتمعون على حرب الإسلام وأهله ودعاته، ولذلك أخبر رسول اللَّه ﷺ: أن أمم الكفر «تتداعى» على حرب الإسلام والكيد لأهله[(٢)].

قال اللَّه -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

فأمم الكفر وأهل الشرك يوالي بعضهم بعضًا عندما يكون الإسلام هو العدو؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وذلك: أنهم قد اختلفت أديانهم، ولكن توحَّد مقصودهم من خدمة الشيطان، والقتال في سبيل الطاغوت؛ كما قال اللَّه -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) «الاتجاهات الوطنية» (١/ ٣٢١)، و«تاريخ الإمام» (٢/ ٤٠٩)، و«الفكر الإسلامي الحديث» (ص ٥١)، و«القومية والغزو الفكري» (ص ١٩٢).

(٢) كما جاء في حديث تداعي الأمم، وقد شرحته في كتاب مفرد: «بدائع الحكم المنتقاة من حديث تداعي الأمم»، وهو مطبوع متداول.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُحذِّر -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين من أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم اللَّه من فضله، وما منحهم من إرسال رسوله.

ولذلك؛ فكلمة الكفار اجتمعت على حرب الإسلام، والكيد لأهله؛ كما قال اللَّه -تعالى-: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]»[١].

وتتجلَّى في هذه الدلالة الوجوه الآتية:

١- صراعنا مع أعدائنا صراع عقيدة ووجود، وليس صراع أرض وحدود -فحسب-.

إن حقيقة الصراع بين أمة الإسلام وأمم الكفر هو: الاختلاف في الدين والعقيدة، وليس كما زعم بعض الخُلوف: أن صراعنا مع اليهود وغيرهم؛ لأسباب اقتصادية، أو من أجل الأرض.

عقد محمود عبد الحليم -مؤرخ حركة الإخوان المسلمين- فصلًا تحت عنوان «في قضية فلسطين» في كتابه: «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ»[٢].

وتحدث عن لجنة أمريكية بريطانية مشتركة من أجل قضية فلسطين، وقد حضر (حسن البنا)[٣] اجتماعًا لها في مصر، وألقى كلمة قال فيها: «والناحية التي سأتحدث عنها نقطة بسيطة[٤] من الوجهة الدينية؛ لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة في العالم الغربي، ولهذا؛ فإني أحب أن أوضحها باختصار، فأقرر: إن خصومتنا لليهود ليست دينية؛ لأن القرآن حضّ على مصافاتهم ومصادقتهم!! والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وقد أثنى عليهم، وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٩٥).
(٢) (١/ ٤٠٩)، وانظر -لزامًا-: «حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية» (ص٢٨٨).
(٣) مؤسس حركة الإخوان المسلمين.
(٤) هذا خطأ لغوي منتشر، وصوابه: يسيرة.

ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وحينما أراد القرآن أن يتناول مسألة اليهود؛ تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية، فقال -تعالى-: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]»!

وقال الدكتور يوسف القرضاوي -مُنظِّر حركة الإخوان المسلمين الدوليِّين-: «جهادنا مع اليهود ليس لأنهم يهود، بعض الإخوة الذين يكتبون في هذه القضية ويتحدثون عنها: يعتبرون أننا نقاتل اليهود؛ لأنهم يهود، ولا نرى هذا(!!)

فنحن لا نقاتل اليهود من أجل العقيدة؛ إنما نقاتلهم من أجل الأرض، ولا نقاتل الكفار؛ لأنهم كفار، وإنما نقاتلهم؛ لأنهم اغتصبوا أرضنا وديارنا، وأخذوها بغير حق(!!)»[١].

٢- ينبغي اجتماع كلمة المسلمين على قتال أعداء الله.

فكما اجتمعت كلمة أعداء الله على حرب المسلمين، ينبغي أن تجتمع كلمة المسلمين على قتالهم؛ لتكون الغلبة للمسلمين حسب سنن الله الجارية.

قال -تعالى-: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: كما يجتمعون إذا حاربوكم؛ فاجتمعوا أنتم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون»[٢].

٣- فشل كل المحاولات القتالية الفردية أو الحزبية.

إن أعداء الله عندما غزوا أمة الإسلام في عقر دارها؛ جيشوا الجيوش، واجتمعوا على هدف واحد، فأخذوا بعض ما في أيدينا من ديار الإسلام وثروات الأمة الإسلامية، ولن نكون لهم بالمرصاد إلا إذا اجتمعت كلمة المسلمين على كلمة

---

(١) «مجلة الراية» عدد (٤٦٩٦) بتاريخ (٢٤ شعبان/ ١٤١٥ هـ) الموافق (٢٥ يناير ١٩٩٥م).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٦٩-٣٧٠).

التوحيد، وكانوا صفًّا كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، أما محاولات كثير من الحماسيِّين؛ فلن تزيد الأمة إلا ضِغثًا على إبالة[١].

فالأمة -الآن- بحاجة إلى إمام عادل-شامل-: يوحِّدُ كلمتها، ويرصُّ صفها، ويجمع شملها؛ ليلقى بها عدوها صفًّا كأنها بنيان مرصوص، لا يجد فيه أعداء اللَّه خللًا يتسلَّلون منه لواذًا؛ ليضعوا خلالها الفتن الداخلية والحروب الأهلية، ويقسموا الأمة إلى قِطاعات بشرية من الحزبية -كل حزب بما لديهم فرحون-، فبينما أعداؤنا على اختلافهم يتوحدون ضدنا؛ ترانا نتفرق بغيًا بيننا وتنافسًا على الدنيا وحبًّا فيها!

ثانيها: أن نور هذه الأمة تام، وأمرها عام، ومستقبلها هام، فلن يستطيع الكفار استئصالها ولو اجتمعوا عليها من أقطارها.

قال شيخ المفسرين: «وهو النور الذي جعله اللَّه لخلقه ضياء ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾: يعلو دينه، وتظهر كلمته، ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمدًا ﷺ»[٢].

وقال الحافظ ابن كثير: «. . . فمثلهم في ذلك؛ كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه؛ فكذلك ما أرسل اللَّه به رسوله لا بد أن يتمَّ ويظهر، ولهذا قال -تعالى- مقابلًا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطِّيه، ومنه سُمِّي الليل: كافرًا؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع: كافرًا؛ لأنه يغطِّي الحبَّ في الأرض؛ كما قال -تعالى-: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]»[٣].

وقال البغوي: «﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، أي: يعلي دينه، ويظهر كلمته، ويتم الحق الذي بعث به محمدًا»[٤].

---

(١) وما تجربة حركة حماس الإخوانية في فلسطين المسلمة عنا ببعيد. . وهي بحاجة إلى دراسة مستقلة، يسر اللَّه ذلك بمنه وكرمه.

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٤٢٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٧٤).

(٤) «معالم التنزيل» (٤/ ٣٩).

وقال **السمرقندي**: «﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾، يعني: لا يرضى اللَّه ولا يترك ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، يعني: يظهر دين الإسلام»(١).

قال الزمخشري: «مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد اللَّه أن يزيده ويُبلِّغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة، ليطفئه بنفخه ويطمسه ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، ليظهر رسوله عليه السلام ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على أهل كل الأديان، أو ليظهر دين الحق على كُلِّ دين»(٢).

وهذه الآيات القرآنية الصريحة تدل على حقائق شرعية:

١- أن اللَّه ﷻ هو الذي بيده أمر كل شيء ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فإرادته نافذة، وكلمته تامة، ولا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فلا يقع من هذا الكون جبرًا عن اللَّه، ولذلك؛ فقوة المسلمين بمقدار توكلهم على ربهم، وإقامتهم لمنهجه، ونصرة دينه؛ فإنه مُتِمُّه.

٢- قوله -تعالى- في سورة التوبة: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

فيه دلالتان:

الأولى: ظهور هذا الدين دائمًا؛ لأن الفعل المضارع يعني الاستمراريَّة، ويُفَسِّره أحاديث الطائفة المنصورة والفرقة الناجية الظاهرة على الحق دائمًا: إما بالحجة والبيان، أو السيف والسنان.

الأخيرة: أنَّ إتمام النور وظهور الدين لا يكون إلا بالتدريج؛ لأن هذه هي السنة الكونية الشرعية.

الثالثة: وأما قوله -تعالى- في سورة الصف: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ فيه دلالة على أن العاقبة للإسلام، والمستقبل له بإذن اللَّه ﷻ وظهوره على جميع الأديان، واللَّه أعلم.

---

(١) «تفسير السمرقندي» (٢/ ٤٦).
(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٣٥).

الرابعة: ما من كلمة أصدق، ولا تعبيرٍ أدق من إخبار اللّٰه ﷻ عن حقيقة الإسلام بأنه نور، وعن واقع الكفر بأنه ظلمات؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

إنها حقيقة يجد المؤمن حلاوتها في قلبه، ويتذوَّقُ طعمها في كيانه، ويجني ثمارها في جميع مفردات حياته: في رؤيته للواقع، وتقديره للأشخاص، وتقييمه للأحداث، وتقويمه للأشياء.

وما يخرج الناس من النور إلا ليعيشوا في ظلمة من الظلمات أو في ظلمات مجتمعة؛ لأن الكفر ظلمات: ظلمات متنوعة ومتعددة.. ظلمة الهوى والشهوة، والنزعات.. وظلمة الشرود، والاندفاع في التيه.. وظلمة الشك، والقلق، والحيرة، والانقطاع عن الهدى، والوحشة من الجناب الآمن.. وظلمة اضطراب الموازين، وتخلخل الأحكام، وتحلُّل القِيم.

ولن ينقذ الناس من هذا الظلام إلا نور اللّٰه المبين؛ يُشرق في قلوبهم بإذن اللّٰه، ويغمر أرواحهم، ويعمر عقولهم، ويهديهم إلى فطرتهم، وهي: فطرة هذا الدين القيِّم: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥و١٦].

وهذا الوصف الرَّباني لحقيقة الإسلام له دلالاته في منهج الدعوة إلى اللّٰه، وحياة داعي اللّٰه؛ فمنها:

١- طريق الدعوة إلى اللّٰه نور على نور، وبيانه:

أن اللّٰه -سبحانه- وصف نفسه بأنه نور السموات والأرض: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

واحتجب عن خلقه بالنور؛ كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

«. . .حِجابُه النور، ولو كَشَفَه؛ لأَحْرَقَت سُبُحات وَجْهِهِ ما انتهى إليهِ بَصَرُه من خَلْقِه»(١).

وجعل كتابه نورًا؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

ووصف نبيه ﷺ بأنه نورٌ؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وجعل دينه نورًا كما في قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

إذن؛ فطريق الدعوة إلى اللَّه نور على نور: غايتها، وسبيلها، ومعالمها، ولقد تركنا رسول اللَّه ﷺ على بيضاء نقيَّة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، ولكن من لم يجعل اللَّه له نورًا فما له من نور.

٢- سبيل اللَّه واحدة، وبنيَّات الطريق متعددة:

لقد أفرد اللَّه ﷻ كلمة «النور»، وجمع كلمة «الظلمات»، لأن النور واحد، وهو الصراط المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له؛ بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا بالأهواء والبدع، بخلاف طرق الضلال؛ فإنها متعددة متشعِّبة، ولهذا يفرد -سبحانه- الحق، ويجمع الباطل.

وقد ثبت عن رسول اللَّه ﷺ: أنه خطّ خطًّا مستقيمًا، وقال: «**هذا سَبيلُ اللَّه**»، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، وقال: «**هذه سُبُلُ الشيطانِ، على كلِّ سبيل شيطانٌ يدعو إليه**»، ثم قرأ قول اللَّه -تعالى-: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣](٢).

إنَّ هذا التميز، وهذه المفاضلة ذات بال؛ لتستبين معالم الحق الذي يستحيل أن يلتقي مع الباطل في صورة من الصور، إلَّا إذا تحوَّل الباطل بِكُلِّيته إلى الحق أو العكس.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد وابن حبان وغيرهما.

٣- أعداء اللَّه يريدون أن يطفئوا نور اللَّه.

إنَّ دعاة الضلالة وأئمة الكفر الذين بيدهم أزِمَّة الأمور في سبيل الشيطان، يحاربون نور اللَّه؛ سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن، أو يحرِّضون أتباعهم وأشياعهم وإخوانهم على حرب هذا النور وأهله، أو الوقوف سدًّا منيعًا في وجهه؛ كما هو الواقع على مدار التأريخ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

إن هذا البيان -وإن كان يريد استجاشة قلوب المسلمين- يُصور الموقف الدائم لأعداء هذا المنهج من نور اللَّه المتمثِّل في دينه الحق الذي يهدي للتي هي أقوم.

٤- المستقبل لهذا الدين.

إنَّ أعداء اللَّه يمكرون؛ لكن مكرهم يبور، فإن المستقبل لهذا الدين وعدٌ من اللَّه ووعده حقّ؛ لأنه سنته التي لن تتبدل في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره المشركون: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

ولقد تواتر النقل عن رسول اللَّه ﷺ بأن المستقبل للإسلام وحده(١).

٥- يا دعاة الإسلام! استضيئوا بنور اللَّه واعتصموا بحبل اللَّه.

إن وعد اللَّه حق تطمئن له قلوب الذين آمنوا؛ فيدفعهم هذا إلى المضيِّ في الطريق إلى اللَّه على المشقة واللأواء، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم؛ لأنهم يعلمون أن هذا النور لا بد أن يعم الأرض، فلا بدَّ له من دعاة يمشون به في الناس؛ ليحيوا بنور اللَّه على منهج اللَّه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالمسلم على ما يُيَسِّرُ له من العلم -ولو كان ضئيلًا-؛ يُبيِّنه وينشره: يُعَلِّم به الجاهل، ويرشد به الضال، وهو بقوله الطيب وعمله الصالح؛ كالنور يشع على من حوله، وتتسع دائرة إشعاعاته وتضيق بحسب ما عنده من علمٍ وعملٍ ودعوة.

---

(١) انظر (ص ٧٠).

فعلى داعي اللَّه: أن يعلم هذا من نفسه، ويعمل عليه، ويضرع إلى اللَّه دائمًا في دعائه: أن يفيض عليه من نوره، ويقيه الشيطان وشروره، وحب نفسه وغروره، مُلتجئًا إلى اللَّه في كل أموره، ويدعو بدعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به: «**اللَّهمَّ اجْعَل في قَلْبي نُورًا، وفي سَمْعي نُورًا، وفي بصري نورًا، وعَن يميني نُورًا، وعن يَساري نورًا، ومن تَحتي نُورًا، ومن أمامي نُورًا، ومن خلفي نورًا، واجعلْ لي نورًا**»[١].

وعلى دعاة الإسلام: أن يستضيئوا بنور اللَّه الذي يهدي به اللَّه من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن يعتصموا بحبل اللَّه جميعًا ولا يتفرقوا.

كونوا يا عباد اللَّه إخوانًا، وتعاهدوا على منهج اللَّه أعوانًا. . . ومن لم يجعل اللَّه له نورًا فما له من نور.

ثالثها: ظهور الإسلام على الأديان كلها ولو كره الكافرون.

لقد أخبر رسول اللَّه ﷺ بـ«تداعي الأمم» على أمة الإسلام[٢]، لكنهم لن يستطيعوا استئصال شأفتهم، ولو اجتمعوا عليهم من أقطارها.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ زَوَى[٣] لِيَ الأَرْضَ؛ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا[٤] مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ والأَبْيَضَ[٥]، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ[٦]، وَأَلَّا يُسَلِّطَ**

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) كما في حديث: «تداعي الأمم» المشهور.

(٣) جَمَعَ وَضَمَّ.

(٤) هذا دليل قاطع على: أن الإسلام سيسيطر على الكرة الأرضية، وهو يستلزم انتشار الإسلام، وأنه سيبلغ مبلغ الليل والنهار، لا العكس؛ فتأمل.
وقد وردت الروايات بالأمرين؛ فتدبَّر.

(٥) الذهب والفضة، وهما كنزا كسرى وقيصر مَلِكَي فارس والروم.
قلت: وقد تحقق هذا الموعود النبوي؛ فملك المسلمون عرش كسرى وملك قيصر.
وهذا كله مقدمة للفتح الأعظم والنصر المؤزَّر، حيث يملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها.
وكما تحقق الأمر الأول؛ فإنَّ الفتح الأخير قادم لا محالة، ولو كره المشركون، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه، ولتعلمنَّ نبأه بعد حين.

(٦) القحط الذي يعمهم.

عَلَيْهِم عَدُوًّا مِن سِوى أَنفُسِهم؛ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُم[1]، وَإِنَّ رَبّي قال: يَا مُحَمَّد! إِنِّي إِذا قَضَيْتُ قَضاءً؛ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَلّا أُهْلِكَهُم بِسَنَةٍ عامَّةٍ، وَأَلّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِم عَدُوًّا مِن سِوَى أَنْفُسِهِم يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُم، وَلَو اجْتَمَعَ عَلَيْهِم مَن بِأَقْطارِهَا[2] -أو قال: مَن بَيْنَ أَقْطارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُم يُهْلِكَ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُم بَعْضًا»[3].

ودلالة ذلك تتجلّى في الوجوه الآتية:

١- الفتن الداخلية، والحروب الأهلية هي التي تنهك قوى الأمة الإسلامية، وتُشتِّت شملها، وتُفرِّق جمعَها، ولذلك؛ فإن أعداء الإسلام يعملون على نشرها، وإيقاد نارها.

٢- مكر أعداء الإسلام ومخطَّطاتهم ستبوء بالفشل الذريع، وتكون عليهم حسرة.

٣- ينبغي على الأمة الإسلامية أن تحارب من يحاول تمزيقها إلى دويلات مُتناحرة، وشعوب وقبائل متنافرة؛ لأنه أخطر من العدو الخارجي، بل هو الذي يوطِّئ للعدوان الخارجي، ويطرقه على الأمة، ويدله على عوراتها.

إن «تداعي الأمم» على المسلمين من كل أفق، وعجزهم عن استئصال هذه الأمة الإسلامية المرحومة؛ لدليلٌ واضح، وبرهان لائح أن: المستقبل للإسلام -وحده- بإذن اللّه وحده، ولو كره الكافرون.

ومن تأمل هذا الحديث: وجد ذلك عيانًا؛ فقد بَشَّر رسول اللّه ﷺ في أوله بالتمكين لهذه الأمة الإسلامية، وفي آخره أخبر بعجز «الأمم» عن استئصال المسلمين؛ فتبيَّن لذي عينين أن المستقبل لدين اللّه رغم أنوف أعداء اللّه، وبذلك يتحقق قوله -تعالى-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

---

(١) جماعتهم وأصلهم.

(٢) أهل الأرض جميعًا.

(٣) أخرجه مسلم.

رابعها: ظهور الدين على الأديان كلها لسببين:

الأول: لأن اللَّه هو المرسل والشهيد؛ ولذلك قال -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، وهذا توكيد لوعد اللَّه الأول ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، ولكن في صورة أكثر تحديدًا وأبلغ توكيدًا، ولذلك ختم آية الفتح بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾.

الأخير: إكمال الدين الحاصل بكونه هدًى وحقًّا، والحق يعلو ولا يُعلَى عليه، ويدمغ الباطل؛ فإذا هو زاهق، والهدى لا يقوم في وجهه ضلال وانحراف؛ لأن العاقبة للحق والعافية في الهدى.

قال الفخر الرازي: «اعلم أنه -تعالى- لما حكى عن الأعداء: أنهم يحاولون إبطال أمر محمد ﷺ، وبيَّن تعالى: أنه يأبى ذلك الإبطال، وأنه يتمُّ أمره؛ بيَّن كيفيَّة ذلك الإتمام، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

واعلم: أن كمال حال الأنبياء -صلوات اللَّه عليهم- لا تحصل إلا بمجموع أمور:

أولها: كثرة الدلائل والمعجزات، وهو المراد من قوله: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾.

وثانيها: كون دينه مشتملًا على أمور يظهر لكل أحد كونها موصوفة بالصواب والصلاح، ومطابقة الحكمة، وموافقة المنفعة في الدنيا والآخرة، وهو المراد من قوله: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

وثالثها: صيرورة دينه مُستعليًا على سائر الأديان، عاليًا عليها، غالبًا لأضدادها، قاهرًا لمنكريها، وهو المراد من قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

واعلم أنَّ ظهور الشيء على غيره قد يكون بالحجة، وقد يكون بالكثرة والوفور، وقد يكون بالغلبة والاستعلاء، ومعلوم أنه -تعالى- بشَّر بذلك، ولا يجوز أن يبشِّر إلا بأمر مستقبل غير حاصل، وظهور هذا الدين بالحجة مقرَّرٌ معلوم؛ فالواجب حمله على الظهور بالغلبة.

فإن قيل: ظاهر قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يقتضي كونه غالبًا لكل الأديان، وليس الأمر كذلك؛ فإن الإسلام لم يصر غالبًا لسائر الأديان في أرض الهند والصين والروم، وسائر أراضي الكفرة(!).

قلنا: أجابوا عنه من وجوه:

الوجه الأول: أنه لا دين بخلاف الإسلام إلا وقد قهرهم المسلمون، وظهروا عليهم في بعض المواضع، وإن لم يكن كذلك في جميع مواضعهم؛ فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب، وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها من ناحية الروم والغرب، وغلبوا المجوس على ملكهم، وغلبوا عُبَّاد الأصنام على كثير من بلادهم مما يلي الترك والهند، وكذلك سائر الأديان؛ فثبت أن الذي أخبر اللَّه عنه في هذه الآية قد وقع وحصل، وكان ذلك إخبار عن الغيب؛ فكان معجزًا.

الوجه الثاني في الجواب: أن نقول: روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: هذا وعد من اللَّه بأنه -تعالى- يجعل الإسلام عاليًا على جميع الأديان.

وتمام هذا: إنما يحصل عند خروج عيسى.

وقال السدي: ذلك عند خروج المهدي، لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام أو أدَّى الخراج.

الوجه الثالث: المراد: ليظهر الإسلام على الدين كله في جزيرة العرب، وقد حصل ذلك، فإنه -تعالى- ما أبقى فيها أحدًا من الكفار.

الوجه الرابع: أن المراد من قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: أن يوقفه على جميع شرائع الدين، ويطلعه عليها بالكلية حتى لا يخفى عليه منها شيء.

الوجه الخامس: أن المراد من قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: بالحجة والبيان؛ إلا أن هذا ضعيف؛ لأن هذا وعد بأنه -تعالى- سيفعله، والتقوية بالحجة والبيان كانت حاصلة من أول الأمر، ومنع الكفار سائر الناس من التأمل في تلك الدلائل.

أما بعد قوَّة دولة الإسلام عجزت الكفار؛ فضعفت الشبهات فقوى ظهور دلائل الإسلام، فكان المراد من تلك البشارة هذه الزيادة»[١].

قال مقيِّده أبو أسامة الهلالي: ويُضاف إلى كل ما سبق: أن ما وقع من النصر والفتح في الزمن الماضي ما هو إلا إرهاصٌ لما سيأتي في أحاديث متواترة[٢].

وقال القشيري: «قوله -جل ذكره-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

أزاح العلل بما ألاح من الحجج، وأزال الشُّبه بما أفصح من النهج، فشموس الحق طالعة، وأدلة الشرع لامعة؛ كما قالوا:

هي الشمس ألا للشمس غيبة وهذا الذي نعنيه ليس يغيب»[٣]

وقال: «لما تقاعد قومه عن نصرته، وانبرى أعداؤهُ لتكذيبه، وجحدوا ما شاهدوه من صدقه؛ قيَّض اللَّه له أنصارًا من أمته، هم: نزَّاع القبائل، والآحاد والأفاضل، والسادات والأماثل، وأفراد المناقب، فبذلوا في إعانته ونصرة دينه مُهجهم، ولم يؤثروا عليه شيئًا من كرائمهم، ووقوه بأرواحهم، وأمدهم اللَّه -سبحانه- بتوفيقه؛ كي ينصروا دينه، أولئك أقوام عجن اللَّه بماء السعادة طينتهم، وخلق من نور التوحيد أرواحهم، وأهَّلهم يوم القيامة للسيادة على أضرابهم.

ولقد أرسل اللَّه نبيه لدينه موضِّحًا، وبالحق مُفصحًا، ولتوحيده معلنًا، ولجهده في الدعاء إليه مُستفزعًا، فأقرع بنصحه قلوبًا نكرًا، وبصَّر بنور تبليغه عيونًا عُميًا»[٤].

قال البقاعي: «﴿هُوَ﴾، أي: وحده ﴿ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، أي: لا رسول أحق منه بإضافته إليه ﷺ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الكامل، الذي يقتضي: أن يستقيم به أكثر الناس، ولو أنه أخبر بشيء يكون فيه أدنى مقال؛ لم يكن الإرسال بالهدى ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي:

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٨/ ٢/ ٤١).
(٢) سيأتي بعض هذه الأحاديث (ص ١٣٥).
(٣) «لطائف الإشارات» (١/ ٤١٨).
(٤) المصدر السابق (٣/ ٣١٥-٣١٦).

الأمر الثابت الكامل في الثبات الذي يطابقه الواقع ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾، أي: دينه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ دين أهل مكة والعرب -عبّاد الأصنام-، الذي يقتضي إظهاره عليه: دخوله إليها آمنًا، وإظهاره على من سواهم من أهل الأديان الباطلة بأيدي صحابته الأبرار، والتابعين لهم بإحسان، إظهارًا يتكامل بنزول عيسى عليه السلام مع الرفق بالخلق والرحمة لهم، فلا يقتل إلا من لا صلاح له أصلًا، وعلى قدر الجبروت يحصل القهر، فلأجل ذلك هو يُدبِّر أمره بمثل هذه الأمور التي توجب نصره، وتعلي قَدْرَه مع الرفق بقومه، وجميل الصُّنع لأتباعه، فلا بد أن تروا من فتوح أكثر البلاد، وقهر الملوك الشِّداد: ما تعرفون به قدرة اللَّه تعالى.

ولمَّا كان في سياق إحاطة العلم، وكان التقدير: شهد ربه -سبحانه- بتصديقه في كل ما قاله بإظهار المعجزات على يده؛ بنى عليه قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، أي: الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿شَهِيدًا﴾، أي: ذا رؤية وخبرة بطيَّة كل شيء ودخلته؛ لما له الغنى في أمره، ولا شهيد في الحقيقة إلا هو سبحانه؛ لأنه لا إحاطة وخبرة ورقبة إلا له سبحانه، وهو يشهد بكل ما أخبر به رسوله ﷺ في هذه الصورة خصوصًا، وفي غيرها عمومًا»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾، أي: محمدًا بالحق والرشاد ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي: بالحجج، ومن الظهور: الغلبة باليد في القتال، وليس المراد ألَّا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد: يكون أهل الإسلام عالين غالبين، ومن الإظهار ألَّا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان.

قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى، لم يكن في الأرض دين سوى الإسلام.

وقال أبو هريرة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، بخروج عيسى.

وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم، وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَيَنْزِلَنَّ ابنُ مريم حَكَمًا عَدْلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّليبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الخِنْزِيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزْيَةَ، ولتُتْرَكَنَّ القلاصَ[2]، فلا يُسْعى عليها، ولَتَذْهَبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ**

(١) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٧/ ٢١٣).
(٢) الناقة الشابة، جمع قلوص.

والتحاسدُ، وليدعونَّ إلى المال؛ فَلا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ».

وقيل: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾، أي: ليطلع محمدًا ﷺ على سائر الأديان؛ حتى يكون عالمًا بها عارفًا بوجوه بطلانها وبما حرَّفوا وغيَّروا منها ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾: على الأديان؛ لأن الدين مصدر يُعبر عن جمع»[١].

قال الحافظ ابن كثير: «ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾، فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: هي الأعمال النافعة في الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي: على سائر الأديان، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**إنّ اللَّهَ زوى لي الأَرْضَ؛ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا ومغاربها، وسيبلغُ مُلك أمتي ما زُوِيَ لي مِنها**»»[٢].

وقال -أيضًا-: «﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول؛ فإخباراتها حق، وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، وملِّيين ومشركين ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: أنه رسوله، وهو ناصره. واللَّه ﷻ أعلم»[٣].

وقال البغوي: «﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، يعني: الذي يأبى إلا إتمام دينه، هو الذي أرسل محمدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾، قيل: بالقرآن، وقيل: ببيان الفرائض، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، هو: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾، ليعليه وينصره ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: على سائر الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

واختلفوا في معنى هذه الآية:

فقال ابن عباس: (الهاء) عائدة إلى رسول اللَّه ﷺ، أي: ليعلمه شرائع الدين

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ٨٦).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٧٤).
(٣) المصدر السابق (٧/ ٤٨١).

كلها، فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء.

وقال الآخرون: (الهاء) راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان؛ هو: ألَّا يدان اللَّه -تعالى- إلا به.

وقال أبو هريرة والضحاك: وذلك عند نزول عيسى بن مريم، لا يبقى أهل دين إلا دخل في الإسلام.

ورُوِّينا عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ في نزول عيسى ﷺ؛ قال: «**وَيَهْلِكُ في زمانِه المللُ كلُّها؛ إلا الإسلام**»[١].

وروى المقداد، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا يَبْقَى على ظَهْرِ الأرض بيتُ مدرٍ ولا وَبَرٍ إلا أَدْخَلَهُ اللَّه كلمةَ الإسلام؛ إمَّا بِعِزِّ عَزِيزٍ، أو ذُلِّ ذَلِيلٍ، إما يُعِزُّهم اللَّهُ؛ فَيَجْعَلَهُم من أهلِهِ، فيعز به، أو يُذِلُّهم؛ فيدينونَ لَه**[٢]»[٣].

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، يعني: محمدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه التوحيد.

والثاني: أنه القرآن.

والثالث: تبيان الفرائض.

فأما ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، فهو: الإسلام.

وفي قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ قولان:

أحدهما: أن (الهاء) عائدة على رسول اللَّه ﷺ، فالمعنى: ليعلِّمه شرائع الدين كلها؛ فلا يخفى عليه منها شيء؛ قاله ابن عباس.

---

(١) صحيح؛ سيأتي تخريجه -إن شاء اللَّه- (ص ٢٠١).
(٢) صحيح؛ سيأتي تخريجه -إن شاء اللَّه- (ص ١٤١).
(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٣٩).

والثاني: أنها راجعة إلى الدين.

ثم في معنى الكلام قولان:

أحدهما: ليظهر هذا الدين على سائر الملل.

ومتى يكون ذلك؟ فيه قولان:

أحدهما: عند نزول عيسى عليه السلام؛ فإنه يتبعه أهل كل دين، وتصيرُ المللُ واحدة، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام أو أدُّوا الجزية، قاله أبو هريرة، والضحاك.

والثاني: أنه عند خروج المهدي؛ قاله السدي.

والقول الثاني: أن إظهار الدين إنما هو بالحجج الواضحة، وإن لم يدخل الناس فيه»[1].

وقال -أيضًا- في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]:

«فيه قولان:

أحدهما: أنه شهد له على نفسه أنه يظهره على الدين كله؛ قاله الحسن.

والثاني: كفى به شهيدًا أن محمدًا رسوله؛ قاله مقاتل»[2].

قال السمعاني: «قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

قال المفسِّرون: هذا عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام، لا يبقى في الأرض أحدٌ إلا أسلم.

وفي قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ قول آخر، وهو: أنه الإظهار بالحجة، فدين الإسلام ظاهر على كل الأديان بالدليل والحجة»[3].

(١) «زاد المسير» (٣/ ٤٢٧).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٤٤٥).
(٣) «تفسير السمعاني» (٢/ ٣٠٤).

وقال الفخر الرازي: «قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، أي: على جميع الأديان شرقًا وغربًا، ومصداق هذه الآية على الكمال: إنما يكون عند نزول عيسى بن مريم، حيث لا يبقى إلا دين الإسلام»[1].

وقال -أيضًا-: «قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، أي: على الأديان كلها، ومن المشهور: أن عيسى عليه السلام ينزل من السماء، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يبقى يهودي ولا نصراني إلا أسلم، وحينئذ تضع الحرب أوزارها، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾، أي: شاهدًا»[2].

قال الزمخشري: «قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾: الملة الحنيفية ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾: ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: على جميع الأديان المخالفة له، ولعمري لقد فعل؛ فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام.

وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام»[3].

قال البغوي: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾: على أنك نبيٌّ صادق فيما تخبر»[4].

قال مُقَيِّده أبو أسامة سليم الهلالي -عفا اللَّه عنه-: وفيما أخبر أن المستقبل للإسلام وحده.

قال الألوسي: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: ملتبسًا به، على أن

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٥/ ٤٤٦).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٢٠٨).
(٣) «الكشاف» (٤/ ٥٢٦).
(٤) «معالم التنزيل» (٧/ ٣٢٣).

الباء للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال من المفعول، والتباسه بالهدى بمعنى: أنه هاد، قيل: أي: مصاحبًا للهدى، والمراد به: الدليل الواضح، والحجة الساطعة، أو القرآن، وجوّز أن تكون الباء للسببية، أو للتعليل وهما متقاربان، والجار والمجرور متعلق بأرسل؛ أي: أرسله بسبب الهدى أو لأجله ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، والظاهر أنه المراد به: ما يعم الأصول والفروع، وجوَّز أن يراد بالهدى: الأصول، وبدين الحق: الفروع؛ فإن من الرسل ﷺ من لم يرسل بالفروع، وإنما أرسل بالأصول وتبيانها.

والظاهر: أن المراد بالحق نقيض الباطل، وجوَّز أن يراد به: ما هو من أسمائه -تعالى-؛ أي: دين اللَّه الحق، وجوَّز الإمام غير ذلك -أيضًا-.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده؛ أي: ما يدان به من الشرائع والملل؛ فيشمل الحق والباطل.

وأصل الإظهار: جعل الشيء على الظهر؛ فلذا كنّى عن الإعلاء، وعن جعله باديًا للرائي، ثم شاع ذلك حتى صار حقيقة عرفية، وإظهاره على الحق بنسخ بعض أحكامه المتبدِّلة بتبدُّل الأعصار، وعلى الباطل ببيان بطلانه، وجوَّز غير واحدٍ -ولعله الأظهر بحسب المقام- أن يكون إظهاره على الدين بتسليط المسلمين على جميع أهل الأديان.

وقالوا: ما من أهل دين حاربوا المسلمين إلا وقد قهرهم المسلمون، ويكفي في ذاك استمرار ما ذكر زمانًا معتدًّا به؛ كما لا يخفى على الواقفين على كتب التواريخ والوقائع.

وقيل: إن تمام هذا الإعلاء عند نزول عيسى عليه السلام، وخروج المهدي رضي الله عنه، حيث لا يبقى حينئذٍ دين سوى الإسلام، ووقوع خلاف ذلك بعد لا يضر؛ إما لنحو ما سمعت، وإما لأن الباقي من الدنيا إذ ذاك لا شيء.

وفي الجملة فصل تأكيد لما وعد اللَّه -تعالى- به من الفتح، وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه -تعالى- سيفتح لهم من البلاد، ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلُّون بالنسبة إليه فتح مكة.

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده ﷻ من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح كائنٌ لا محالة، أو كفى بالله شهيدًا على رسالته ﷺ، لأنه -عليه الصلاة والسلام- ادعاها وأظهر الله -تعالى- المعجزة على يده، وذلك شهادة منه -تعالى- عليها، واقتصر على هذا الوجه الرازي، وجعل ذلك تسلية عما وقع من سهيل بن عمرو إذ لم يرض بكتابة محمد رسول الله، وقال ما قال.

وجعل بعض الأفاضل إظهار المعجزة شهادة منه -تعالى- على تحقيق وعده ﷻ أيضًا، ولا يظهر إلا بضم إخباره -عليه الصلاة والسلام- به»[1].

وقال -أيضًا-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: محمدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: بالقرآن، أو بالمعجزة، بجعل ذلك نفس الهدى مبالغة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الملة الحنيفية ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، ليعليه على جميع الأديان المخالفة له، ولقد أنجز الله ﷻ وعده حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوبٌ بدين الإسلام.

وعن مجاهد: إذا نزل -عيسى عليه السلام- لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام، ولا يضر في ذلك ما ورد من أنه يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من الإسلام إلا اسمه؛ إذ لا دلالة في الآية على الاستمرار.

وقيل: المراد بالإظهار: الإعلاء من حيث وضوح الأدلة وسطوع البراهين، وذلك أمر مستمرٌّ أبدًا.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك؛ لما فيه من محض التوحيد، وإبطال الشرك»[2].

قال السمرقندي: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، يعني بالتوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، هو: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، يعني: على الأديان كلها قبل أن تقوم الساعة؛ فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بأن محمدًا رسول الله ﷺ، وإن لم يشهد كفار مكة، وذلك حين أراد أن يكتب محمد رسول الله؛ فقال سهيل بن عمرو: إنا لا نعرف بأنك رسول الله، ولا

---

(١) «روح المعاني» (٢٦/ ٨٤).
(٢) المصدر السابق (٢٨/ ٩٣).

نشهد، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وإن لم يشهد سهيل وأهل مكة»[(١)].

وقال: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، يعني: بالتوحيد ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، يعني: الشهادة أن لا إله إلا اللَّه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، يعني: على الأديان كلها.

قال مقاتل: وقد فعل.

ويقال: إنه يكون في آخر الزمان لا يبقى أحد إلا مسلم أو ذمة للمسلم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، يعني: وإن كرهوا ذلك»[(٢)].

وقال الفخر الرازي: «وقوله: ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ لمن اتبعه ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، قيل: الحق: هو اللَّه -تعالى-؛ أي: دين اللَّه، وقيل: نعت الدين؛ أي: والدين هو الحق، وقيل: الذي يحق أن يتبعه كل أحد ويظهره ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، يريد: الإسلام، وقيل: ليظهره؛ أي: الرسول ﷺ بالغلبة، وذلك بالحجة، وهاهنا مباحث:

الأول: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، والتمام لا يكون إلا عند النقصان، فكيف نقصان هذا النور؟ فنقول: إتمامه بحسب النقصان في الأثر، وهو الظهور في سائر البلاد من المشارق إلى المغارب؛ إذ الظهور لا يظهر إلا بالإظهار، وهو الإتمام، ويؤيده: قوله -تعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وعن أبي هريرة: أن ذلك عند نزول عيسى من السماء.

الثاني: قال هاهنا: ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥] وهذا عين ذلك أو غيره؟ نقول: هو غيره؛ لأن نور اللَّه في ذلك الموضع هو اللَّه -تعالى- عند أهل التحقيق، وهنا هو: الدين، أو الكتاب، أو الرسول.

الثالث: قال في الآية المتقدمة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال في المتأخرة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فما الحكمة فيه؟

(١) «تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٥٨).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٥٩).

فنقول: إنهم أنكروا الرسول، وما أنزل إليه -وهو الكتاب-، وذلك من نعم اللَّه، والكافرون كلهم في كفران النعم؛ فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ولأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، والمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون، وهنا: ذكر إطفاءه، واللائق به الكفر؛ لأنه الستر والتغطية، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال، وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق وذلك منزلة عظيمة للرسول ﷺ، وهي اعتراض على اللَّه -تعالى-؛ كما قال:

ألا قل لمن ظل لي حاسدًا أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على اللَّه في فعله كأنك لم ترض لي ما وهب

والاعتراض قريب من الشرك، ولأن الحاسدين للرسول ﷺ كان أكثرهم من قريش -وهم المشركون-، ولما كان النور أعم من الدين والرسول؛ لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام والإرسال، والرسول والدين أخص من النور، قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور اللَّه، الذي أفاضه على البشر بهداية دينه الحق الذي أوحاه إلى موسى وعيسى وغيرهما من رسله، ثم أتمه وأكمله ببعثه خاتم النبيين محمدًا ﷺ بالطعن في الإسلام، والصدِّ عنه بالباطل؛ كما فعلوا من قبل بمثل الأقوال في عزير والمسيح، التي لم تتجاوز أفواههم إلى معنى صحيح، وبما ابتدعه الرؤساء لهم من التشريع، حتى صار التوحيد الذي أُمروا به عندهم شركًا، والعبد المربوب ربًّا، والعابد المألوه إلهًا، على تفاوت بين فرقهم في ذلك.

والإرادة -في الأصل-: القصد إلى الشيء، وقد تُطلق على ما يفضي إليه، وإن لم يتصوره فاعله.

يقال في الرجل المسرف المبذِّر: يريد أن يخرب بيته، أو: أن يترك أولاده فقراء؛ أي: أن تبذيره يفضي إلى ذلك، فكأنه يقصده؛ لأن فعله فعل من يقصد ذلك.

---

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٤/ ١٠٧).

وأهل الكتاب الذين عادوا الإسلام منذ البعثة المحمدية كانوا يقصدون إبطاله، والقضاء عليه بالحرب، والقتال من جهة، وبإفساد العقائد والطعن من جهة أخرى، وكلٌّ من الأمرين يصح التعبير عنه بإرادة إطفاء النور؛ لأنه تمثيلٌ لحالهم معه، وأما ما كان من إفسادهم في دينهم؛ فمنه ما كان يقصد من المنافقين والمبتدعين فيه، ولا سيما الروم الذين اتخذوا النصرانية عصبية سياسية منذ عهد قسطنطين، ومنه ما كان بغير قصد إلى إطفاء نوره، بل كان بعضه بقصد خدمته، كما فعل بعض مبتدعة المسلمين الذين اتبعوا سُننهم من حيث لا يشعرون؛ بوضع الأحاديث والعبادات المبتدعة، ونشر الخرافات.

قال السُدِّي: المراد بالنور هنا: الإسلام، وقال الضحاك: هو محمد ﷺ، وقال الكلبي: هو القرآن.

وقال بعض المفسرين: المراد بالنور: الدلائل على التوحيد ونبوة محمد ﷺ، لأنها يُهتدى بها إلى الحق في العقليات، كما يُهتدى بالنور في رؤية الحسيات.

وأقول: إن المعنى: الجمع بين النور الحسي والنور المعنوي؛ هو: أنه الشيء الظاهر في نفسه المظهر لغيره، ولك أن تقول: إن النور المعنوي للبصيرة؛ كالنور الحسي للبصر.

وقد ذكرنا في تفسير قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] إن في هذا النور الأقوال الثلاثة التي ذكرناها -آنفًا-، وبيّنا وجه كلٍّ منها، واخترنا الثالث منها، وهو: القرآن؛ لموافقته لقوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقوله -تعالى- في رسوله الأعظم: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن: ٨]، وأما التوراة والإنجيل؛ فقد قال اللّه -تعالى- في كل منهما: إن فيه نورًا وهدى، ولم يجعله عين النور كالقرآن.

ونختار هنا القول الأول؛ وهو: دين الإسلام، بالمعنى العام الشامل لكل ما جاء به رسل اللَّه، ولاسيما دين التوراة والإنجيل والقرآن.

وقد كان كل منهما نورًا لأهله في الزمن الذي نزل به بقدر حاجتهم، حتى إذا نزل القرآن؛ كان هو النور الأعظم الكافي لهداية جميع البشر إلى آخر الزمان، وللَّه درُّ البوصيري[1] حيث قال في لاميَّته بعد ذكر تلك الكتب:

اللَّه أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلَا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلَا

نعم؛ إن القوم قد أطفئوا جلّ ذلك النور، فزجُّوا بأنفسهم في ظلمات لا يلوح لهم فيها إلا وميض ضئيل منه، وهم يريدون إطفاء الآخر الأخير -أيضًا-، والنور الحسي قد يطفأ بنفخ الفم؛ كسرج الزيت القديمة، وإطفاؤه: إزالته، وإطفاء النار إزالة لهبها واتِّقاد جمرها معًا، فهو أبلغ من إخمادها؛ لأن الإخماد إزالة اللَّهب فقط، وإذا كان إطفاء السراج سهلًا؛ فإطفاء نور الشمس غير ممكن.

وإنما اخترت هنا المراد بالنور: دين اللَّه، الذي بعث رسله في كل قوم بما يناسب حالهم في زمنهم؛ لأنه هو الذي يقبل التمام المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، الذي أضافه إلى اسمه ببعثه محمدًا -خاتم النبيين ﷺ- إلى الخلق أجمعين، مُبيِّنًا لهم كل ما يحتاجونه من أمر الدين؛ من عقائد يؤيدها البرهان، ويطمئن لها الوجدان، وتبطل بها عبادة الإنسان للإنسان، فضلًا عن الأصنام والأوثان، وعبادات تتزكى بها النفس، وتطهِّر من كل رجس، وتجعل كفاية الأغنياء للفقراء حقوقًا إلهية، تكفلها العقائد الوجدانية، ويُبطل ثوابها المنُّ والأذى، وآداب تطبع في الأنفس ملكات الفضائل، وتتوثق بها عرى المصالح، وتشريع سياسي وقضائي يجمع بين العدل والرحمة، ويجعل السلطان الحكمي للأمة، ويقررُّ المساواة بين جميع الناس في الحق، مع تعظيم شأن العلم والعقل، واحترام حرية الإرادة والرأي والوجدان، ومنع

---

(١) هو الشاعر الصوفي صاحب «البردة»، وفيها من الطامات الشركيات والخزعبلات الخرافيات ما يندى له الجبين، ويبرأ منه الدين، وانظر نبذًا من ذلك في تعليقاتي على: «هل المسلم ملزم باتباع مذهب من المذاهب الأربعة» (ص ٩٢-٩٨).

الإكراه على الأديان، والتوحيد المصلح للاجتماع البشري في العقائد والتعبد والتشريع واللغة؛ لإزالة التعادي بين الشعوب والقبائل، فمن لم يقبلها كلها؛ كان تشريع المساواة بالعدل كافيًا لحفظ حقوقه فيها.

أتمَّ اللَّه -تعالى- ذلك كله على لسان خاتم النبيين، الذي أرسله رحمة للعالمين، وجعل آيته الكبرى علمية عقلية -وهي هذا القرآن-، وكفل حفظها إلى آخر الزمان، ولم يكفل ذلك لكتاب آخر؛ لأن سائر الكتب كانت أديانًا خاصة مؤقتة، وأنزل عليه بعد أن أتم الدعوة، وأقام الحجة، وأوضح المحجة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وجملة المعنى في هذا التركيب: أنهم يريدون أن يطفئوا نور اللَّه الذي شرعه لهداية عباده، وإنما قطبه الذي تدور عليه جميع عباداته: توحيد الربوبية والألوهية، فتحوّلوا عنه إلى الشرك والوثنية، واللَّه -تعالى- لا يريد ذلك، لا يريد في هذا الشأن إلا أن يَتمَّ هذا النور الذي بدا في الأجيال السابقة، كالسراج على منارته، أو كنور الهلال في بزوغه، فالقمر في منازله، فيجعله بدرًا كاملًا، بل شمسًا ضاحية يعم نوره الأرض كلها، وما يريده اللَّه كائنٌ لا مردّ له.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك بعد إتمامه، كما كانوا يكرهونه من قبل عند بدء ظهوره، وجواب (لو) محذوف للعلم به مما قبله -كما يقول النحاة-، فهم يكيدون له، ويفترون عليه، ويطعنون فيه وفيمن جاء به، ويحاولون إخفاءه، أو خنق دعوته، وحصد نبتته.

فأما اليهود؛ فكان من أمرهم في مقاومة دعوته، ومساعدة المشركين عابدي الأصنام في قتال أهله، ومن خذلان اللَّه -تعالى- إياهم، ونصر رسوله والمؤمنين عليهم، ما بيّناه في تفسير سورة الأنفال، فكانوا في أول الإسلام أشد الناس عداوة لأهله، كمشركي العرب سواء، ولما عجزوا عن إطفاء نوره بمساعدة المشركين على قتال النبي ﷺ، قصدوا إطفاء نوره ببثِّ البدع فيه، وتفريق كلمة أهله؛ كما فعل عبداللَّه ابن سبأ من ابتداع التشيُّع لعلي، والغلوّ فيه، وإلقاء الشقاق بين المسلمين في مسألة الخلافة، وكان لشيعته من الدسائس في قتل عثمان ﷺ، ثم في الفتنة بين علي ومعاوية أقبح التأثير، ولولاهم لما قُتل أولئك الألوف الكثيرون من صناديد المسلمين، فإن

السعي إلى الصلح والاتفاق نجح غير مرة؛ فأفسدوه بدسائسهم، ثم كان لليهود الذين أظهروا الإسلام والقيام بفرائضه -نفاقًا- مكيدة أخرى، لا تزال مفاسدها مبثوثة في كتب التفسير والحديث والتاريخ، وهي الإسرائيليات التي بينّا بعضها في مواضع من هذا التفسير، ولا نزال نبيِّن ما يعرض لنا فيه وفي المنار[1].

وأما النصارى؛ فقد كان الحبشة منهم أول من أظهر المودَّة لهم، وأكرم ملكهم النجاشي من لجأ إليه من مهاجريهم، ومنعهم من تعدي المشركين عليهم، بل أسلم هو على أيديهم؛ كما تقدم بيانه في تفسيره ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: ٨٢].

ثم انقلب الأمر، وانعكست القضية بعد انتشار الإسلام وراء جزيرة العرب، فكان اليهود يتوددون للمسلمين؛ لأنهم أنقذوهم من ظلم النصارى واستبدادهم، وصار نصارى أوربا، المستعمرون للممالك الشرقية هم الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم، دون نصارى هذه البلاد، ولاسيما سوريا ومصر الأصليّين، فإنهم رأوا من عدل المسلمين وفضائلهم ما فضلوهم به على الروم، الذين كانوا يظلمونهم ويحتقرونهم، حتى آل الأمر إلى ما بيناه في تفسير الآية السابقة من الحروب الصليبية، وغلوٌّ نصارى أوربا في عداوة المسلمين، وما بيَّنّاه قبلها في تفسير قتال أهل الكتاب من حال مسلمي هذا العصر مع دول أوربا المستولية على أكثر بلادهم، المهدِّدة لهم فيما بقي لهم من مهد دينهم، ومشاعرهم وحرم اللَّه ورسوله ﷺ.

وقد بيّن اللَّه هذا المعنى في سورة الصف بمثل هذه الآية؛ إلا أنه قال هنالك: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ وباقي الآية ونص الآية بعدها كآيتي براءة سواء.

فأما قوله: ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾، فمن علماء العربية من يقول: إنه بمعنى (أن يطفئوا)، لأن اللام فيه مصدرية أو بمعنى المصدرية، ومنهم من يقول: إنها للتعليل، والمعلّل محذوف للعلم به من القرينة وهو التحقيق، وبيانه: أنه قبل هذه الآية ذكر بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ، وتكذيب اليهود له في رسالته وبشارته، وقال بعدها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ

---

(١) المراد: مجلة المنار.

أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠]؛ فالمعنى على التعليل: أن هؤلاء الضَّالين الظالمين لأنفسهم بإنكار نبوة محمد ﷺ الذي بشرهم به عيسى عليه السلام سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم، بعد بعثته ودعوته إياهم إلى الاسلام، وظهور نوره بالحجج الساطعة الدالة على صدقه، يريدون افتراء الكذب بإنكار تلك البشارات وتأويلها بما يصرفها عن وجهها؛ لأجل أن يطفئوا نور اللَّه -تعالى- بافترائهم الذي يخرج من أفواههم، ظنًّا منهم أن الافتراء بإنكارها وتأويلها وبالطعن في محمد ﷺ يطفئ هذا النور، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾، أي: والحال أن اللَّه -تعالى- متم نوره بالفعل؛ فلا يطفئه الافتراء، بل هو كمن ينفخ في نور قوي ليطفئه؛ فيزيده بذلك اشتعالًا، أو كمن يحاول إطفاء نور الشمس؛ فلا ينال منها منالًا، فالفرق بين الآيتين: أن آية سورة الصف تعليل لافترائهم بإرادتهم إطفاء النور به، وآية براءة لما جاءت بعد بيان شركهم بمضاهاتهم لأقوال الوثنيين من قبلهم جعل ذلك نفسه بمعنى إرادة إطفاء النور بلا واسطة.

ثم إن بينهما فرقًا آخر، وهو: التعبير في آية سورة الصف بقوله: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾، وفي سورة براءة قوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، والأول يفيد: أنه متمُّه بالفعل في الحال، والثاني: وعد بأن يتمَّه في الاستقبال، فيجتمع منهما إثبات هذا الإتمام في الحال والاستقبال؛ فهو النور التام الكامل الذي لا ينطفئ بالقيل والقال، بل يبقى مُشرقًا إلى أن يأذن اللَّه لهذا العالم بالزوال، ولما كان هذا الوعد الذي يتعلق بالمستقبل المُغيَّب عن علم الخلق من شأنه أن يرتاب فيه الناس؛ أكده اللَّه -تعالى- بما لم يؤكِّد به الخبر الأول؛ لأن صدقه مشاهد لا يحتاج إلى التأكيد، وناهيك بقوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، أي: إنه لا يرضى، ولا تتعلق إرادته بشيء في هذا الشأن إلا شيئًا واحدًا، وهو أن يتم نوره؛ فلا يجعل في قدرة أحد أن يطفئه.

والآية تُشعر بأن هؤلاء الكافرين الكارهين له: سيحاولون في المستقبل إطفاء هذا النور؛ كما حاولوا ذلك في عصر من أتمه وأكمله بوحيه إليه وبيانه له، وهذا ما وقع من قبل، وأشرنا إليه في هذا السياق، وأفظعه الحروب الصليبية ومقدماتها.

وما هو واقع الآن؛ فإن دعاة النصرانية (المبشِّرون) من الإفرنج يغلون في الطعن

على الإسلام والقرآن والنبي ﷺ في كل بلد لدولهم فيه حكم أو نفوذ أو امتياز؛ كمصر، والهند وغيرهما، ولولا شدة غلوهم ووقاحتهم في الافتراء والبهتان؛ لما أطلنا في هذا السياق بما أطلنا به من بيان حالهم في دينهم وكتبهم، وهذا ما يُتوقع في الأزمنة الآتية، وقد صدق اللَّه وعده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾: هذا بيان مستأنف للمراد من إتمام نور اللَّه ﷻ؛ وهو أن اللَّه الذي كفل إتمام هذا النور هو الذي أرسل رسوله الأكمل، الذي أخذ العهد على النبيين من قبل ليؤمننَّ بِه ولينصرنَّه إن جاء في زمن أحد منهم، أرسله بالهدى الأتم الأكمل الأعم الأشمل، ودين الحق؛ أي: الثابت المتحقق الذي لا ينسخه دين آخر، ولا يبطله شيء آخر الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، وهو في مقابلة قوله في أهل الكتاب الذي ذكر في أول هذا السياق: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ لأنهم أضاعوا حظًّا عظيمًا من كتب أنبيائهم، ومواعظهم، وحرّفوا الباقي منها؛ فلم يقيموه على وجهه، بل استبدلوا به تقاليد وضعها لهم الرؤساء بأهوائهم؛ فعلم بهذا أن المراد بالحق: الأمر الثابت المتحقق، وأن إضافة الدين إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ كمسجد الجامع، وفيه وجه آخر صحيح يجامعه ولا يباينه وهو: أن معناه: دين اللَّه، وكلمة «الحق» من أسماء اللَّه -تعالى-؛ كما قال: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ [يونس: ٣٢].

ومن المعلوم عند جميع علماء التاريخ، ولاسيما تاريخ الأديان: أنه لا يوجد دين منقول عمن جاء به من رسل اللَّه -تعالى-، أو من غيره نقلًا صحيحًا متواترًا بالقول والفعل متصل الأسانيد إلا دين الإسلام.

وقد ذكرنا في الفصل الذي عقدناه لإثبات ضياع كثير من الإنجيل، وتحريف النصارى لكتبهم المقدسة في آخر تفسير من سورة المائدة: أن فيلسوفًا هنديًا درس تواريخ الأديان كلها، وبحث فيها بحث حكيم لا يريد إلا استبانة الحق، وأطال البحث في النصرانية لما للدول المنسوبة إليها من الملك وسعة السلطان، ونظر بعد ذلك كله في الإسلام، فكانت غاية ذلك الدرس: أن عرف بالبرهان أن الإسلام هو الدين الحق؛ فأسلم، وألف كتابًا باللغة الإنكليزية عنوانه: «لماذا أسلمت؟»، أظهر فيه مزاياه على

جميع الأديان، وكان من أهمها عنده أنه: هو الدين الوحيد الذي له تاريخ ثابت محفوظ، وكان من مثل مثار العجب عنده: أن ترضى أوربا لنفسها دينًا ترفع من تنسبه إليه من مرتبة البشر فتجعله إلهًا، وهي لا تعرف من تاريخه شيئًا يعتد به!!

ثم بيَّن غاية إرسال خاتم النبيين والمرسلين بدين الحق -أو علَّته- بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يقال: أظهر الشيء: أوضحه وأبانه؛ فجعله ظاهرًا لا خفاء فيه، وأظهر فلانًا على الشيء أو على الخبر: أطلعه عليه وأخبره به، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [التحريم: ٣]. وأظهره على الشيء، أو على الشخص: جعله فوقه مستعليًا عليه، والاستعلاء هنا بالعلم والحجة، أو السيادة والغلبة، والشرف والمنزلة، أو بها كلها، وهو المختار، وإن كان الوعد يصدق ببعضها، والدين جنس يشمل كل دين.

وفي الضمير المنصوب هنا قولان:

أحدهما: أنه للرسول ﷺ، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه، والمعنى حينئذ: أنه -تعالى- يظهر هذا الرسول على كل ما يحتاج إليه المرسل هو إليهم من أمور الدين: عقائده، وآدابه، وسياسته، وأحكامه؛ لأن ما أرسله به هو الدين الأخير، الذي لا يحتاج البشر بعده إلى زيادة في الهداية الدينية.

بل يوكلون فيما وراء نصوصه إلى اجتهادهم واختبارهم العلمي والعملي مع الاهتداء بها، حتى لا يضلُّوا ولا يتفرقوا بتركها، ونحن نعلم من كتب الأديان وتاريخها أنها ليست كذلك؛ بل لا تعدو كتب كل منها حاجة المخاطبين بها من قوم رسولها؛ فاليهودية دين شعب نسبي، أراد اللَّه تربيتهم بشريعة شديدة التضييق عليهم؛ لتطهيرهم من الوثنية وعبادة البشر، ليقيموا التوحيد في بلاد مباركة استحوذ عليها الشرك، وقد كان ذلك زمنًا ما، ثم فسدوا وصار أكثرهم وثنيين؛ فبعث اللَّه إليهم المسيح عليه السلام بتعاليم شديدة المبالغة في الزهد ومقاومة المفاسد المادية، وكبح جماح الشهوات الجسدية، فكان له ما كان من التأثير فيهم وفي الروم وغيرهم زمنًا ما، ولكن غلا بعضهم في الزهد وعرض لهم فيه الغرور مع الجهل، وعاد الأكثرون إلى الإسراف في الشهوات والعلو

في الأرض. وكان هذا -بعد ذاك- تمهيدًا للدين التام الوسط الجامع بين المصالح المادية والمعنوية، والمزايا الروحية والجسدية؛ ليكون عامًّا للبشر إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

وهذه النصرانية التي يدَّعي أهلها أنها دين عام، بالرغم مما في أناجيلها من قول المسيح لهم: إنه لم يُرسل، ولم يرسلهم إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة؛ يعترفون بأنه قال (مت ١٧ : ٥): «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض؛ بل لأكمل»، ونقلوا عنه -أيضًا- مع هذا قال (يو ١٢ : ١٦): «إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكنكم لا تستطيعون أن تحتملوا الآن»، ١٣: «وأما متى جاء ذاك روح الحق؟ فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية».

وهذا لا يصدق، ولا يمكن تأويله إلا بمحمد ﷺ الذي أخبرهم وأخبر غيرهم بكل شيء من أمر الدين ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وإنما أخبر عن اللَّه ﷻ لا من عند نفسه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وأخبرهم بأمور آتية كثيرة -جدًّا- صريحة؛ بعضها في القرآن، وأظهرها: غلب الروم والفرس في مدى بضع سنين، وبعضها في الأحاديث الصحيحة، ومن المتواتر منها: قوله ﷺ لعمار بن ياسر: «**تَقْتُلُكَ الفِئَةُ الباغِيَةُ**»، وفي روايات بالغيبة؛ أي: قال هذا له ولغيره، وقوله على المنبر في الحسن: «**ابني هذا سَيِّدٌ، ولعل اللَّه يُصْلحُ به فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَينِ مِن المسْلِمِينَ**»، وإخباره فاطمة بموته، وبأنها أول من يلحق به، وإخباره بموت النجاشي يوم موته وصلاته عليه . . . ولا يزال الزمان يظهر صدقه في كل ما أخبر به في وقته، وقد مجّد المسيح -صلوات اللَّه وسلامه عليهما- بنفي طعن اليهود فيه وفي أمه، وإثبات كونه وُلِدَ طاهرًا من الدنس بكلمة اللَّه، وكونه من روح اللَّه، ومُؤيَّدًا بآيات اللَّه، وبينا كل ذلك في تفسير الآيات الواردة فيه، وقد سمَّاه المسيح باسمه الدال على الحمد الكثير (أحمد)، ومثله محمد، وهو في نسخ الإنجيل اليونانية والعربية القديمة (البارقليط)، ثم غيَّروه في التراجم الأخيرة، فسموه: (المعزي)، كما فصلنا ذلك في سورة الأعراف.

والوجه الثاني: أن الضمير لدين الحق الذي أرسل به ﷺ، ومعناه: أنه -تعالى-

يُعلي هذا الدين، ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والعلم والعمران، وكذا السيادة والسلطان. . . ولم يكن لدين من الأديان مثل هذا التأثير الروحي والعقلي والمادي والاجتماعي والسياسي إلا للإسلام وحده.

لا ننكر أن جميع أتباع الأنبياء قد صلحت حالهم باهتداء كل منهم بنبيِّهم مدة اهتدائهم به، ولكن التاريخ لم يرو لنا أنه كان لدين من الأديان كل هذه الفوائد بتأثيره فيهم.

أما ظهور الإسلام بالحجة والبرهان؛ فلا يختلف فيه عاقلان مُستقلّان، عرفاه وعرفا غيره من الأديان، وقد ذكرنا في هذا السياق بعض الشواهد على هذا من كلام علماء الإفرنج المستقلِّين، وأشرنا إلى غير ما ذكرنا منها مما يمكن لمقتني مجلدات مجلة المنار أن يراجعوه في أكثرها بالاستعانة بالفهرس العام، ولا سيما لفظ الإسلام.

وأما ظهوره عليها بالعلم والعمران، والسيادة والسلطان؛ فالذي يتراءى للناس بادي الرأي في هذا الزمان، أنه مُعارضٌ بما عليه دول الإفرنج واليابان، وضعف ما بقي من دول الإسلام، وأنه يظهر وجهه في دول العرب الأولى، وكذا دولة الترك في أول عهدها.

ونجيب عن ذلك: أن ما عليه دول الإفرنج واليابان وشعوبهما ليس من تأثير أديانهما في تعاليمها، ولا في العمل بها، ولو كان كذلك؛ لظهر عقب وجود الدين فيهم وأخذهم به.

وقد نقلنا في هذا السياق عن علماء الإفرنج الأحرار المستقلِّين: أن مدينتهم الحاضرة، وما بُنيت عليه من العلوم والفنون لم يكن إلا من تأثير الحضارة الإسلامية، والاقتباس من كتبها، ومن المعلوم لكل مُلِمٍّ بالتاريخ الحديث: أن اليابان اقتبست حضارتها وقوتها من أوربا في القرن الماضي، وحضارة العرب لا يمكن أن يكون لها سبب إلا هداية دينهم.

وقد قصَّر جميع المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم في تفسير هذه الآيات؛ لأنهم إنما يأخذون تفاسيرهم من معاني الألفاظ دون تحقيق لمداولاتها في الخارج، ومن الروايات المأثورة على قلتها وقلة ما يصح منها[1]، وقد صح في بعضها قوله ﷺ: «إنَّ

---

(١) بل صح منها الكثير الطيب؛ كما ستراه في هذا الكتاب (ص ١٢٩-١٣٨).

اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فرَأيْتُ مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبَهَا، وإنّ أمّتي سيَبْلُغُ مُلكها مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا».

وفي «مسند أحمد» عن شاب من محارب مرفوعًا: «**سَتُفْتَحُ لَكُم مَشارِقُ الأرضِ ومغارِبُها**»، وهو مطلق غير مقيد بما زُوي له ﷺ وأطلعه اللَّه عليه من الأرض، ومن علماء الأصول من يوجب حمل المطلق على المقيد، وفي بعضها تعيين مصر -وأوصى بالقبط خيرًا-، والشام، وملك كسرى، وقيصر، وكل هذا قد تم؛ فإن كان شيء مما صح عنه ﷺ أنه سيفتح للمسلمين ولمّا يفتح؛ فلا بد أن يفتح.

روى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: دخلت على رسول اللَّه ﷺ، فقال: «**يا عَديُّ! أَسْلِمْ تَسْلَم**»، قلت: إني من أهل دين، قال: «**أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ**»، فقلت: أنت أعلم مني بديني؟! قال: «**نَعَم؛ أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ؟ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟**»، قلت: بلى، قال: «**فَإِنَّ هذا لا يَحِلُّ لك في دِينِكَ**»، قال: فلم يعد أن قالها؛ فتواضعت لها. قال: «**أَمَّا إِنِّي أَعْلَمُ ما الذي يَمْنَعُكَ مِنَ الإِسْلَامِ؛ تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، ومن لا قُوَّة له، وقد رَمَتْهُم العَرَبُ، أتعْرِفُ الحِيرَةِ؟**»، قلت: لم أرها؛ ولكن سمعت بها، قال: «**فَوَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هذا الأَمْرَ؛ حتى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ من الحِيْرَةِ، حتى تَطوفَ بالبَيْتِ من غَيْرِ جوار أحدٍ، وَلَتُفْتَحَنّ كُنوزُ كسرى بن هُرْمُز**»، قلت: كسرى بن هرمز؟!! قال: «**نَعم؛ كِسرَى بنُ هُرْمُز، ولَيَبْذُلَنَّ المال حتى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**».

قال عدي: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول اللَّه ﷺ قالها[1].

ومن العلماء من يقول: إن بعض هذه البشارات لا يتم إلا في آخر الزمان عند ظهور

---

(١) صحيح: سيأتي تخريجه (ص ١٣٣)، وقد دلّ القرآن والسنة على أن فقه الصحابة رضي الله عنهم للمبشرات بمستقبل الإسلام؛ هو: التصديق المطلق والاستعداد المطبق؛ ليكونوا جنود اللَّه الذين يحققون ذلك . . . فلم يتواكلوا، ويقعدوا ينتظروا تحقيق ذلك(!)

المهدي، وما يتلوه من نزول عيسى بن مريم ﷺ من السماء، وإقامته لدين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، وإظهاره بالحكم والعمل به؛ خلافًا لما يتوقعه اليهود والنصارى، على اختلافهما في صفته.

وقد كان شيوع هذا بين المسلمين من أسباب تقاعسهم عما أوجبه اللَّه -تعالى- في كل وقت: من إعلاء دينه، وإقامة حجته، وحماية دعوته، وتنفيذ شريعته، وتعزيز سلطته؛ اتكالًا على أمور غيبية مستقبلة، لا تسقط عنهم فريضة حاضرة، وقد تقدم في الكلام على أشراط الساعة من تفسير (سورة الأعراف): أن أحاديث المهدي لا يصح منها شيء يحتج به[1]، وأنها مع ذلك متعارضة متدافعة، وأن مصدرها نزعة سياسية معروفة، وللشيعة فيها خرافات مخالفة لأصول الدين، لا نستحسن نشرها في هذا التفسير.

وأما أحاديث نزول عيسى؛ فبعض أسانيدها صحيحة، وهي على تعارضها واردة في أمر غيبي متعلق بأحاديث الدجال المتعارضة مثلها، كما تقدم بيانه -أيضًا- في ذلك البحث[2]، فينبغي أن يفوَّض أمرها إلى اللَّه -تعالى-! وألَّا تكون سببًا للتقصير في إقامة الدين والدنيا بما شرعه اللَّه -تعالى- فيهما.

وقد كان اليهود يتَّكلون في إعادة ملكهم في فلسطين وما جاورها على ما في كتب أنبيائهم من البشائر، بظهور المسيح (مسيا) الذي يعيده لهم بخوارق العادات، فلما طال عليهم الأمد ومرت ألوف السنين ولم يقع ذلك؛ هبُّوا إلى إعادته بالأسباب الكسبيَّة، حتى أنهم سخروا الدولة الإنكليزية لمساعدتهم عليه، ومعاداة العرب، وسائر المسلمين في سبيله، أفَلَسْنَا أحق بحفظ ما بقي من ملكنا، واستعادة ما فقدنا منه بكسبنا واجتهادنا، من هؤلاء اليهود على قِلَّتِهم وكثرتنا؟ بلى واللَّه، وإن من الجهل بالدين وسنن اللَّه في الخلق أن نُقصِّر في ذلك؛ اتكالًا على المستقبل الذي لا يعلمه إلَّا

(١) هذا تقليد من الشيخ محمد رشيد رضا لابن خلدون؛ فهو أول من طعن في أحاديث المهدي، ووجهها توجيهًا سياسيًّا.

والصواب: أن أحاديث المهدي متواترة تواترًا معنويًّا؛ كما ستراه (ص ١٧٧) من هذا الكتاب.

وقد رددنا على ابن خلدون في كتابنا: «الأدلة والشواهد»، وتحقيقنا لـ «مقدمته».

(٢) أحاديث نزول المسيح وخروج الدجال متواترة، انظر (ص١٨٠ و ١٨٣).

اللَّه ﷻ، ومتى جاء وكنا مقيمين لديننا؛ كنا أجدر بالانتفاع به، بل لا يعقل أن يعتد المهدي والمسيح بدين أحد لا يفعل ما يستطيع في إقامة فرائض اللَّه وحدوده، وسبق لي أن أطلت في بيان هذه المسألة في كتابي «الحكمة الشرعية»، الذي ألَّفته في عهد طلبي للعلم في طرابلس الشام، وقد بينت في هذا السياق ما نرجوه ونتوقعه من ظهور الإسلام في المستقبل القريب، وبذلك تتمُّ هذه البشارات على أكمل وجه، وكذا ما في معناها، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك الإظهار، وفيه ما تقدم في مثله من الآية السابقة، والشرك أخص من الكفر، وفي الجملتين إخبار بأن إتمام اللَّه لدينه وإظهاره على جميع الأديان سيكون بالرغم من أنوف جميع الكفار والمشركين منهم باللَّه -تعالى- وغير المشركين ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٤-٧]»[1].

* * *

(١) «تفسير المنار» (١٠/ ٣٨٣-٣٩٤).



دلالة الآيات القرآنية على أن المستقبل للإسلام

بعد هذه الجولة العلمية في أقوال المفسرين ؛ نستطيع الجزم بأن المستقبل للإسلام -وحده- ؛ لوجوه كثيرة :

أولًا : أن ظهور الدين على جميع الأديان تكفّل اللّه به ، ومن تكفَّل اللّه به ؛ فلا ضيعة عليه ؛ كما في قوله : ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ ، وقوله : ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ ، وهذه الجُمل من أشد أنواع التأكيد ، وأبلغ أدلة القول الرشيد ، والمهيع السديد .

ثانيًا : أن ظهور الدين على الأديان كلها ، أشهد اللّهُ نفسَه عليه ، وكفى باللّه شهيدًا ، وهذا يدل دلالة واضحة لا ريب فيها ، ولا لبس يعتريها ، ولا وهم يأتيها ، على أن اللّه جعل المستقبل لهذا الدين وحده بإذنه- سبحانه- وحده .

ثالثًا : وَصْفُ الدين بالنور يدل على أنه يشمل جميع الأرض ؛ لأن هذه حقيقة النور أن يبلغ جميع الأمكنة على وجه الأرض ، ويوضِّحه حديث تميم الداري رضي الله عنه الآتي[1] .

رابعًا : عناصر قوة الإسلام الداخلية تجعله هو الغالب في النهاية ، وهي : أنه هدى ودين حق ، ومن كانت هذه حقيقته ؛ فإنه يدمغ الباطل ويمحقه ويدفعه ، فإذا هو زاهق زائل .

وإن تأخر هذا ؛ فإنما هو بسبب تنكب كثير من المسلمين -إلا من رحم اللّه- عن الهدى ودين الحق الذي جاء به محمد ﷺ ، وهذا هو السبب الحقيقي لتأخر النصر عن المسلمين .

خامسًا : كراهة الكافرين والمشركين لظهور الدين لا يتحقق إلا بغلبة الدين ،

(١) انظر (ص ١٤٠) .

وانتصاره، وظهوره على الأديان كلها؛ فلذلك فالمستقبل للإسلام وحده.

سادسًا: ما يقابل الإسلام ويعارضه؛ هو دينٌ من وضع البشر، ومن اختراع عقولهم؛ ففيه عناصر النقص والانقراض؛ لأن هذه صفة البشر.

أما دين اللَّه ﷻ؛ فهو منهجه وشريعته، فيها عناصر الكمال، والشمول، والظهور والبقاء؛ فتدبر هذا المقام يظهر لك: أن المستقبل للإسلام وحده.

سابعًا: الدين منهاج الحياة، يشمل ما يحتاجه البشر ويصلحهم؛ فهو ما ينفع الناس، وما كان كذلك؛ فهو الباقي؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ثامنًا: كون محمد رسول اللَّه ﷺ أرسله اللَّه بالهدى ودين الحق، وجعله خاتم النبيِّين؛ فإن هذا يستلزم أن يكون دينه خاتم الأديان ومُهيمنًا عليها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ فكونه مُهيمنًا على الكتب السابقة؛ يعني: أن دين محمد ﷺ مهيمن على الأديان كلها؛ فالمستقبل للإسلام وحده.

تاسعًا: أن الدين يعني: العبودية للَّه في كل شيء، والديمومة على ذلك في كل حين ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، ولذلك؛ فلابد من بقاء الديمومة في العبودية للَّه -سبحانه-؛ ليكون الدين كله للَّه، ولن يكون الدين كله للَّه إلا إذا ظهر على الأديان كلها، وانتصر على القوانين الوضعية والمناهج الأرضية جميعها، ولذلك سيكون الدين كله للَّه بأن يكون المستقبل للإسلام وهو دين اللَّه وحده.

عاشرًا: أن الدين الخاتم يدخل فيه جميع الديانات السابقة، ما كان منها حقًّا وصدقًا؛ فهو الوارث الوحيد لجميع الأديان التي سبقته، ولذلك عندما يتمّ هذا الظهور في زمن عيسى عليه السلام لا يقبل إلا الإسلام أو الجهاد، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويحكم بالكتاب والسنة بمنهج سلف الأمة.

دلالة الآيات القرآنية على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

من تأمل الآيات القرآنية المبشرة بأن المستقبل للإسلام؛ رأى ببصيرته أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام من وجوه متعددة، وفُهوم متجددة:

أولًا: وصف الدين بأنه نور؛ يعني: أنه مشرق واضح، أبيض بيِّن، لا لبس فيه، ولا غموض يعتريه، وهذه هي البيضاء النقية التي تركنا عليها رسول اللَّه ﷺ، فهي منهج السلف الصالح.

عن عرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَقَد تَرَكْتُكُم عَلَى مِثْلِ البَيْضَاءِ، ليلها كنهارِها، لا يزيغُ عنها إلا هالِكٌ**»(١).

ثانيًا: أن الإسلام المصفَّى من البدع والخرافات والعوائد والأهواء، والذي يمثله منهج السلف الصالح بين الفرق والطوائف؛ كالإسلام بين الملل والنِّحل، فكما أن جميع الملل والنِّحل تريد أن تطفئ نور اللَّه؛ كذلك رأينا أهل البدع والأهواء يريدون إطفاء منهج السلف الصالح بتكذيبهم تارة، وطعنهم أخرى، وتآمرهم ثالثة؛ فكما أن اللَّه سيظهر الدين على جميع الأديان، فهذا الدين الذي سيظهر هو ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهو منهج السلف الصالح.

ثالثًا: ختم اللَّه تبارك وتعالى سورة الصف بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» بإسناد حسن.
وله شاهد من حديث أبي الدرداء؛ أخرجه ابن ماجه، وابن أبي عاصم بإسناد يعتبر به.
قلت: بالجملة؛ فالحديث صحيح ثابت.

يخاطب اللَّه المؤمنين أن يكونوا أنصار اللَّه، كالحواريِّين الذين استجابوا لنداء عيسى عليه السلام لمَّا أحس من بني إسرائيل الكفر، فانقسموا طائفتين: مؤمنة وكافرة، فأظهر اللَّه المؤمنة على الكافرة.

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله -تعالى-: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾، أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾، أي: عليهم، وذلك ببعثة محمد ﷺ. . . بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار فأمة محمد لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح بن مريم عليه السلام؛ كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، واللَّه أعلم»[1].

رابعًا: وختم اللَّه سورة الفتح بعد آيات المستقبل للإسلام بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذه الآية تدل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام من وجوه متعدِّدة:

١- أنها تلت الآية التي بشر فيها رسول اللَّه ﷺ بظهور الدين؛ فارتباطها بما قبلها يدل على أن ظهور الدين على الأديان كلها يكون بما كان عليه محمد ﷺ ومن معه -وهم: أصحابه-؛ وهذا هو منهج السلف الصالح.

٢- اقتران الصحابة مع رسول اللَّه ﷺ في الكتب الإلهية التوراة والإنجيل والقرآن يدل على أن الدين الظاهر القاهر هو ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه، فكما أن محمدًا ختم الأنبياء؛ فكذلك دينه الذي نقله أصحابه سيظهر على الدين كله، وهذا منهج السلف الكرام.

٣- أن الذي يغيظ الكفار هو محمد ﷺ وأصحابه، ولن يظهر الدين إلا بإغاظة

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ١٤٥-١٤٦).

الكفار﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، مما يدل على أن المستقبل للإسلام لن يكون إلا بمنهج السلف الصالح الكرام.

٤- ذكر الرسول ﷺ وأصحابه في التوراة بالعبودية، والأرض يرثها عباد اللّه الصالحون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ و١٠٦].

والعباد الصالحون من هذه الأمة المرحومة هم الصحابة ﷺ والتابعون لهم بإحسان، وهذا هو منهج السلف الكرام.

٥- ذكر الرسول ﷺ وأصحابه في الإنجيل بالزرع النامي الذي يبلغ تمامه، وهذا تُفسِّره أحاديث الطائفة المنصورة؛ لأنها غرس استعملها اللّه بطاعته إلى يوم القيامة، فتمام ظهورها، وكمال انتصارها: بظهور الدين الحق على الأديان كلّها، وهذا لا يكون إلا بما كان عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى أن يأتي أمر اللّه، وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، ومنهجهم منهج السلف الكرام.

* * *

آية التمكين ودلالتها على أن المستقبل للإسلام

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

١- قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللَّه ورسوله ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يقول: وأطاعوا اللَّه ورسوله فيما أمراه ونهياه ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: لَيُورِّثَنَّهم اللَّه أرض المشركين من العرب والعجم؛ فيجعلهم ملوكها وساستها ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يقول: كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشام، وجعلهم ملوكها وسكانها. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، يقول: وليوطئنّ لهم دينهم؛ يعني: ملّتهم التي ارتضاها لهم؛ فأمرهم بها.

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، يقول: يخضعون لي بالطاعة، ويتذلّلون لأمري ونهيي.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ يقول: لا يشركون في عبادتهم إيّاي الأوثان والأصنام، ولا شيئًا غيرها؛ بل يخلصون لي العبادة، فيفردونها إليّ دون كلّ ما عُبد من شيء غيري.

وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول اللَّه ﷺ من أجل شكاية بعض أصحابه إليه في بعض الأوقات التي كانوا فيها من العدوّ في خوف شديد، مما هُمْ فيه من الرّعب والخوف، وما يَلْقَون بسبب ذلك من الأذى والمكروه.

عن أبي العالية، قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

قال: مكث النبيّ ﷺ عَشْر سنين خائفًا يدعو إلى اللَّه سرًّا وعلانية، قال: ثم أمر

بالهجرة إلى المدينة، قال: فمكث بها هو وأصحابه خائفين، يصبحون في السلاح ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح، فقال النبي ﷺ: «**لا تَغْبُرُونَ إلاّ يَسِيرًا؛ حتى يَجْلِسَ الرّجُلُ مِنْكُمْ فِي المَلأ العَظِيمِ مُحْتَبِيًا، فِيهِ، لَيْسَ فِيهِ حَدِيدَةٌ**»، فأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾[1].

قال: يقول: من كفر بهذه النعمة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وليس يعني الكفر باللَّه.

قال: فأظهره اللَّه على جزيرة العرب، فآمنوا، ثم تجَبّروا، فغَيّر اللَّه ما بهم، وكفروا بهذه النعمة؛ فأدخل اللَّه عليهم الخوف الذي كان رفعه عنهم.

قال القاسم: قال أبو عليّ: بقتلهم عثمان بن عفان رضي الله عنه.

واختلف أهل التأويل في معنى الكفر الذي ذكره اللَّه في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، فقال أبو العالية: ما ذكرنا عنه من أنه كفر بالنعمة لا كفرٌ باللَّه.

عن حبيب بن أبي الشعثاء، قال: كنت جالسًا مع حذيفة وعبد اللَّه بن مسعود، فقال حُذيفة: ذهب النفاق، وإنما كان النفاق على عهد رسول اللَّه ﷺ، وإنما هو الكفر بعد الإيمان.

قال: فضحك عبد اللَّه، فقال: لم تقول ذلك؟

قال: علمت ذلك، قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حتى بلغ آخرها.

عن أبي إسحاق، عن أبي الشعثاء، قال: قعدت إلى ابن مسعود وحذيفة، فقال حذيفة: ذهب النّفاق فلا نفاق، وإنما هو الكفر بعد الإيمان.

فقال عبد اللَّه: تعلم ما تقول؟

---

(١) ضعيف: انظر (ص ٨٠).

قال: فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى بلغ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

قال: فضحك عبد اللَّه.

قال: فلقيت أبا الشعثاء بعد ذلك بأيام، فقلت: من أيّ شيء ضحك عبداللَّه؟

قال: لا أدري؛ إن الرجل ربما ضحك من الشيء الذي يُعْجبه، وربما ضحك من الشيء الذي لا يعجبه، فمن أيّ شيء ضحك؟ لا أدري.

والذي قاله أبو العالية من التأويل أشبه بتأويل الآية، وذلك أن اللَّه وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية أنه مُنعم به عليهم، ثم قال عقيب ذلك: فمن كفر هذه النعمة بعد ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

عن مجاهد، قول اللَّه: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ قال: تلك أمة محمد ﷺ.

وعنه: ﴿أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾.

قال: لا يخافون غيري»[1].

٢- قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هذا وعد من اللَّه -تعالى- لرسوله -صلوات اللَّه وسلامه عليه- بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض؛ أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبَدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أَمنًا وحكمًا فيهم.

وقد فعله -تبارك وتعالى- وله الحمد والمنة؛ فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح اللَّه عليه مكة، وخيبر، والبحرين، وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل -ملك الروم-، وصاحب مصر وإسكندرية؛ وهو: المقوقس، وملوك عمان، والنجاشي: -ملك الحبشة-، الذي تملّك بعد أصحمة -رحمه اللَّه وأكرمه-.

---

(١) «جامع البيان» (١٧/ ٣٤٦-٣٥٠).

ثم لما مات رسول اللَّه ﷺ واختار ما عند اللَّه من الكرامة؛ قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمَّ شَعْثَ ما وَهَى عند موته ﷺ، وأطد جزيرة العرب ومهدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبةُ خالد بن الوليد رضي الله عنه، ففتحوا طرفًا منها، وقتلوا خلقًا من أهلها، وجيشًا آخر صحبه أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبه عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر؛ ففتح اللَّه للجيش الشامي في أيامه: بصرى، ودمشق، ومخاليفهما من بلاد حوران، وما والاها.

وتوفاه اللَّه عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة، ومَنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق؛ فقام بالأمر بعده قيامًا تامًا، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء -عليهم السلام- على مثله في قوة سيرته، وكمال عدله.

وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى، وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل اللَّه؛ كما أخبر بذلك ووعد به رسول اللَّه، عليه من ربه أتمُّ سلام، وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية(١) امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها؛ ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكُلّيَّة، وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدًا، وخذل اللَّه مَلِكَهم الأعظم (خاقان).

وَجُبِيَ الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته، ودراسته، وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في «الصحيح»: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ زوى لي الأَرْضَ؛ فَرَأَيْتُ مَشارِقَها وَمَغارِبَها، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمّتي ما زُوِيَ لي مِنها**».

---

(١) أي: خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وليس الدولة العثمانية التركية!

فها نحن نتقلَّب فيما وعدنا اللَّه ورسوله، وصدق اللَّه ورسوله؛ فنسأل اللَّه الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.

عن جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا يزالُ أمْرُ النَّاسِ ماضِيًا ما وَليهَم اثنا عشر رجُلًا**»، ثم تكلَّم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني؛ فسألت أبي: ماذا قال رسول اللَّه ﷺ؟ فقال: قال: «**كُلُّهم مِن قُرَيْش**».

وفي هذا الحديث دلالة على أنه لابد من وجود اثني عشر خليفة عادلًا، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر؛ فإن كثيرًا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء؛ فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون.

وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين؛ بل يكون وجودهم في الأمة متتابعًا ومتفرقًا، وقد وجد منهم أربعة على الولاء، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم، ثم كانت بعدهم فترة، ثم وجد منهم ما شاء اللَّه، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه اللَّه -تعالى-.

ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول اللَّه ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلًا وقسطًا؛ كما مُلئت جورًا وظلمًا.

عن أبي العالية في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ الآية؛ قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين، يدعون إلى اللَّه وحده، وإلى عبادته وحده لاشريك له سرًّا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة، فقدموها فأمرهم اللَّه بالقتال؛ فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح، ويصبحون في السلاح، فغبروا بذلك ما شاء اللَّه، ثم إن رجلًا من الصحابة قال: يا رسول اللَّه! أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح؟

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لن تَغبُروا إلا يَسيرًا، حتى يجلسَ الرجُلُ منكم في الملأ العظيمِ مُحْتَبِيًا ليست فيهِم حَدِيدَة**».

وأنزل اللَّه هذه الآية، فأظهر اللَّه نبيه على جزيرة العرب، فآمنوا، ووضعوا السلاح.

ثم إن اللَّه -تعالى- قبض نبيه ﷺ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه؛ فأدخل عليهم الخوف؛ فاتخذوا الحجزة والشرط، وغيروا؛ فغير بهم[1].

وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتاب اللَّه، ثم تلا هذه الآية.

وهذه الآية الكريمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما قال -تعالى- عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥و٦].

وقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

كما قال رسول اللَّه ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «**أَتَعْرِفُ الحِيرَةَ؟**»، قال: لم أعرفها؛ ولكن قد سمعت بها، قال: «**فَوَالَّذِي نَفسي بيدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هذا الأَمْرَ؛ حتى تَخْرُجَ الظعينَةُ مِنْ الحِيرَةِ، حتى تطوفَ بالبيتِ في غيرِ جوارِ أحدٍ، ولتفتحنّ كنوزُ كسرى ابن هرمز**».

قلت: كسرى بن هرمز؟!

(١) ضعيف: انظر «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٢/ ٥٨٩).

قال: «**نَعَمْ؛ كِسْرَى بن هُرمُز، وَلَيُبْذَلَنَّ المَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**».

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة؛ فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول اللَّه ﷺ قد قالها»[(١)].

عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ، والرِّفْعَةِ، والدِّينِ، والنَّصْرِ، والتَّمْكينِ في الأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ منهُم عَمَلَ الآخرَةِ للدنيا؛ لم يَكُن له في الآخرة نَصيبٌ**»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾، عن أنس: أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلَّا آخرة الرحل؛ قال: «**يا مُعاذ!**».

قلت: لبيك يا رسول اللَّه، وسعديك!

قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «**يا مُعاذ بن جبل!**».

قلت: لبيك يا رسول اللَّه، وسعديك! ثم سار ساعة، ثم قال: «**يَا مُعاذ بن جبل!**».

قلت: لبيك يا رسول اللَّه، وسعديك!

قال: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ؟!**».

قلت: اللَّه ورسوله أعلم.

قال: «**حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوه وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**».

قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «**يا مُعاذ بن جبل!**».

قلت: لبيك يا رسول اللَّه؛ وسعديك!

---

(١) صحيح: سيأتي تخريجه (ص١٣٣).
(٢) صحيح: سيأتي تخريجه (ص٢٥٩).

قال: «**فَهَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؛ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟!**»

قال: قلت: اللَّه ورسوله أعلم.

قال: «**فَإِنَّ حَقَّ العِبَادِ عَلى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُم**».

أخرجاه في «الصحيحين» من حديث قتادة[١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك؛ فقد فسق عن أمر ربه، وكفى بذلك ذنبًا عظيمًا.

فالصحابة ﷺ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر اللَّه ﷻ؛ وأطوعهم للَّه؛ كان نصرهم بحسبهم، وأظهروا كلمة اللَّه في المشارق والمغارب، وأيَّدهم تأييدًا عظيمًا، وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر؛ نقص ظهورهم بحسبهم.

ولكن قد ثبت في «الصحيحين» -من غير وجه-، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتي ظاهرين على الحقِّ، لا يضرُّهُم من خَذَلَهم ولا مَنْ خالَفَهم إلى يومِ القيامَة**»، وفي رواية: «**حتّى يأتي أَمْرُ اللَّهِ وهُم عَلَى ذَلِكَ**»، وفي رواية: «**حتى يقاتلون الدَّجَّال**»، وفي رواية: «**حتى ينزلَ عيسى بن مريم، وَهم ظاهرون**»، وكل هذه الروايات صحيحة[٢]، ولا تعارض بينها»[٣].

٣- قال القرطبي رحمه الله:

«نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قاله مالك.

وقيل: إن سبب هذه الآية: أن بعض أصحاب النبي ﷺ شكا جهد مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم؛ فنزلت الآية.

وقال أبو العالية: مكث رسول اللَّه ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحي إليه خائفًا هو

---

(١) متفق عليه.

(٢) وانظر تخريجها (ص ١٦٢-١٦٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ١٠٩-١١٤).

وأصحابه، يدعون إلى اللَّه سرًّا وجهرًا، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح.

فقال رجل: يا رسول اللَّه! أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال ﷺ: «**لا تَلْبَثُونَ إلا يَسِيرًا حتّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُم في المَلأِ العَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْس عَليهِ حَدِيدَةٌ**»[1].

ونزلت هذه الآية، وأظهر اللَّه نبيه على جزيرة العرب، فوضعوا السلاح وأَمِنوا.

قال النحاس: فكان في هذه الآية دلالة على نُبُوَّة رسول اللَّه ﷺ، لأن اللَّه -جل وعز- أنجز ذلك الوعد.

قال الضحاك في كتاب «النقاش»: هذه تتضمن خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي؛ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**الخِلافَةُ بعدي ثَلاثُونَ**»[2]، وإلى هذا القول ذهب ابن العربي في «أحكامه»، واختاره.

وقال: قال علماؤنا: هذه الآية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة ﷺ، وأن اللَّه استخلفهم ورضي أمانتهم، وكانوا على الدين الذي ارتضى لهم؛ لأنهم لم يتقدَّمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا؛ فاستقر الأمر لهم، وقاموا بسياسة المسلمين، وذبُّوا عن حوزة الدين؛ فنفذ الوعد فيهم، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نجز، وفيهم نفذ، وعليهم ورد؛ ففيمن يكون إذن؟! وليس بعدهم مثلهم إلى يومنا هذا، ولا يكون فيما بعد ﷺ.

وحكى هذا القول القشيري عن ابن عباس، واحتجوا بما رواه سفينة -مولى رسول اللَّه ﷺ-، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الخِلافَةُ بعدي ثلاثون سنةً، ثم تكونُ مُلْكًا**»[3].

---

(١) ضعيف: تقدم تخريجه (ص٨١).
(٢) صحيح: سيأتي تخريجه (ص١٤٤).
(٣) صحيح: سيأتي تخريجه (ص١٤٤).

قال سفينة: أمسك عليك خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشرًا، وخلافة عثمان ثنتي عشرة سنة، وخلافة علي ستًّا.

وقال قوم: هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلها تحت كلمة الإسلام؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**زُوِيَت لِي الأَرْضُ؛ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»[1].

واختار هذا القول ابن عطية في «تفسيره»، حيث قال: «والصحيح في الآية: أنها في استخلاف الجمهور، واستخلافهم هو أن يُملِّكهم البلاد ويجعلهم أهلها؛ كالذي جرى في الشام والعراق وخراسان والمغرب».

قال ابن العربي: قلنا لهم: هذا وعد عام في النبوة والخلافة، وإقامة الدعوة وعموم الشريعة، فنفذ الوعد في كل أحد بقدره وعلى حاله؛ حتى في المفتين والقضاة والأئمة، وليس للخلافة محلٌّ تنفذ فيه الموعدة الكريمة إلا من تقدم من الخلفاء.

ثم ذكر اعتراضًا وانفصالًا معناه:

فإن قيل: هذا الأمر لا يصح إلا في أبي بكر وحده، فأما عمر وعثمان؛ فقتلا غيلة، وعلي قد نوزع في الخلافة.

قلنا: ليس في ضمن الأمن السلامة من الموت بأي وجه كان، وأما علي؛ فلم يكن نزاله في الحرب مُذهبًا للأمن، وليس من شرط الأمن رفع الحرب، إنما شرطه: ملك الإنسان لنفسه باختياره، لا كما كان أصحاب النبي ﷺ بمكة.

ثم قال في آخر كلامه: وحقيقة الحال: أنهم كانوا مقهورين؛ فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين؛ فصاروا طالبين، فهذا نهاية الأمن والعز.

قلت: هذه الحال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضي الله عنهم حتى يُخصوا بها من عموم الآية، بل شاركهم في ذلك جميع المهاجرين، بل وغيرهم.

---

(١) صحيح: سيأتي تخريجه (ص١٣٦).

ألا ترى إلى إغزاء قريش المسلمين في أُحد وغيرها وخاصة الخندق، حتى أخبر اللَّه -تعالى- عن جميعهم، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

ثم إن اللَّه رد الكافرين؛ لم ينالوا خيرًا، وأمن المؤمنين، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وهو المراد بقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني: بني إسرائيل، إذ أهلك اللَّه الجبابرة بمصر، وأورثهم أرضهم وديارهم؛ فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين، ثم إن اللَّه -تعالى- أمَّنهم، ومكَّنهم، وملَّكهم؛ فصح أن الآية عامة لأمة محمد ﷺ غير مخصوصة؛ إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم، ومن الأصل المعلوم: التمسك بالعموم.

وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن: أن رسول اللَّه ﷺ لما قال أصحابه: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال ﷺ: «**لا تَلْبَثُونَ إلَا قَلِيلًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُم في الملأِ العَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَ عَلَيْهِ حَدِيدَةٌ**»[1].

وقال ﷺ: «**واللَّهِ لَيُتِمّنَّ اللَّهُ هذا الأَمْرَ؛ حتَىَّ يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوت لا يَخافُ إلَا اللَّهَ والذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ؛ وَلَكِنَّكُم تَسْتَعْجِلُونَ**»[2] خرجه مسلم في «صحيحه»، فكان كما أخبر ﷺ.

فالآية معجزة النبوة؛ لأنها إخبار عما سيكون؛ فكان.

قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فيه قولان:

أحدهما: يعني: أرض مكة؛ لأن المهاجرين سألوا اللَّه -تعالى- ذلك، فوعدوا كما وعدت بنو إسرائيل؛ قال معناه النقاش.

---

(١) ضعيف: مضى تخريجه (ص٨٠).

(٢) أخرجه البخاري، ولم يخرجه مسلم فتنبه!

الثاني: بلاد العرب والعجم، قال ابن العربي: وهو الصحيح؛ لأن أرض مكة محرمة على المهاجرين، قال النبي ﷺ: «**لكنَّ البائِسَ سَعْد بن خولة**»[1] يرثي له رسول اللَّه ﷺ أن مات بمكة.

وقال في «الصحيح» أيضًا: «**يَمْكُثُ المُهَاجِرُ بمِكَةَّ بعد قضاءِ نُسُكِه ثَلاثًا**»[2].

واللام في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جواب قَسَم مضمر؛ لأن الوعد قول، مجازها: قال اللَّه للذين آمنوا وعملوا الصالحات: واللَّه ليستخلفنهم في الأرض؛ فيجعلهم ملوكها، وسكَّانها.

﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني: بني إسرائيل، أهلك الجبابرة بمصر والشام، وأورثهم أرضهم وديارهم.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، هو: الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وروى سليم بن عامر، عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما على ظَهْرِ الأَرْضِ بيت حجر، ولا مدرٍ، إلا أدخلهُ اللَّهُ كلمةَ الإِسْلَام، بعزٍّ عزيزٍ، أو ذلِّ ذليلٍ، إما بِعِزِّهِم؛ فَيَجْعَلُهُم مِنْ أَهْلِهَا، وإما بِذُلِّهم؛ فَيَدِينُونَ بها**»[3].

ذكره الماوردي حجة لمن قال: إن المراد بالأرض: بلاد العرب والعجم؛ وهو القول الثاني.

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، هو في موضع الحال؛ أي: في حال عبادتهم اللَّه بالإخلاص.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، فيه أربعة أقوال:

أحدها: لا يعبدون إلهًا غيري.

الثاني: لا يراءون بعبادتي أحدًا.

---

(١) متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه.

(٣) صحيح: سيأتي تخريجه (ص ١٤٠).

الثالث: لا يخافون غيري.

الرابع: لا يحبون غيري.

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بهذه النعم.

والمراد: كفران النعمة؛ لأنه قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، والكافر باللَّه فاسق بعد هذا الإنعام وقبله»[1].

٤- **قال الثعلبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ إنما أدخل اللام بجواب اليمين المضمر؛ لأن الوعد قول؛ أي: ليورثنّهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وسائسيها وسكّانها.

﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني: بني إسرائيل؛ إذ أهلك الجبابرة بمصر والشام، وأورثهم أرضهم وديارهم.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾: وليوطنن ﴿لَهُمْ دِينَهُمُ﴾: ملّتهم التي ارتضاها لهم، وأمرهم بها.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾: قال بعض الأئمة: التبديل: تغيير حال إلى حال، والإبدال: رفع شيء، وجعل غيره مكانه ﴿مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ﴾ بهذه النعمة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ وآثر؛ يعني: الكفر باللَّه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

عن أبي العالية في هذه الآية؛ قال: مكث النبي ﷺ عشر سنين خائفًا يدعو إلى اللَّه سرًّا وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة؛ فمكث بها هو وأصحابه خائفين، يصبحون في السلاح ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنّا السلاح؟ فقال النبي ﷺ: «**لا تَغْبُرون إلا يَسِيرًا؛ حتّى يَجْلِسَ الرجلُ منكم في الملأ العظيم مُحتبيًا ليس فيه حديدةٌ**»[2].

وأنزل اللَّه -سبحانه- هذه الآية؛ فأنجز اللَّه وعده، وأظهره على جزيرة العرب، فآمنوا ثم تجبّروا، وكفروا بهذه النعمة، وقتلوا عثمان بن عفان، فغيّر اللَّه -سبحانه- ما

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩٨-٣٠٠).

(٢) ضعيف: مضى تخريجه (ص٨٠).

بهم، وأدخل الخوف الذي كان رفعه عنهم.

قلت: وفيها دلالة واضحة على صحة خلافة أبي بكر الصديق ﵁ وإمامة الخلفاء الراشدين ﵃.

عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخِلَافَةُ مِن بَعدي ثَلاثون ثم يَكون مُلْكًا**»[(١)].

قال سفينة: أمسك خلافة أبي بكر سنتين، وعمر عشرًا، وعثمان ثنتي عشرة، وعلي ستًّا...»[(٢)].

٥- قال البغوي ﵀:

«قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قال أبو العالية في هذه الآية: مكث النبي ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه، وأُمروا بالصبر على أذى الكفار، وكانوا يصبحون ويمسون خائفين، ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة، وأمروا بالقتال، وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه، فقال رجل منهم: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾[(٣)].

أدخل اللام لجواب اليمين المضمرة؛ يعني: والله ليستخلفنَّهم؛ أي: ليورثنَّهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ داود، وسليمان، وغيرهما من الأنبياء.

وقيل: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: بني إسرائيل، حيث أهلك الجبابرة بمصر، والشام، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: اختار.

قال ابن عباس: يوسِّعُ لهم في البلاد؛ حتى يملكوها، ويُظهر دينهم على سائر

---

(١) صحيح: سيأتي تخريجه (ص١٤٤).

(٢) «الكشف والبيان» (٧/ ١١٤-١١٥).

(٣) ضعيف: مضى تخريجه (ص٨٠).

الأديان ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، التبديل: تغيير حال إلى حال، والإبدال: رفع الشيء وجعل غيره مكانه، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾: آمنين ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾، فأنجز اللَّه وعده، وأظهر دينه، ونصر أولياءه، وأبدلهم بعد الخوف أمنًا وبسطًا في الأرض.

عن عدي بن حاتم؛ قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يَا عديُّ! هل رَأَيْتَ الحيرَةَ؟**» قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: «**فإن طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ؛ فلَترَيَنَّ الظَّعينةَ تَرْتَحل من الحيرَةِ حتى تطوفَ بالكَعْبَةِ، لا تخاف أحدًا إلا اللَّه**».

قلت -فيما بيني وبين نفسي-: فأين دُعَّار طيء الذين قد سعَّروا البلاد؟! «**وَلَئِن طالت بِك حياةٌ لتفتحنّ كنوزُ كسرى**».

قلت: كسرى بن هرمز؟!

قال: «**كِسْرَى بنُ هرمز، لَئِن طالت بك حياةٌ لَتَرَينَّ الرَّجُلَ يُخرجُ ملء كفِّه من ذهبٍ وفضةٍ يطلبُ من يقبله منه فلا يجدُ أحدًا يقبله منه، ولَيَلْقينَّ اللَّهَ أحدُكم يومَ القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم، فليقولن له: ألم أبعث إليك رسُولًا فيبلِّغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألَم أعطك مالًا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينهِ فلا يرى إلا جَهَنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جَهَنَّم**».

قال عدي: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**اتَّقُوا النارَ ولو بِشقِّ تمرةٍ، فَمَن لم يَجد؛ فَبِكَلَمةٍ طيبةٍ**»، قال عدي: فرأيت الظَّعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا اللَّه، وكنت ممن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة؛ لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ، يخرج ملء كفه»[1].

وفي الآية دلالة على خلافة الصديق، وإمامة الخلفاء الراشدين.

عن سفينة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**الخِلافةُ بعدي ثلاثون سنةً، ثم تكونُ ملكًا**»[2].

(١) حسن: سيأتي تخريجه (ص١٣٣).
(٢) صحيح: سيأتي تخريجه (ص١٤٤).

ثم قال: أمسك خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشرًا، وعثمان اثنتي عشرة، وعلي ستًّا.

قال علي: قلت لحماد: سفينة القائل لسعيد: أمسك؟ قال: نعم.

قوله ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أراد به: كفران النعمة، ولم يرد الكفر بالله.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: العاصون لله.

قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة، وجحد حقَّها: الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه، فلما قتلوه؛ غيَّر الله ما بهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانًا.

عن حميد بن هلال؛ قال: قال عبد الله بن سلام في عثمان: إنَّ الملائكة لم تزل محيطة بمدينتكم هذه منذ قدمها رسول الله ﷺ حتى اليوم، فوالله لئن قتلتموه؛ ليذهبون ثم لا يعودون أبدًا، فوالله لا يقتله رجل منكم؛ إلا لقي الله أجذم لا يد له، وإنَّ سيف الله لم يزل مغمودًا عنكم، والله لئن قتلتموه؛ ليُسلَّنَّه الله، ثم لا يغمده عنكم-إما قال: أبدًا، وإما قال: إلى يوم القيامة-، فما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفًا، ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفًا»[1].

٦- قال الشوكاني رحمه الله:

«﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، هذه الجملة مُقرِّرة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهدايتهم، وهذا وعدٌ من الله -سبحانه- لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض؛ كما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهو وعد يعم جميع الأمة.

وقيل: هو خاص بالصحابة، ولا وجه لذلك؛ فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختصُّ بهم، بل ويمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله؛ فقد أطاع الله ورسوله.

(١) «معالم التنزيل» (٦/ ٥٧-٥٨).

واللام في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جواب لقسم محذوف، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم؛ لأنه ناجز لا محالة، ومعنى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ليجعلنَّهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم.

وقد أبعد من قال: إنها مختصة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو بأن المراد بالأرض: أرض مكة، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وظاهر قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كل من استخلفه اللَّه في أرضه، فلا يخص ذلك ببني إسرائيل، ولا أمة من الأمم دون غيرها.

وجملة ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ معطوفة على ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ داخلة تحت حكمه كائنة، من جملة الجواب.

والمراد بالتمكين هنا: التثبيت والتقرير؛ أي: يجعله اللَّه ثابتًا مقرَّرًا، ويوسِّع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان.

والمراد بالدين هنا: الإسلام؛ كما في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾.

ذكر ﷻ الاستخلاف لهم أولًا - وهو جعلهم ملوكًا -، وذكر التمكين ثانيًا؛ فأفاد ذلك: أن هذا المُلك ليس على وجه العروض والطرو؛ بل على وجه الاستقرار والثبات، بحيث يكون المُلك لهم ولعقبهم من بعدهم.

وجملة ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ معطوفةٌ على التي قبلها.

والمعنى: أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنًا، ويُذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه؛ بحيث لا يخشون إلا اللَّه -سبحانه-، ولا يرجون غيره.

وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلا في السلاح، ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار، ثم صاروا في غاية الأمن والدَّعة، وأذلَّ اللَّه لهم شياطين المشركين، وفتح عليهم البلاد، ومهد لهم في الأرض ومكَّنهم منها، فللَّه الحمد.

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، أي: يعبدونني غير مشركين بي في العبادة شيئًا من الأشياء.

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: من كفر بهذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من استمر على الكفر، أو من كفر بعد إيمان، فأولئك الكافرون هم الفاسقون؛ أي: الكاملون في الفسق؛ وهو الخروج عن الطاعة، والطغيان في الكفر»[1].

٧- قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ ومن آمن معه؛ ففي الآية تنويع الخطاب، حيث خاطب -سبحانه- المقسمين على تقدير التولي، ثم صرفه تعالى عنهم إلى المؤمنين الثابتين، وهو كالاعتراض بناء على كون ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النور: ٥٦] عطفًا على قوله -سبحانه-: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وفائدته: أنه لما أفاد الكلام السابق أنه ينبغي أن يأمرهم بالطاعة كفاحًا، ولا يخاف مضرتهم؛ أكد بأنه -عليه الصلاة والسلام- هو الغالب ومن معه، فأنى للخوف مجال، وإن شئت فاجعله استئنافًا جيء به لتأكيد ما يفيده الكلام من نفي المضرة على أبلغ وجه، من غير اعتبار كونه اعتراضًا.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ للدلالة على أن الأصل في ثبوت الاستخلاف الإيمان، ولهذا كان الأصح عدم الانعزال بالفسق الطارئ، ودل عليه صحاح الأحاديث، ومدخليَّة الصلاح في ابتداء البيعة، وقد يقال: إن ذلك لتعجيل مسرة المخاطبين، حيث إن الآية سيقت لذلك.

وقيل: الخطاب للمقسمين، والكلام تتميم لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، ببيان ما لهم في العاجل من الاستخلاف وما يترتب عليه، وفي الآجل ما لا يُقدّر قدره على ما أدمج في قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، والجار للتبعيض، وأمر التوسيط على حاله، ولم يرتضه بعض الأجلة؛ لأن ﴿الَّذِينَ﴾ إن كان ماضيًا

---

(١) «فتح القدير» (٤/ ٤٧-٤٩).

على حقيقته لم يستقم؛ إذ لم يكن فيهم من كان آمن حال الخطاب، وإن جعل بمعنى المضارع على المألوف من إخبار اللَّه -تعالى- فمع نبوه عن هذا المقام؛ لم يكن دليلًا على صحة أمر الخلفاء، ولم يطابق الواقع؛ لأن هؤلاء الأجلاء لم يكن من بعضهم من آمن من أولئك المخاطبين، ولا كان في المقسمين من نال الخلافة، وفيه شيء، ولعله لا يضر بالغرض، وارتضى أبو السعود تعلُّق الكلام بذلك، وادعى أنه استئناف مقرِّر لما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، من الوعد الكريم، معرب عنه بطريق التصريح، ومبيِّن لتفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التي هي من آثار الاهتداء، ومتضمِّن لما هو المراد بالطاعة التي نيط بها الاهتداء، وأن المراد بالذين آمنوا: كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أي طائفة كان، وفي أي وقت كان، لا من آمن من طائفة المنافقين -فقط-، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم الوعد الكريم، وأنَّ الخطاب ليس للرسول -عليه الصلاة والسلام-، ومن معه من المؤمنين المخلصين، أو من يعمهم وغيرهم من الأمة، ولا المنافقين خاصة؛ بل هو لعامة الكفرة، وأن (من) للتبعيض، وقال في نكتة التوسيط: إنه لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، والإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم، وأما التأخير في آية سورة الفتح؛ فلأن (من) هناك بيانية، والضمير للذين معه -عليه الصلاة والسلام- من خُلَّص المؤمنين، ولا ريب في أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة، مثابرون عليهما؛ فلا بد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة بكمالها.

وأنت تعلم أن كون الخطاب لعامة الكفرة خلاف الظاهر، وحمل الفعل الماضي على ما يعم الماضي والمستقبل كذلك، وفيما ذكره أيضًا بُعدٌ عن سبب النزول.

عن أبي بن كعب ﵁، قال: لما قدم رسول اللَّه ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، ورمتهم العرب عن قوس واحدة؛ فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا اللَّه -تعالى-؟ فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾[1]، ولا يتأتَّى معه الاستدلال بالآية على

(١) ضعيف: مضى تخريجه (ص ٨٠).

صحة أمر الخلفاء أصلًا، ولعله لا يقول به، ويستغنى عنه بما هو أوضح دلالة، وعن ابن عباس ومجاهد: عامة في أمة محمد ﷺ، وأطلقا الأمة؛ وهي تطلق على أمة الإجابة وعلى أمة الدعوة؛ لكن الأغلب في الاستعمال الإطلاق الأول، فلا تغفل.

وإذا كانت (من) بيانية؛ فالمعنى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾: الذين هم أنتم ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: ليجعلهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في مماليكهم، أو خلفاء من الذين كانوا يخافونهم من الكفرة بأن ينصرهم عليهم ويورِّثهم أرضهم، والمراد بالأرض -على ما قيل-: جزيرة العرب، وقيل: ما رآه عليه الصلاة والسلام من مشارق الأرض ومغاربها.

ففي الصحيح: «**زُويت لي الأرضُ؛ فأريتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وسيبلغُ ملكُ أمتي ما زُوي لي منها**»[1]، واللام واقعة في جواب القسم المحذوف، ومفعول وعد الثاني محذوف، دل عليه الجواب؛ أي: وعد اللَّه الذين آمنوا استخلافهم، وأقسم ليستخلفنهم.

ويجوز أن ينزل وعده تعالى -لتحقق إنجازه لا محالة- منزلة القسم، وإليه ذهب الزجاج، ويكون ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾ منزل منزلة المفعول؛ فلا حذف.

و(ما) في قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾ مصدرية، والجار والمجرور متعلِّقٌ بمحذوف وقع صفة لمصدر محذوف؛ أي: ليستخلفنهم استخلافًا كائنًا؛ كاستخلافه ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، وهم: بنو إسرائيل، استخلفهم اللَّه ﷻ في الشام بعد إهلاك الجبابرة، وكذا في مصر -على ما قيل من أنها- صارت تحت تصرفهم بعد هلاك فرعون، وإن لم يعودوا إليها، أو هم ومن قبلهم من الأمم المؤمنة الذين أسكنهم اللَّه -تعالى- في الأرض بعد إهلاك أعدائهم من الكفرة الظالمين.

وقرئ ﴿كَمَا اسْتُخْلِفَ﴾ بالبناء للمفعول، فيكون التقدير: ليستخلفنهم في الأرض؛ فيُستخلفون فيها استخلافًا؛ أي: مُستخلفية كائنة كمستخلفية الذين من قبلهم.

(١) صحيح: سيأتي تخريجه (ص ١٣٦).

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ عطف على ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، والكلام فيه كالكلام فيه، وتأخيره عنه مع كونه أجلَّ الرغائب الموعودة وأعظمها؛ لما أنه كالأثر للاستخلاف المذكور.

قيل: لما أن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل؛ فتصدير المواعيد بها في الاستمالة أدخل.

والتمكين في الأصل جعلُ الشيء في مكان، ثم استعمل في لازمه؛ وهو التثبيت، والمعنى ليجعلنَّ دينهم ثابتًا مقررًا بأن يعلي سبحانه شأنه، ويقوي بتأييده تعالى أركانه، ويعظم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون الرَّجِلَ والخيل للتوصل إلى إعفاء آثاره، فيكونون بحيث ييأسون من التجمُّع لتفريقهم عنه؛ ليذهب من البين، ولا تكاد تحدثهم أنفسهم بالحيلولة بينهم وبينه ليعود أثرًا بعد عين.

وقيل: المعنى: ليجعله مقررًا ثابتًا، بحيث يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يذرون، وأصل التمكين: جعل الشيء مكانًا لآخر، والتعبير عن ذلك به؛ للدَّلالة على كمال ثبات الدين، ورصانة أحكامه، وسلامته عن التغيير والتبديل، لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض.

وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح؛ للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم مع التشويق إلى المؤخر، ولأن في توسيطه بينه وبين وصفه -أعني: قوله تعالى: ﴿الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ -وتأخيره عن الوصف من الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى، وفي إضافة الدين -وهو: دين الإسلام- إليهم، ثم وصفه بارتضائه؛ لهم من مزيد الترغيب فيه، والتثبيت عليه ما فيه.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، وهو: عطف على ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، أو ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾ ﴿مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ بمقتضى البشرية في الدنيا من أعدائهم في الدين ﴿أَمْنًا﴾ لا يقادر قدره.

وقيل: الخوف في الدنيا من عذاب الآخرة، والأمن في الآخرة، ورجَّح بأن

الكلام عليه أبعد من احتمال التأكيد بوجه من الوجوه بخلافه على الأول.

وأنت تعلم أن الأول أوفق بالمقام، والأخبار الواردة في سبب النزول تقتضيه، وأمر احتمال التأكيد سهل.

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾: جوز أن تكون الجملة في موضع نصب على الحال؛ إما من ﴿الَّذِينَ﴾ -الأول- لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد؛ لأن ما في حيِّز الصلة من الإيمان وعمل الصالحات بصيغة الماضي؛ لما دل على أصل الاتصاف به جيء بما ذكر حالًا بصيغة المضارع، الدال على الاستمرار التجددي.

وإما من الضمير العائد عليه في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، أو في ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، وجوّز أن تكون مستأنفة؛ إما لمجرد الثناء على أولئك المؤمنين، على معنى: هم يعبدونني، وإما لبيان علة الاستخلاف، وما انتظم معه في سلك الوعد.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حال من الواو في ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، أو من ﴿الَّذِينَ﴾، أو بدل من الحال أو استئناف، ونصب ﴿شَيْئًا﴾ على أنه مفعول به؛ أي: شيئًا مما يشرك به، أو مفعول مطلق؛ أي: شيئًا من الإشراك، ومعنى العبادة وعدم الإشراك ظاهر.

وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس -رضي اللَّه تعالى عنهما-؛ أنه قال -في قوله -سبحانه-: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾-: لا يخافون أحدًا غيري.

وأخرج هو وجماعة عن مجاهد نحوه، ولعلهما أرادا بذلك تفسير ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، وكأنهما عدًّا خوف غير اللَّه -تعالى- نوعًا من الإشراك، واختير على هذا حالية الجملة من الواو؛ كأنه قيل: يعبدونني غير خائفين أحدًا غيري.

وجوَّز أن يكونا قد أرادا بيان المراد بمجموع ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ﴾، وكأنهما ادَّعيا أن عدم خوف أحد غيره -سبحانه- من لوازم العبادة والتوحيد، وأن جملة: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ استئناف لبيان ما يصلون إليه في الأمن؛ كأنه قيل: يأمنون إليَّ، حيث لا يخافون أحدًا غير اللَّه -تعالى-: ولا يخفى ما في التعبير بضمير المتكلم وحده في ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي﴾ دون ضمير الغائب، ودون ضمير العظمة من اللَّطافة.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾، أي: ومن ارتد من المؤمنين ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد حصول الموعود به ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾المرتدون البعداء عن الحق ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: الكاملون في الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان، إذ لا عذر لهم حينئذ، ولا كجناح بعوضة.

وقيل: كفر من الكفران، لا من الكفر مقابل الإيمان.

وروي ذلك عن أبي العالية.

وكمالهم في الفسق لعظم النعمة التي كفروها.

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الوعد السابق نفسه.

وفي الكلام عليه تعظيم لقدر الموعود به من حيث إنه لا يبقى بعد حصوله عذر لمن يرتدُّ، وقوة مناسبته للمقام لا تخفى.

هذا واستدلَّ كثير بهذه الآية على صحة خلافة الخلفاء الأربعة -رضي اللَّه تعالى عنهم-؛ لأن اللَّه -تعالى- وعد فيها من في حضرة الرسالة من المؤمنين بالاستخلاف، وتمكين الدين والأمن العظيم من الأعداء، ولا بد من وقوع ما وعد به ضرورة امتناع الخُلف في وعده -تعالى-، ولم يقع المجموع إلا في عهدهم، فكان كلٌّ منهم خليفة حقًّا باستخلاف اللَّه -تعالى- إياه حسبما وعد -جل وعلا-، ولا يلزم عموم الاستخلاف لجميع الحاضرين المُخاطبين؛ بل وقوعه فيهم -ك: بنو فلان قتلوا فلانًا-، فلا ينافي ذلك عموم الخطاب الجميع وكون (من) بيانية، وكذا لا ينافيه ما وقع في خلافة عثمان وعلي -رضي اللَّه تعالى عنهما- من الفتن؛ لأن المراد من الأمن: الأمن من أعداء الدين، وهم الكفار.

وأقامها بعض أهل السنة دليلًا على الشيعة في اعتقادهم عدم صحة خلافة الخلفاء الثلاثة، ولم يستدل بها على صحة خلافة الأمير؛ لأنها مسلّمة عند الشيعة، والأدلة كثيرة عند الطائفتين على من ينكرها من النواصب -عليهم من اللَّه -تعالى- ما يستحقون-.

فقال: إن اللَّه -تعالى- وعد فيها جمعًا من المؤمنين الصالحين الحاضرين وقت نزولها بما وعد من الاستخلاف وما معه، ووعده سبحانه الحق، ولم يقع إلا في عهد الثلاثة، والإمام المهدي لم يكن موجودًا حين النزول قطعًا بالإجماع؛ فلا يمكن حمل الآية على وعده بذلك، والأمير وإن كان موجودًا إذ ذاك؛ لكن لم يرج الدين المرضي، كما هو حقه في زمانه -رضي اللَّه تعالى عنه- بزعم الشيعة، بل صار أسوأ حالًا بزعمهم مما كان في عهد الكفار؛ كما صرح بذلك المرتضى في «تنزيه الأنبياء والأئمة» -عليهم السلام-، بل كل كتب الشيعة تُصرِّح بأن الأمير وشيعته كانوا يخفون دينهم ويظهرون دين المخالفين تَقية، ولم يكن الأمن الكامل حاصلًا في زمانه -رضي اللَّه تعالى عنه-؛ فقد كان أهل الشام ومصر والمغرب يُنكرون أصل إمامته، ولا يقبلون أحكامه، وهم كفرة بزعم الشيعة، وأغلب عسكر الأمير يخافون ويحذرون غاية الحذر منهم، ومع هذا الأمير فرد، فلا يمكن إرادته من الذين آمنوا؛ ليكون هو -رضي اللَّه تعالى عنه- مصداق الآية كما يزعمون.

فإن حمل لفظ الجمع على واحد خلاف أصولهم؛ إذ أقل الجمع عندهم ثلاثة أفراد.

وأما الأئمة الآخرون الذين ولِدوا بعد؛ فلا احتمال لإرادتهم من الآية، إذ ليسوا بموجودين حال نزولها، ولم يحصل لهم التسلط في الأرض، ولم يقع رواج دينهم المرتضى لهم، وما كانوا آمنين؛ بل كانوا خائفين من أعداء الدين، مُتَّقين منهم كما أجمع الشيعة؛ فلزم أن الخلفاء الثلاثة هم مصداق الآية، فتكون خلافتهم حقة؛ وهو المطلوب.

وزعم الطبرسي: أن الخطاب للنبي وأهل بيته ﷺ، فهم الموعودون بالاستخلاف وما معه، ويكفي في ذلك تحقق الموعود في زمن المهدي -رضي اللَّه تعالى عنه-، ولا ينافي ذلك عدم وجوده عند نزول الآية؛ لأن الخطاب الشفاهي لا يخص الموجودين، وكذا لا ينافي عدم حصوله للكل؛ لأن الكلام نظير: بنو فلان قتلوا فلانًا، واستدل على ذلك بما روى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين -رضي اللَّه تعالى عنهما- أنه قرأ الآية؛ فقال: هم واللَّه شيعتنا أهل البيت، يفعل ذلك بهم على يد رجل منا؛ وهو:

مهدي هذه الأمة، وهو الذي قال رسول اللَّه ﷺ فيه: «**لَو لَمْ يَبْقَ مِن الدُّنيا إلا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ -تعالى- ذلك اليَوْمَ؛ حتى يلي رَجُلٌ من عِتْرَتي اسمُه اسمي، يملأ الأرض عَدْلًا وقِسْطًا، كما مُلِئَت ظُلمًا وَجُورًا**».

وزعم: أنه روي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد اللَّه -رضي اللَّه تعالى عنهما-، وهذا- على ما فيه -مما يأباه السياق والأخبار الصحيحة الواردة في سبب النزول، وأخبار الشيعة لا يخفى حالها؛ لا سيما على من وقف على «التحفة الاثني عشرية».

نعم؛ ورد من طريقنا ما يستأنس به لهم في هذا المقام؛ لكنه لا يعول عليه أيضًا، مثل أخبارهم: وهو ما أخرجه عبد بن حميد، عن عطية: أنه -عليه الصلاة والسلام- قرأ الآية فقال: «**أَهْلُ البَيْت هَاهُنَا، وَأَشارَ بِيَدِهِ إلى القِبْلَة**».

وزعم بعضهم نحو ما سمعت عن الطبرسي؛ إلا أنه قال: هي في حق جميع أهل البيت -علي وسائر الأئمة الاثني عشر-، وتحقق ذلك فيهم زمن الرجعة، حين يقوم القائم -رضي اللَّه تعالى عنه-، وزعم أنها أحد أدلة الرجعة، وهذا قد زاد في الطنبور نغمة.

وقال الملا عبد اللَّه المشهدي في كتابه «إظهار الحق» -لإبطال الاستدلال بها على صحة خلافة الخلفاء الثلاثة-: «يحتمل أن يكون الاستخلاف بالمعنى اللُّغوي؛ وهو: الإتيان بواحد خلف آخر؛ أي: بعده؛ كما في قوله -تعالى- في حق بني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]؛ فقصارى ما يثبت أنهم خلفاء بالمعنى اللُّغوي، وليس النزاع فيه، بل هو في المعنى الاصطلاحي، وهو معنى مُستحدث بعد رحلة النبي ﷺ».

وأجيب بأنه لو تم هذا، لا يتمّ لهم الاستدلال على خلافة الأمير بالمعنى المصطلح بحديث: «**أَنْتَ مني بمنزلةِ هارون من موسى**»، المعتضد بما حكاه سبحانه عن موسى عليه السلام من قوله لهارون: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وبما يروونه من قوله ﷺ: «**يا عَلي! أَنْتَ خَلِيفَتِي مِن بَعدي**».

وكذا لا يتم لهم الاستدلال على إمامة الأمير بما تضمن لفظ الإمام؛ لأنه لم

يستعمل في الكتاب المجيد بالمعنى المصطلح أصلًا، وإنما استعمل بمعنى النبي، والمرشد، والهادي، والمقتدى به في أمرٍ، خيرًا كان أو شرًّا، ومتى ادعى فهم المعنى المصطلح من ذلك بطريق اللزوم؛ فليدع فهم المعنى المصطلح من الخليفة كذلك.

وربما يدَّعي أن فهمه منه أقوى؛ لأنه مقرون حيث وقع في الكتاب العزيز بلفظ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الدال على التصرف العام، الذي هو شأن الخليفة بذلك المعنى، على أن مبنى الاستدلال على خلافة الثلاثة بهذه الآية ليس مجرد لفظ الاستخلاف حتى يتم غرض المناقش فيه؛ بل ذلك مع ملاحظة إسناده إلى اللَّه -تعالى-، وإذا أسند الاستخلاف اللغوي إلى اللَّه ﷻ؛ فقد صار استخلافًا شرعيًا، وقد يستفتى في هذه المسألة من علماء الشيعة؛ فيقال:

إن إتيان بني إسرائيل بمكان آل فرعون والعمالقة، وجعلهم متصرفين في أرض مصر والشام، هل كان حقًّا أو لا؟

ولا أظنهم يقولون إلا أنه حق، وحينئذ يلزمهم أن يقولوا به في الآية؛ لعدم الفرق، وبذلك يتم الغرض، هذا حاصل ما قيل في هذا المقام.

والذي أميل إليه: أن الآية ظاهرة في نزاهة الخلفاء الثلاثة -رضي اللَّه تعالى عنهم- عمَّا رماهم الشيعة به من الظلم والجور، والتصرف في الأرض بغير الحق؛ لظهور تمكين الدين، والأمن التام من أعدائه في زمانهم، ولا يكاد يحسن الامتنان بتصرف باطل عقباه العذاب الشديد.

وكذا لا يكاد يحسن الامتنان بما تضمنته الآية على أهل عصرهم مع كونهم الرؤساء الذين بيدهم الحل والعقد، لو كانوا -وحاشاهم؛ كما يزعم الشيعة- فيهم، ومتى ثبت بذلك نزاهتهم عما يقولون؛ اكتفينا به.

وهذا لا يتوقف إلا على اتصافهم بالإيمان والعمل الصالح حال نزول الآية، وإنكار الشيعة له إنكار للضروريات، وكون المراد بالآية عليًّا أو المهدي -رضي اللَّه تعالى عنه- أو أهل البيت مطلقًا؛ مما لا يقوله منصف.

وفي كلام الأمير ما يقتضي بسوقه خلاف ما عليه الشيعة، ففي «نهج البلاغة»: أن

عمر بن الخطاب -رضي اللَّه تعالى عنه- لما استشار الأمير لانطلاقه لقتال أهل فارس حين تجمعوا للحرب، قال له: «إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة، وهو دين اللَّه -تعالى- الذي أظهره، وجنده الذي أعزه وأيده؛ حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع، ونحن على موعود من اللَّه -تعالى- حيث قال -عز اسمه-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

واللَّه -تعالى- منجزٌ وعده، وناصر جنده، ومكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز؛ فإن انقطع النظام تفرّق، ورُبَّ متفرق لم يجتمع، والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا، فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكن قطبًا واستدر الرحى بالعرب وأصلهم، دونك نار الحرب؛ فإنك إن شخصت من هذه الأرض تنقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها؛ حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك، وكان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غدًا.

يقولون: هذا أصل العرب، فإذا قطعتموه استرحتم؛ فيكون ذلك أشد لِكلبهم عليك، وطعمهم فيك.

فأما ما ذكرت من عددهم؛ فإنا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما نقاتل بالنصر والمعونة».

فتأمل ذاك، واللَّه -تعالى- يتولى هداك»[١].

٨- قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الأشبه أن هذا الكلام استئناف ابتدائي، انتقل إليه بمناسبة التعرض إلى أحوال المنافقين الذين أبقاهم على النفاق تردُّدهم في عاقبة أمر المسلمين، وخشيتهم ألَّا يستقر بالمسلمين المقام بالمدينة حتى يغزوهم المشركون، أو يخرجهم المنافقون حين يجدون الفرصة لذلك، كما حكى اللَّه -تعالى- من قول عبد اللَّه بن أُبَيّ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٥٣٤-٥٤٠).

﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فكانوا يظهرون الإسلام اتقاء من تمام أمر الإسلام، ويبطنون الكفر ممالأة لأهل الشرك، حتى إذا ظهروا على المسلمين لم يلمزوا المنافقين بأنهم قد بدلوا دينهم، مع ما لهذا الكلام من المناسبة مع قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾.

فيكون المعنى: وإن تطيعوه تهتدوا وتنصروا وتأمنوا.

ومع ما روي من حوادث تخوّف المسلمين ضعفهم أمام أعدائهم؛ فكانوا مشفقين من غزو أهل الشرك، ومن كيد المنافقين، ودلالتهم المشركين على عورات المسلمين، فقيل: كانت تلك الحوادث سببًا لنزول هذه الآية.

قال أبو العالية: مكث رسول اللَّه ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحي إليه خائفًا هو وأصحابه، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح؛ فقال رجل: يا رسول اللَّه! أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟

فقال رسول اللَّه: «**لا تَغْبُرون؛** (أي: لا تمكثون) **إلا قليلًا حتى يَجْلِسَ الرجلُ منكم في الملأِ العظيمِ محتبيًا، ليس عليه حديدةٌ**»[1]. ونزلت هذه الآية.

فكان اجتماع هذه المناسبات سببًا لنزول هذه الآية في موقعها، هذا بما اشتملت عليه من الموعود به الذي لم يكن مقتصرًا على إبدال خوفهم أمنًا كما اقتضاه أثر أبي العالية؛ ولكنه كان من جملة الموعود، كما كان سببه من عداد الأسباب.

وقد كان المسلمون واثقين بالأمن، ولكن اللَّه قدم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين والشريعة فيهم؛ تنبيهًا لهم بأن سنة اللَّه: أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها.

ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنًا: إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه، مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأن ملاك ذلك هو طاعة اللَّه والرسول ﷺ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، وإذا حلّ الاهتداء في النفوس

(١) ضعيف: مضى تخريجه (ص ٨٠).

نشأت الصالحات؛ فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات.

والموصول عام، لا يختصُّ بمعيَّن، وعمومه عرفي؛ أي: غالب، فلا يُناكده ما يكون في الأمة من مُقصِّرين في عمل الصالحات؛ فإن تلك المنافع عائدة على مجموع الأمة.

والخطاب في ﴿مِنكُمْ﴾ لأمة الدعوة بمشركيها ومنافقيها، بأن الفريق الذي يتحقق فيه الإيمان وعمل الصالحات هو الموعود بهذا الوعد.

والتعريف في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للاستغراق؛ أي: عملوا جميع الصالحات، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد؛ لأن إبطال الفساد صلاح.

فالصالحات: جمع صالحة، وهي: الخصلة والفعلة ذات الصلاح؛ أي: التي شهد الشرع بأنها صالحة.

واستغراق ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استغراق عرفي؛ أي: عمل معظم الصالحات ومهماتها، ومراجعها مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة، وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك يحصل بالاستقامة في الخُويصة، وبحسن التصرف في العلاقة المدنية بين الأمة على حسب ما أمر به الدين أفراد الأمة، كل فيما هو من عمل أمثاله، الخليفة فمن دونه، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم، ولا التفات إلى الفلتات المناقضة؛ فإنها معفو عنها إذا لم يسترسل عليها، وإذا ما وقع السعي في تداركها.

والاستقامة في الخويصة هي موجب هذا الوعد، وهي: الإيمان، وقواعد الإسلام، والاستقامة في المعاملة هي التي بها تيسير سبب الموعود به.

وقد بيَّن اللَّه -تعالى- أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

وقوله في سياق الذم: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

وبيَّن الرسول -عليه الصلاة والسلام- تصرفات ولاة الأمور في شئون الرعية، ومع أهل الذمة، ومع الأعداء في الغزو، والصلح، والمهادنة، والمعاهدة، وبيّن أصول المعاملات بين الناس.

فمتى اهتمَّ ولاة الأمور، وعموم الأمة باتباع ما وضح لهم الشرع: تحقق وعد اللَّه إياهم بهذا الوعد الجليل.

وهذه التكاليف التي جعلها اللَّه لصلاح أمور الأمة ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسبابًا لها، وكانت الموعدة كالمسبب عليها، فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع، وجعل الإيمان عمودها وشرطًا للخروج من عهدة التكليف بها، وتوثيقًا لحصول آثارها بأن جعله جالب رضاه وعنايته.

فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يحف اللُّطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها؛ بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها، وعند تخليطهم الصلاح بالفساد؛ فرفق بهم، ولم يعجل لهم الشر، وتلوم لهم في إنزال العقوبة.

وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٧] يريد بذلك كله: المسلمين.

فلو أن قومًا غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشئون رعيَّتهم بمثل ما أمر اللَّه به

المسلمين من الصالحات، بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان باللَّه ورسوله؛ لاجتنوا من سيرتهم صورًا تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون؛ لأن تلك الأعمال صارت أسبابًا وسننًا تترتب عليها آثارها التي جعلها اللَّه سننًا وقوانين عمرانية، سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم بجحوده، أو بالإشراك به، أو بعدم تصديق رسوله يكونون بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم، ودفع العوادي عنهم؛ بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم على حسب المعتاد.

ألا ترى أن القادة الأوربيِّين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شئون المسلمين في خلال الحروب الصليبية، ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة النبوية؛ قد نظموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة، وكراهة البغي والعدوان؟ فعظمت دولهم، واستقامت أمورهم.

ولا عجب في ذلك؛ فقد سلَّط اللَّه الآشوريين -وهم مشركون- على بني إسرائيل؛ لفسادهم، فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٤و٥].

والاستخلاف: جعلهم خلفاء، والسين والتاء للتأكيد، وأصله: ليخلفنهم في الأرض.

وتعليق فعل الاستخلاف بمجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن كان تدبير شئون الأمة منوطًا بولاة الأمور لا بمجموع الأمة، من حيث إن لمجموع الأمة انتفاعًا بذلك، وإعانة عليه كل بحسب مقامه في المجتمع؛ كما حكى تعالى قول موسى لبني إسرائيل: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٥].

ولهذا؛ فالوجه: أن المراد من الأرض جميعها، وأن الظرفية المدلولة بحرف ﴿فِى﴾ ظاهرة في جزء من الأرض، وهو موطن حكومة الأمة، وحيث تنال أحكامها سكانه.

والأصل في الظرفية عدم استيعاب المظروف الظرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وإنما صيغ الكلام في هذا النظم، ولم يقتصر على قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ دون تقييد بقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، للإيماء إلى أن الاستخلاف يحصل في معظم الأرض.

وذلك يقبل الامتداد والانقباض؛ كما كان الحال يوم خروج بلاد الأندلس من حكم الإسلام، ولكن حرمة الأمة واتقاء بأسها ينتشر في المعمورة كلها، بحيث يخافهم من عداهم من الأمم في الأرض التي لم تدخل تحت حكمهم، ويسعون الجهد في مرضاتهم ومسالمتهم.

وهذا استخلاف كامل، ولذلك نظر بتشبيهه باستخلاف الذين من قبلهم؛ يعني: الأمم التي حكمت معظم العالم، وأخافت جميعه مثل: الآشوريين، والمصريين، والفينيقيِّين، واليهود زمن سليمان، والفرس، واليونان، والرومان.

وعن مالك: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر؛ فيكون موصول الجمع مستعملًا في معنى المثنى.

وعن الضحاك: هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. ولعل هذا مراد مالك.

وعلى هذا؛ فالمراد بالذين من قبلهم: صلحاء الملوك؛ مثل: يوسف، وداود، وسليمان، وأنو شروان، وأصحمة النجاشي، وملكي صادق الذي كان في زمن إبراهيم ويدعى حمورابي، وذي القرنين، وإسكندر المقدوني، وبعض من ولي جمهورية اليونان.

وفي الآية دلالة واضحة على أن خلفاء الأمة -مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ومعاوية- كانوا بمحلِّ الرضا من اللَّه -تعالى-؛ لأنه استخلفهم استخلافًا كاملًا؛ كما استخلف الذين من قبلهم، وفتح لهم البلاد من المشرق إلى المغرب، وأخاف منهم الأكاسرة والقياصرة.

وجملة ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ بيان لجملة ﴿وَعَدَ﴾، لأنها عين الموعود به، ولمَّا كانت جملة قسم -وهو من قبيل القول-؛ كانت إحداهما بيانًا للأخرى.

وتمكين الدين: انتشاره في القبائل والأمم، وكثرة متبعيه.

استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار؛ لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام، فكان كالشيء المثبت المرسخ، وإذا كان متبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل.

وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبي ﷺ في أحاديث كثيرة؛ منها: حديث الحديبية، إذ جاء فيه قوله: «**وَإِنْ هُمْ أَبَوَا**؛ (أي: إلا القتال)، **فوالذي نَفَسي بيدِهِ لأُقَاتِلَنَّهم على أَمْري هذا حتى تَنْفَرِدَ سالِفتي** -أي: ينفصل مقدم العنق عن الجسد-، **ولينفذنَّ اللَّهُ أَمْرَه**»[1].

وقوله: ﴿لَهُمْ﴾ مقتضى الظاهر فيه أن يكون بعد قوله: ﴿دِينَهُمُ﴾، لأن المجرور بالحرف أضعف تعلقًا من مفعول الفعل، فقدَّم ﴿لَهُمْ﴾ عليه؛ للإيماء إلى العناية بهم؛ أي: بكون التمكين لأجلهم؛ كتقديم المجرور على المفعولين في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٢].

وإضافة الدين إلى ضميرهم؛ لتشريفهم به؛ لأنه دين اللَّه، كما دل عليه قوله عقبه: ﴿الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنه اختارهم -أيضًا-؛ ليكونوا أتباع هذا الدين.

وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصفة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم؛ لأنه دينهم، فيكون تمكُّنه في الناس بواسطتهم.

وإنما قال: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ ولم يقل: وليؤمننَّهم -كما قال في سابقيه-؛ لأنهم ما كانوا يطمحون يومئذ إلى الأمن؛ كما ورد في حديث أبي العالية المتقدم آنفًا، فكانوا في حالة هي ضد الأمن ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٧٢٠) -ومن طريقه البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢).

خوف؛ لكان الأمن منة واحدة.

وإضافة الخوف إلى ضميرهم؛ للإشارة إلى أنه خوف معروف مقرَّر.

وتنكير ﴿أَمْنًاۚ﴾، للتعظيم، بقرينة كونه مُبدَّلًا من بعد خوفهم المعروف بالشدة.

والمقصود: الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين.

وفيه بشارة بأن اللَّه مزيل الشرك والنفاق من الأمة.

وليس هذا الوعد بمقتضى ألَّا تحدث حوادث خوف في الأمة في بعض الأقطار؛ كالخوف الذي اعترى أهل المدينة من ثورة أهل مصر، الذين قادهم الضال مالك الأشتر النخعي.

ومثل الخوف الذي حدث في المدينة يوم الحرة، وغير ذلك من الحوادث، وإنما كانت تلك مُسببات عن أسباب بشرية، وإلى اللَّه إيابهم، وعلى اللَّه حسابهم.

وجملة: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حال من ضمائر الغيبة المتقدمة؛ أي: هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إيَّاي.

وفي هذه الحال إيذانٌ بأن ذلك الوعد جزاء لهم؛ أي: وعدتهم هذا الوعد الشامل لهم والباقي في خلفهم؛ لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الإشراك.

وعبر بالمضارع؛ لإفادة استمرارهم على ذلك، تعريضًا بالمنافقين؛ إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون.

وجملة: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًاۚ﴾ حال من ضمير الرفع في ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ تقييدًا للعبادة بهذه الحالة؛ لأن المشركين قد يعبدون اللَّه، ولكنهم يشركون معه غيره.

وفي هاتين الجملتين ما يؤيد ما قدمناه: من كون الإيمان هو الشريطة في كفالة اللَّه للأمة هذا الوعد.

وجملة: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ تحذير بعد البشارة، على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس؛ دفعًا للاتكال.

والإشارة في قوله: ﴿بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ إلى الإيمان المعبر عنه هنا بـ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، والمعبر عنه في أول الآيات بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: ومن كفر بعد الإيمان، وما حصل له من البشارة عليه؛ فهم الفاسقون عن الحق.

وصيغة الحصر المأخوذة من تعريف المسند بلام الجنس مستعملةٌ مبالغةً؛ للدلالة على أنه الفسق الكامل.

ووصف الفاسقين له رشيق الموقع؛ لأن مادة الفسق تدل على الخروج من المكان من منفذ ضيق»[١].

٩- قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ذكر -جلَّ وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هذه الأُمَّة ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ليجعلنهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها، ونفوذ الكلمة، والآيات تدلّ على أن طاعة اللَّه -بالإيمان به والعمل الصالح -سبب للقوّة والاستخلاف في الأرض، ونفوذ الكلمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: كبني إسرائيل.

ومن الآيات الموضّحة لذلك: قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٩/ ٢٨١-٢٨٩).

وقوله تعالى عن موسى -عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام-: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ اللاّم مُوطّئة لقسم محذوف؛ أي: وعدهم اللّه، وأقسم في وعده ليستخلفنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، هذا الدّين الذي ارتضاه لهم هو: دين الإسلام؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، قال الزمخشري: تمكينه؛ هو: تثبيته وتوطيده»[1].

* * *

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٢٤٦-٢٤٧).

وعد التمكين، وفقه الاستخلاف آيته، وغايته

إنَّ لعبوديةِ اللَّه حقيقةً ضخمةً[١]، وقوة هائلة، لها ثقلها في تحقيق موعود اللَّه للطائفة المؤمنة في الاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين في واقع الحياة، فمن أراد بلوغ هذا الأمل المنشود، وإعادة ذلك المجد المفقود؛ فلا بد أن يبحث عن مصداقها وهو يدرك حقيقتها، ويعلم كيف تحقيقها؛ قبل أن يتشكَّك، أو يرتاب، أو يستبطئ نصر اللَّه.

وهذا الوعد الرَّباني واقع ما له من دافع، وصادق غير مكذوب؛ لأنه وعد من لا يخلف الميعاد، ولا تتخلَّف سنته فيمن استحقها.. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والاستخلاف وعد اللَّه للطائفة المؤمنة في كلّ قرن حتى يأتي أمر اللَّه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، لأنه ممن علم الأشياء قبل وقوعها؛ فلا رادّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، ولا مبدِّل لكلماته: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥و١٠٦].

إنَّ آية فهم الاستخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، فالتمكين للدين في دنيا الناس ليصرِّف شئونها، ويدبر أمورها ويُهيمن عليها؛ لا يتمّ إلا إذا تغلغل في قلوب أتباعه، وتصرَّف في دقائق شئون حياتهم، فإذا رأيت دعاته كذلك؛ فاعلم أن نصر اللَّه قريب.

ومن هنا كانت مقولة بعض الدعاة: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم؛ تقم لكم على أرضكم» حكيمة[٢]، لأن من أراد أن يفرح بنصر اللَّه؛ فلا بد أن يكون قائمًا على

---

(١) وانظر -لزامًا- كتابي: «مدارج العبودية من هدي خير البرية»، وهو مطبوع متداول.

(٢) أوقفني بعض أصحابنا من طلاب العلم على كتاب عنوانه: «الجهاد والاجتهاد: تأملات في المنهج»

للمدعو عمر بن محمود أبي عمر[1] خبط فيه خبط عشواء، فكان كحاطب ليل، حيث زعم أن هذه الكلمة صوفية المنهج؛ فقال (ص ٢١٨): «وإن كثيرًا من الفضلاء تأثروا بالمنهج الصوفي في التغيير والحركة، ولعل أوضح عبارة أُطلقت في هذا الزمان عبرت عن هذا المنهج الصوفي، هي الكلمة التي صارت شعارًا لبعض التجمعات والتنظيمات الإسلامية، هذه العبارة هي: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم؛ تقم لكم على أرضكم».

وكذلك مثل هذه الدعوة أصحاب دعوة: «التصفية والتربية»، بالمفهوم التربوي الذي يطرحه أتباع هذه الشعارات فإننا نستطيع بكل جرأة أن نسمي أصحاب هذا الشعار «أقيموا . . . تقم . . .»، وهم أصحاب التغيير عن طريق «التصفية والتربية» أنهم «سلفية العقيدة، صوفية المنهج»»!!

ثم بدأ (ص ٢١٩) يُحلِّل هذه العبارة من خلال تصوراته النفسية، وتوتراته العصبية، وأنها ترتبط بعقيدة الجبر والإرجاء، حيث صرح (ص ٢٢٠)، فقال: «فالعبارة كما هي عند أصحابها: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم «إرجاء بدعي» تقم لكم على أرضكم «جبر بدعي».

ولست -الآن- في صدد بيان جهله وتمويهه وتدليسه وتلبيسه وتشبعه بما لم يعط . . . إلى آخر أثواب الزور والغرور التي يتدثَّر بها؛ لكن ربَّ كاسيةٍ عارية، ولكن أنبه على أمور:

١- عبارة: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم؛ تقم لكم على أرضكم» لا يمكن أن يفهم منها ما ادعاه الكاتب المشار إليه للوجوه الآتية:

أ- أن قائلها الهضيبي لم يكن منهجه في التغيير صوفيًا، بل يعلم الكاتب قبل غيره أنه معتزلي خارجي، ورحم الله الشيخ أبا الأشبال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «الإخوان المسلمون خوارج القرن العشرين».

وتاريخ هذه الجماعة مليء بالمآسي السياسية؛ لاصطدامهم الدائم مع ذوي السلطان، حيث ينازعون الأمر أهله بأدنى شبهة؛ فحالهم في مصر، وسوريا، والعراق، والجزائر. . . لا يخفى على بصير بالساحة الدعوية.

ب- ناقلها -وهو شيخنا- كان شوكةً في حلق الصوفية في بلاد الشام؛ بل في العالم حتى مماته رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- أن عبارة: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم؛ تقم لكم على أرضكم» استخدمها ناقلها رَحِمَهُ اللَّهُ حجة على أصحاب قائلها، من باب: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦].

٣- أن العبارة يدل عليها قول اللَّه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فهذه الآية الشريفة هي منهج الإسلام في التغيير، ومنها أخذ المنهج السلفي معالمه في التغيير، ودونك البيان:

---

(١) وهو المكنَّى بأبي قتادة الفلسطيني، المقيم -اختيارًا- في بلاد الكفر والإباحية (لندن)! المُرَوِّج لمنهج (الخوارج) وفكرهم!!

وقد رد على أفكاره المضلِّلة، وبيَّنَ أحواله السيئة: الأخ الفاضل عبد المالك رمضاني الجزائري -وفقه اللَّه- في كتابه النافع: «تخليص العباد من وحشية أبي القتاد الداعي إلى قتل النسوان وفلذات الأكباد»، فانظره غير مأمور.

أمر اللَّه، فلا يُؤْتَيَنَّ الدينُ من قِبَلِه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وما ذاك إلا لأن الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين ثمرة للإيمان والعمل الصالح، ولن تنضج الثمرة إلا إذا كان غرسها قد استغلظ، واستوى على سوقه، وكان أصله ثابتًا وفرعه في السماء.

أ- ذكر اللَّه -سبحانه- التغيير مرتين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.
ب- في المرة الأولى أسند التغيير إلى نفسه الكريمة، وفي المرة الأخيرة أسند التغيير إلى عباده.
ت- التغيير المسند إلى اللَّه ﷻ هو: تغيير ما وقع على العباد، وما هم فيه من ذُلٍّ وصغار، وهوان وضعف.
والتغيير المسند إلى العباد هو: تغيير ما في نفوسهم من ضعف وعصيان وفساد.
ث- تغيير ما في نفوس العباد شرطٌ في تغيير ما وقع على العباد.
ج- التغيير المسند إلى العباد سهل ويسير، وجميعهم قادر عليه مكلف به؛ بخلاف التغيير المسند إلى اللَّه، فإنه لا يقدر على تغييره إلا هو؛ لكبر مكر الكفار وعظم كيدهم، حيث وصفه اللَّه بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾، وقال: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ فلا يجوز لك الانشغال بشيء لم يطلبه اللَّه منك ولا كلفك به، والعدول عمَّا هو فيه فائدة لك إلى ما لا قِبَل لك به ولا طاقة لك عليه، وإنما هي مجرد حماسات وعواطف عابرات، تنتج عنها الهيجانات والمظاهرات، ثم الخروج على ولاة الأمور والحكومات، أو -بعد الفشل والضياع- إلى صناديق الانتخابات!! وقد عاينا ذلك كله، ومع ذلك؛ لا نزال نُتهم -ظلمًا وجهلًا- بالإرجاء، عياذًا باللَّه مما هم عليه من سوء وبغي وغثاء وبلاء.
ح- لو فُهِمت هذه الآية كما فهم هذا الكاتب هذه العبارة؛ لكانت المعادلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ (جبر!!) ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (إرجاء!!).
وهذا الفهم انتكاس وخبط وخلط.
٤- هذه العبارة تدل على أمور:
أ- أن الإسلام لابد أن يتشكَّل في دولة؛ فهل المنهج الصوفي يدعو إلى دولة إسلامية وتطبيق حكم اللَّه في الأرض، وإقامة خلافة راشدة على منهاج النبوة، واستئناف حياة إسلامية؟!
ب- أن دولة الإسلام لا بد أن تتمكَّن من قلوب الدعاة لها؛ حتى يستطيعوا إقامتها في واقعهم وعلى أرضهم.
ت- أن الذي لا يستطيع تطبيق حكم اللَّه، وإقامة منهجه في نفسه لا يمكن أن يُطبِّق ذلك على واقعه؛ ففاقد الشيء لا يعطيه، وإن ادعى ما ليس عنده، وتشبَّع بما ليس فيه(!).
ث- أن أعمال الجوارح يقتضيها إيمان القلوب، فمن تمكَّن الإيمان الصحيح في قلبه؛ استلزم وجود العمل الصالح أعمال الجوارح؛ وإلا دَلّ على عدمه، أو ضعفه.
٥- إذا فهمنا العبارة في ضوء الآية؛ كانت النتيجة «التصفية والتربية» بالمفهوم السلفي المنهجي، الذي بسطه شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وانظر -تفضلًا- كتابي: «مناهج الحركات الإسلامية المعاصرة في التغيير».

ولقد صدق الإمام الشافعي عندما سُئِلَ: أيهما خير للعبد؛ التمكين، أم الابتلاء؟ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يكون التمكين إلا بعد الابتلاء!.

وهذا مصداق قول اللَّه -تعالى-: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وهنا تبرز ضرورة العبودية من قبل الاستخلاف والتمكين في الآية نفسها، تعليلًا للاستخلاف والتمكين ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾.

ولكن للاستخلاف تكاليفه في النفس البشرية والحياة الإنسانية؛ من عدم الغرور والبطر، وعدم إلقاء الأيدي إلى التهلكة بالتراخي والركون إلى زهرة الحياة الدنيا، والتهاون في أمر اللَّه.. إذ إن كثيرًا من الناس يصبرون على المحنة والضراء، لكنهم يتساقطون عند التمكين والنعماء.. أليس الابتلاء يكون بالخير والشر؟!

إن ثبات القلوب على الحقِّ بعد التمكين للحقِّ واستخلاف أهله منزلة فوق التمكين والاستخلاف؛ فهو الذي يحميه ويحرسه ويعزّزه، وهذه الحقيقة التي سطَّرها القرآن بحروف بارزة في قلوب عباد الرحمن: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠و٤١].

إنه ثبات على المنهج بعد الاستخلاف والتمكين؛ كما ثبتوا عليه من قبل، وهم يلاقون أشد أنواع الابتلاء على يد الكافرين، وبه يتبين أن العبودية سبب الاستخلاف والتمكين، فقد وصفهم بالإيمان والعمل الصالح قبل الاستخلاف والتمكين -كما في سورة النور، وهي غاية الاستخلاف والتمكين، وحلية جند اللَّه المنصورين بعد الاستخلاف والتمكين- كما في سورة الحج-.

وإذا كانت العبودية للَّه سبب استخلاف جيل القدوة الأول وقرن الأسوة الأمثل -محمد والذين معه-؛ فهي كذلك سبب استخلاف الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، الذين هم على ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه... وإن كنت في ريب من ذلك؛ فتدبر

وصف رسول اللّه ﷺ للجيل المؤمن، الذي لا يزال في رحم الغيب، وهو يستأصل شَأْفَةَ المغضوب عليهم، ويجتثُّ جذورهم؛ ليطهِّر البلاد والعباد من مكرهم وخبثهم وفجورهم؛ فقد ورد عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**لا تَقُومُ السَّاعةُ حتى يُقَاتِلَ المسلمون اليهودَ، فَيَقْتُلَهم المسلمون؛ حتى يَخْتَبِئَ اليهوديُّ وراءَ الحَجَر والشَّجَر، فيقولَ الحَجَرُ -أو الشَجَرُ-: يا مسلم! يا عبد اللّه! هذا يهوديٌّ ورائي تَعَالَ فاقْتُلْه؛ إلا الغَرْقَد؛ فإنّه من شَجَرِ اليَهودِ**»[1].

إن الشجر والحجر يرفع عقيرته: يا مسلم! يا عبداللّه! فهو يصف طلائع الإيمان وكتائب الرحمن بالإسلام والعبودية للّه رب العالمين... ومنه نُدرك أهمية تحقيق العبودية في استخلاف الأمة الإسلامية، واستئناف حياة راشدة على منهاج النبوة.

إنه ما من مرةٍ سارت الأمة على منهج اللّه، ليكون الدين كله للّه، إلا تحقق وعد اللّه بالاستخلاف والتمكين والأمن... ألا إن وعد اللّه قائم! ألا وإن شرط اللّه معروف! فمن شاء الوعد الكريم؛ فليؤدِّ الشرط، ويوفِّ بما عاهد عليه اللّه، فمن وفَّى وُفِّيَ له، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾؟

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إذا تبايَعْتُم بالعينَةِ، وَأَخَذتُم أذنابَ البقر، ورضيتم بالزَّرْعِ، وتركْتُم الجِهَادَ فِي سَبِيل اللّه؛ سَلَّطَ اللّه عليكم ذُلًّا لا يَنْزِعُه حتى تَعودوا إلى دينِكم**»[2]. واللّه بالغ أمره، وقد جعل اللّه لكل شيء قدرًا.

* * *

---

(١) انظر (ص٢١٧).

(٢) حسن: كما بينته مفصلًا في كتابي: «الدرر الثمينة المنتقاة من حديث العينة»، وانظر: «تحذير أهل الإيمان من الحكم بغير ما أنزل الرحمن» (ص ٩٠-٩٣ -بتحقيقي)، و«السلسلة الصحيحة» لشيخنا الألباني رحمه الله (١١).

وقفات منهجية مع أقوال المفسرين

وأقوال المفسرين تُوضِّح دلالات منهجية؛ منها:

أولًا: معجزة نبوية تدلُّ على صدق رسول اللَّه ﷺ وصحة رسالة الإسلام، فقد أخبر رسول اللَّه ﷺ عما سيكون؛ فكان كما أخبر.

ثانيًا: الاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين: مِنْحة ربَّانية، ومنَّةٌ إلهية للإيمان والعمل الصالح؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

ثالثًا: تغيير واقع الأمة إلى الأحسن، ورفع الذُّلّ الذي يغشاها، ونزع الخوف الذي تعيشه بيد اللَّه -تبارك وتعالى-؛ كما يدل على ذلك قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، حيث أسند الأمر إلى نفسه ﷻ.

وقد جاء ذلك صريحًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

رابعًا: هذا الوعد الإلهي سُنَّة من سنن اللَّه الجارية، فكلما استقام الناس على منهج اللَّه؛ استخلفهم في الأرض، ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وبدَّلهم أمنًا بعد خوف.

خامسًا: مفتاح الاستخلاف وأصل التمكين؛ هو: إفراد اللَّه بالعبودية، وتوحيده بالألوهية؛ فهذه المسألة محل النزاع بين النبيِّين وأقوامهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولذلك قال اللَّه -تعالى- في آية الاستخلاف، ووعد التمكين: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾.

فكلُّ أمة تجعل التوحيد أساس دينها، والاتباع أصل منهجها؛ يمكِّن اللَّه لها

دينها، ويستخلفها في الأرض، وتعيش في أمنٍ وأمان.

وهذا صريح قول رسول ﷺ وهو يدعو قومه إلى كلمة التوحيد، التي تدين للمؤمنين بها العرب والعجم.

سادسًا: عقد الاستخلاف، وتمكين الدين في القلوب، وتصريف الحياة: قائم على تلقي الهدى من رب العزة -تبارك وتعالى-.

سابعًا: ما يصيب الأمة من فتن ومصائب؛ هو من عند نفسها ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ولذلك ختم اللّه هذه الآية بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

* * *

دلالة آية الاستخلاف على أن المستقبل للإسلام

بعد هذه الجولة المطوَّلة في أقوال المفسرين، وبعد انتجاع هذه الدلالات المنهجية؛ نستطيع الجزم بأن المستقبل للإسلام؛ لوجوه متعدِّدة:

أولًا: أن هذا الوعد لم يكن وقت نزول الآية متحقِّقًا، فهو بُشرى للمؤمنين بأنه سيكون المستقبل للإسلام، وقد تمَّ شيء منه في عهد رسول اللَّه ﷺ، ثم بدأ يكتمل شيئًا فشيئًا، وهو تام لا محالة؛ كما هو مقرَّر في المبشرات النبوية الدالة على ذلك[1].

ثانيًا: الوعد لا يقال إلا فيما لم يأت بعد، ولم يتحقَّق وقوعه، وإنما يتم ذلك في المستقبل؛ فدل وقوعه على أن المستقبل للإسلام.

ثالثًا: ألفاظ الآية كلها تدل على الاستقبال؛ كقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾.

* * *

(١) انظر -لزامًا- (ص ١٤٢).

دلالة آية الاستخلاف على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

من تدبر هذه الآية العظيمة؛ علم حق اليقين: أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام، من وجوه عدة:

أولًا: فيها دلالة واضحة على صحة خلافة الخلفاء الراشدين، وهي خلافة على منهاج النبوة؛ كما في حديث سفينة، وحديث حذيفة رضي الله عنهما، ولذلك؛ فالخلافة الراشدة في آخر الزمان ستكون على منهج الخلفاء الراشدين، وهو: منهج السلف الكرام.

ثانيًا: استخلاف الصحابة رضي الله عنهم ونصرهم دليل على أنهم آمنوا وعملوا الصالحات، فهم المؤمنونُ الكمّل، والعباد الخُلَّص؛ فدل ذلك على صحة منهجهم، ووجوب اتباعهم والاقتداء بهم.

ثالثًا: تقريرها أن الذين يستحقون الاستخلاف والتمكين هم الذين يُحقِّقون عبودية اللَّه -تعالى-: دليل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام، والذي مداره على ذلك؛ كما في حديث قتال اليهود: «**يا مسلم! يا عبد اللَّه...**»[1].

رابعًا: قوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ دليلٌ على ظهورهم على الحق وتمكين المنهج في قلوبهم، وهذه صفة الطائفة المنصورة؛ فدل على أن المستقبل للإسلام وحده، بمنهج السلف الكرام ابتداءً وانتهاءً[2].

خامسًا: قوله تعالى: ﴿دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، هو: ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه؛ كما في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٦]، وهذا منهج السلف الصالح؛ كما في قوله ﷺ عن الفرقة الناجية: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْم وأَصْحَابِي**»[3].

---

(١) انظر -لزامًا- (ص ٢١٧).

(٢) انظر (ص ١٦٢).

(٣) انظر (ص ١٦٤).

حقائق منهجية في آيات المستقبل للإسلام

هذه الآيات نستطيع أن نستنبط منها حقائق منهجية، تزوِّد المؤمن بالطاقة، وهو يسير على منهج السلف الكرام؛ لتحقيق مستقبل الإسلام بإذن الملك العلَّام.

الحقيقة الأولى: أن أعداء اللَّه لا يزالون يحاربون هذا الدين، ويعادونه، ويجتهدون في إطفاء نوره، وطمس معالمه، والتضييق على دعاته، وحرب أهله.

يدل على ذلك أمور في الآيات:

أولًا: أن اللَّه ﷻ أثبت إرادتهم، ومباشرتهم، وفعلهم، وإن عجزوا فقال: ﴿يُرِيدُونَ﴾، فهذا إثبات للإرادة والعزم والهمِّ ﴿أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، وهذا مباشرة للفعل.

ثانيًا: أن هذه المحاولات الكافرة، والمخطَّطات الشركيَّة مستمرةٌ ودائمة؛ لأن اللَّه عبر عن هذه الحقيقة بالفعل المضارع الدال على الاستمرار والدوام: ﴿يُرِيدُونَ﴾، ﴿يُطْفِـُٔوا﴾.

ويزيد هذه الحقيقة وضوحًا: ما ورد من وصف مكر الكفار للكيد للإسلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢].

واليك تصريحات قادتهم وتخطيط سدنتهم:

١- يقول لورنس براون:

«إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي»[١].

ويقول: «كان قادتنا يُخوّفوننا بشعوب مختلفة؛ لكننا بعد الاختبار لم نجد مبَرَرًا لمثل تلك المخاوف.

كانوا يُخوّفوننا بالخطر اليهودي، والخطر الياباني الأصفر، والخطر البلشفي.

لكنه تبين لنا: أن اليهود هم أصدقاؤنا، والبلاشفة الشيوعيون حلفاؤنا، أما اليابانيون؛ فإن هناك دولًا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتهم.

لكننا وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام، وفي قدرته على التوسع والاخضاع، وفي حيويّته المدهشة»[٢].

٢- يقول غلادستون -رئيس وزراء بريطانيا سابقًا-:

«ما دام هذا القرآن موجودًا في أيدي المسلمين؛ فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق»[٣].

٣- ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر، في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر:

«إننا لن ننتصر على الجزائريّين ما داموا يقرءون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم»[٤].

٤- يقول ابن غوريون -رئيس وزراء دولة اليهود سابقًا-:

«إن أخشى ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمد جديد»[٥].

---

(١) «التبشير والاستعمار» (ص ١٠٤). (٢) المرجع السابق (ص ١٨٤).

(٣) «الإسلام على مفترق الطرق» لمحمد أسد (ص ٣٩).

(٤) «المنار» (عدد ٩/ ١١/ ١٩٦٢م).

(٥) «جريدة الكفاح الإسلامي» عدد الأسبوع الثاني من نيسان لعام ١٩٥٥م.

٥- يقول إسحاق رابين -غداة فوز جيمي كارتر برئاسة الولايات المتحدة-:

«إن مشكلة الشعب اليهودي هي: أن الدين الإسلامي ما زال في دور العدوان والتوسع، وليس مستعدًّا لمواجهة الحول، وإنَّ وقتًا طويلًا سيمضي قبل أن يترك الإسلام سيفه»[١].

٦- وصرح سالازار في مؤتمر صحفي قائلًا:

«إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يُغيِّرون نظام العالم».

فلما سأله أحد الصحفيين: لكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم ونزاعاتهم!

أجابه: «أخشى أن يخرج منهم من يوجه خلافهم إلينا»[٢].

٧- ويقول مسئول في وزارة الخارجية الفرنسية عام (١٩٥٢):

«ليست الشيوعية خطرًا على أوربا فيما يبدو لي، إن الخطر الحقيقي الذي يهدِّدنا تهديدًا مباشرًا وعنيفًا؛ هو: الخطر الإسلامي، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد، دون حاجة إلى إذابة شخصيّتهم الحضاريَّة والروحية في الحضارة الغربية، فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع؛ انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الثمين، وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الحضارة الغربية، ويقذفون برسالتنا إلى متاحف التاريخ.

وقد حاولنا نحن الفرنسيون خلال حكمنا الطويل للجزائر أن نتغلَّب على شخصية الشعب المسلمة، فكان الإخفاق الكامل نتيجة مجهوداتنا الكبيرة الضخمة.

---

(١) «مجلة المجتمع الكويتية» (٩ نوفمبر ١٩٧٦- عدد ٣٢٤).

(٢) «جند اللَّه» (ص ٢٢).

إن العالم الإسلامي عملاق مُقيَّد، عملاق لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافًا تامًّا، فهو حائر، وهو قلق، وهو كاره لانحطاطه وتخلُّفه، وراغبٌ رغبةً يخالطها الكسل والفوضى في مستقبل أحسن، وحرية أوفر. . .

فلنعط هذا العالم الإسلامي ما يشاء، ولنقوِّ في نفسه الرغبة في عدم الإنتاج الصناعي والفني؛ حتى لا ينهض، فإذا عجزنا عن تحقيق هذا الهدف -بإبقاء المسلم متخلّفًا، وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه-، فقد بُؤنا بإخفاق خطير، وأصبح خطر العالم العربي، وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطرًا داهمًا؛ ينتهي به الغرب، وتنتهي معه وظيفته الحضارية كقائد للعالم»[1].

٨- قالت إذاعة لندن صباح (١٠/٤/١٩٧٦) بمناسبة افتتاح مهرجان العالم الإسلامي في لندن:

«إن الشعور العام السائد في الغرب: أن المسيحية إذا لم تغيّر موقفها من الإسلام بحيث تتعاون معه للقضاء على الشر في العالم، لا أن تعتبر الإسلام مصدرًا من مصادر الشر، إن لم تفعل ذلك؛ فإن المستقبل لا يُؤذن بخير بالنسبة للمسيحيَّة والعالم».

فهذا دالٌّ على ما أردنا، مثبت لما أوردنا، ولكن اللَّه أثبت عجزهم، وردَّ كيدهم.

قال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

وقال ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

الحقيقة الثانية: أمم الكفر جميعها تعادي الإسلام، وأهله، ودعاته.

على الرغم من عداء الكفار بعضهم لبعض؛ إلا أنهم يجتمعون على حرب الإسلام وأهله ودعاته، ولذلك أخبر رسول اللَّه ﷺ: أن أمم الكفر «تداعى» على حرب الإسلام والكيد لأهله.

---

(١) «مجلة روز اليوسف» بتاريخ (٢٩/ ٦/ ١٩٦٣).

قال اللَّه -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

فأمم الكفر وأهل الشرك يُوالي بعضهم بعضًا عندما يكون الإسلام هو العدو؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

الحقيقة الثالثة: ظهور الدين، ولو كره المشركون.

إن «تداعي الأمم» على المسلمين من كل أفق، وعجزهم عن استئصال هذه الأمة الإسلامية المرحومة؛ لدَليلٌ واضح، وبرهان لائحٌ: أن المستقبل للإسلام وحده، بإذن اللَّه وحده، ولو كره الكافرون.

ومن تأمل حديث ثوبان[1] الآخر وجد ذلك عيانًا؛ فقد بَشَّر رسول اللَّه ﷺ في أوّله بالتمكين لهذه الأمة الإسلامية، وفي آخره أخبر بعجز «الأمم» عن استئصال المسلمين؛ فتبيّن لذي عينين: أن المستقبل لدين اللَّه، رغم أنوف أعداء اللَّه.

قال -تعالى-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢و٣٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما بعث به رسول اللَّه ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم؛ فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شُعاع الشمس -أو نور القمر- بنفخه، وهذا لا سبيل إليه؛ فكذلك ما أُرسل به رسول اللَّه ﷺ لا بد أن يظهر؛ ولهذا قال اللَّه -تعالى- مقابلًا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ثم قال -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، فالهدى هو: ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع. ودين الحق؛ هو:

---

(١) مضى (ص ٤٤- ٤٥).

الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي: على سائر الأديان؛ كما ثبت في «الصحيح» عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الأَرْضَ؛ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا...**»[١].

الحقيقة الرابعة: التصفية والتربية.

لقد حذَّر رسول اللَّه ﷺ في حديث ثوبان «تداعي الأمم» من تكالب أمم الكفر على أمة الإسلام واستضعافها، وبشر في حديث ثوبان الآخر بأن كيد الكافرين إلى بوار، وسعيهم إلى ضلال، وأن المستقبل للدِّين المتين رغم أنوف المشركين.

فما الذي جعل ريح المسلمين صبًا بعد ما كانت دبورًا؟ وما الذي أورثهم فرحًا وحبورًا؟

إذن؛ لا بد من عملية تغيير كُبرى، تجعل الأجيال المقهورة أمة منصورة.

وهذا ما يخشاه أعداء الدين:

١- يقول البر مشادر:

«من يدري؟! ربما يعود اليوم الذي تُصبح فيه بلاد الغرب مُهَددةً بالمسلمين، يهبطون إليها من السماء لغزو العالم مرة ثانية، وفي الوقت المناسب.

... لست مُتنبِّئًا، لكنّ الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة.. ولن تقوى الذّرة ولا الصواريخ على وقف تيَّارها.

إن المسلم قد استيقظ، وأخذ يصرخ: هٰأنذا، إنني لم أمت، ولن أقبل بعد اليوم أن أكون أداة تُسيِّرها العواصم الكبرى ومخابراتها»[٢].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٦٢).

(٢) «لم هذا الرعب كله من الإسلام» لجودت سعيد.

٢- ويقول هانوتو -وزير خارجية فرنسا-:

«رغم انتصارنا على أمة الإسلام وقهرها؛ فإن الخطر لا يزال موجودًا، من انتفاض المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي أنزلناها بهم؛ لأن همَّتهم لم تخمد بعد».

ولكن وسائل العلاج اختلف فيها؛ فكانت كثيرة، وهدى اللَّه أهل الحديث -أتباع السلف- إلى الصراط المستقيم؛ فكانوا الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة.

وَمَثَلُ الأمة الإسلامية في ذلك كَمَثَل قوم كانوا يعيشون في أرض خصبة، ومياه عذبة، وهواء نقي، وثمار طيبة؛ فصحَّت أجسامهم، وقويت أبدانهم؛ فكان عدوّهم يهابهم، ويحسب حسابهم؛ لأنه كلما هاجمهم قهروه، وردُّوه على أعقابه.

ثم طال عليهم الأمد؛ فأصبحوا يُلقون زبالتهم وأوساخهم في نهرهم الجاري؛ فتكدر ماؤه، فسقوا أرضهم منه؛ فأصبحت ثمارهم نَكِدة، وشربوا منه؛ فصارت أجسامهم عليلة هزيلة، فطمع بهم عدُوُّهم؛ فغزاهم في عقر دارهم، وأخذ بعض ما في أيديهم، وأذلّهم.

ثم جاءت أجيال؛ فرأوا ما هم عليه من ضعف، وذُلٍّ، وصغار؛ فتشاوروا، ثم صاروا طرائق قِددًا:

قال بعضهم: لابُدَّ أن نفتح المشافي، ونُحضر الأدوية؛ لمقاومة الأمراض، ومعالجة المرضى.

وقال آخرون: لابد من مناجزة أعدائنا؛ فالموت خير من حياة الذُلِّ والصَّغار، وبطن الأرض خيرٌ من ظهرها.

وضرب آخرون أخماسًا بأسداس، ولم يستطيعوا حيلة، ولم يهتدوا سبيلًا.

وعقلاء القوم ينظرون ويتفكرون... فلما رأوا إفلاس قومهم، وخُلوَّ جَعْبَتهم من الحق والصواب؛ قالوا: إن أجدادكم وأسلافكم كانوا يشربون من ماء النهر؛ فلوَّثتموه؛ فصرتم إلى ما ترون، فإن كنتم تريدون أن يرجع إليكم مجد أسلافكم؛ فلابدَّ أن ترجعوا جميعًا إلى مصدر النهر الصافي، فَتَرتَوا منه، وتعيشوا حوله؛ لتصح

أجسامكم، وتتعافى أبدانكم، وعندئذ تقهروا عدوّكم.

... هذه هي الحقيقة: أن تعود الأمة الإسلامية إلى مصدر النهر قبل أن يُلوَّث، وتُلقى فيه الأوساخ، والقاذورات، ونفايات الأمم الهالكة.

* * *

الأحاديث النبوية الصحيحة الدالة على أن المستقبل للإسلام

وأما المُبشرات النبوية من الأحاديث الصحيحة الصريحة الدالة دلالة قطعية على أن المستقبل للإسلام؛ فكثيرة جدًّا، بلغت حد التواتر المعنوي؛ لكنها بينت: أن ظهور الإسلام على الدين كله يتم على مراحل، ويدل على ذلك:

حديث عائشة ﵂، قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا يَذْهَبُ الليلُ والنّهارُ حتى تُعبدَ اللّات والعُزى**»، فقلت: يا رسول اللَّه! إن كنت لأظنّ حين أنزل اللَّه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] أنّ ذلك تامًّا، قال: «**إنّه سَيكُون مِن ذلك ما شاءَ اللَّهُ، ثم يَبْعَثُ اللَّه ريحًا طيبةً، فتوفّى كلَّ من في قلبه مثقالَ حبة خردلٍ من إيمانٍ، فيبقى من لا خيرَ فيه، فيرجعون إلى دينِ آبائهم**»[1].

هذا الحديث فيه حقائقُ كثيرة؛ منها:

١- أنه تفسير لآيات المستقبل للإسلام، وأن اللَّه متمٌّ ذلك حسب مشيئته ﷻ.

٢- أن هذا الوقوع حسب سنة اللَّه الكونية والشرعية؛ وهي: التدرُّج.

٣- أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام؛ لأن الريح الطيبة تتوفّى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، وهم آخر الطائفة المنصورة، وهذا كله بعد ظهور الدين على جميع الأديان.

وعليه: لا بد من تقسيم مراحل ظهور الدين، وهي:

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٣٠/ ٢٩٠٧).

أولًا: الأحاديث التي بشَّر فيها الرسول ﷺ بأن المستقبل للإسلام ووقعت كما أخبر الرسول ﷺ.

١- أحاديث المواقيت.

أ- عن أبي الزبير: أنه سمع جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما يُسأل عن المهَلِّ؟ فقال: سمعت -أحسب رفع إلى النبي ﷺ- فقال: «**مهَلُّ أهل المدينة: من ذي الحُلَيْفَة، والطريق الآخر: الجُحْفَة، ومهَلُّ أهل العراق: من ذات عِرقٍ، ومهَلُّ أهل نجد: من قرن، ومهَلُّ أهل اليمن: من يَلَمْلَم**»(١).

ب- عن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما، قال: وقَّتَ رسولُ اللَّه ﷺ لأهلِ المدينةِ: ذا الحُلَيفَة، ولأَهلِ الشَّام: الجُحْفَة، ولأَهِلِ نَجْدِ: قَرْنَ المَنَازِل، ولأَهْلِ اليَمَنِ: يَلَمْلَم، [قال]: «فَهُنَّ لهنَّ، ولِمَن (وفي رواية: هنَّ لهم، ولكلِّ آتٍ) أتى عليهنَّ مِن غيرِ أهْلِهِنَّ، لِمَن كان يُرِيدُ (وفي رواية: ممن أراد) الحجَّ والعمرَةَ، فَمَن كَانَ دُونَهُنَّ؛ فَمَهِلُّه مِن أهله (وفي رواية: فمِنْ حيثُ أَنْشَأ)، وكذلك؛ حتى [إن] أهلَ مكةَ يهلّونَ مِنها»(٢).

ت- عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما: أن رجلًا قام في المسجد، فقال: يا رسول اللَّه! مِنْ أين تأمرنا أن نُهل؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**يهل** (وفي طريق: مهَلُّ) **أهل المدينة: من ذي الحليفة، ويهل أهل الشام: من** [مهيعة؛ وهي] **الجحفة، ويهلّ أهل نجد: من قَرْن**».

«وفي رواية: أمر رسول اللَّه ﷺ أهل المدينة أن يهلوا: من ذي الحليفة، وأهل الشام: من الجحفة، وأهل نجد: من قرن».

وقال [عبد اللَّه] بن عمر: ويزعمون (وفي رواية: وبلغني، وفي رواية أخرى: وذكرني، وثالثة: أُخبرت): أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ويهلُّ** (وفي رواية: **ومهلُّ**) **أهل اليَمَنِ: مِن يَلَمْلَم**».

وكان ابن عمر يقول: لم أفقه هذه من رسول اللَّه ﷺ. [وذكر العراق؛ فقال: لم

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٨٤١/ ١١٨٣/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣/ ٣٨٤/ ١٥٢٤)، ومسلم في «صحيحه» (٢/ ٨٣٨-٨٣٩/ ١١٨١).

يكن عراق يومئذ][١].

هذه الأحاديث تدل على أن المستقبل للإسلام، حيث جعل الرسول ﷺ لأهلها مواقيت؛ مما يدل على أنها ستُفتح، ويدخل أهلها في الإسلام.

قال الإمام ابن الملقِّن: «رواه مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر؛ لكنه لم يجزم برفعه، وتضعيف الدارقطني له [في «التتبع» (ص **٣٦٩-٣٧٠**)] بأن العراق لم تكن فتحت في زمنه -عليه الصلاة والسلام- عجيب؛ منتقض بتوقيته -عليه الصلاة والسلام- لأهل الشام الجحفة، ولم تكن فُتحت، بل حكى ابن بزيزة إجماع النَّقلة على أنها كانت دار كفر، وكذا مصر، لم تكن فُتحت كما أسلفنا، وأن هذا من أعلام نبوته -عليه أفضل الصلاة والسلام- وأخبر ﷺ بفتحها»[٢].

قلت: وقد ثبت التوقيت لأهل العراق من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي لفظها: «أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ وقَّتَ لأهلِ المدينةِ: ذا الحليفة، ولأهل الشامِ ومصرَ: جُحْفَةَ، ولأهلِ العراق: ذاتَ عرقٍ، ولأهل اليمن: يلملم»[٣].

٢- أحاديث فتح الشام والعراق واليمن ومصر تصريحًا:

أ- عن عامر بن سعد بن أبي وقاص؛ قال: كتبت إلى جابر بن سمرة مع غلامي نافع: أن أخبرني بشيء سمعته من رسول اللَّه ﷺ، قال: فكتب إليّ: سمعت رسول اللَّه ﷺ -يوم جمعة، عشيَّة رجم الأسلمي، يقول: «**لا يَزَالُ الدينُ قائمًا حتى تقومَ الساعةُ، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفةً كلهم من قريش**»، وسمعته يقول: «**عُصَيبةٌ مِنَ المسلمين يفتتحونَ البيتَ الأبيضَ: بيت كسرى، أو آل كسرى**»، وسمعته يقول: «**إنَّ بين يدي الساعةِ كذابين؛ فاحذروهم**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١/ ٢٣٠/ ١٣٣)، ومسلم (٢/ ٨٤١/ ١١٨٤).
وانظر -غير مأمور-: «مختصر صحيح البخاري» (١/ ٦٤-٦٥/ ٨٧).

(٢) «الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» (٦/ ٢٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ١٤٣/ ١٧٣٩)، والنسائي في «المجتبى» (٥/ ١٢٣)، و«الكبرى» (٤/ ١٧/ ٣٦١٩) -وهذا لفظه-، والدارقطني في «سننه» (٢/ ٤٧٢-٤٧٣/ ٢٤٦٩)، والبيهقي (٥/ ٢٨)، بسند صحيح.
وانظر -لزامًا-: «إرواء الغليل» (٤/ ١٧٦-١٨٠/ ٩٩٩).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٣/ ١٤٥٣-١٤٥٤/ ١٨٢٢).

ب- عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، عن رسول اللَّه ﷺ، أنه قال: «**إذا فُتِحت عليكم فارسُ والرومُ؛ أيُّ قوم أنتم؟**»، قال عبد الرحمن بن عوف: نكون كما أمرنا اللَّه، قال رسول اللَّه ﷺ: «**أوَ غيرَ ذلك؛ تتنافسون، ثم تَتَحاسدون، ثم تَتَدابرون، ثم تَتَبَاغضون** -أو نحو ذلك-، **ثم تَنْطَلِقُونَ في مساكينِ المهاجرينَ، فتجعلون بعضهم على رِقابِ بَعْض**»[١].

ت- عن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يُفتحُ اليَمَنُ؛ فيأتي** (وفي رواية: **فيخرج**) [**من المدينة**] **قومٌ يَبُسُّون**[٢]، **فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينةُ خيرٌ لهم لَو كانوا يعلمونَ، ثمَّ يُفتَحُ الشامُ؛ فيأتي** (وفي رواية: **فيخرج**) [**مِن المدينة**] **قَومٌ يَبُسُّون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، ثم يُفتح العراقُ؛ فيأتي** (وفي رواية: **فيخرج**) [**من المدينة**] **قوم يَبُسُّون، فيتحمَّلون بأهليهم، ومنَّ أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون**»[٣].

ث- عن عمير بن الأسود العنسي: أنه أتى عبادة بن الصامت وهو نازل في ساحل حمص، وهو في بناء له، ومعه أم حرام، قال عمير: فحدثتنا أم حرام: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ البَحْرَ قَد أوجبوا**»، قالت أم حرام: قلت: يا رسول اللَّه! أنا فيهم؟ قال: «**أنتِ فيهم**»، ثم قال النبي ﷺ: «**أَوْلُ جَيْشٍ مِنْ أُمْتِي يَغْزُونَ مَدِينَة قَيْصَر مَغْفُورٌ لَهُم**»، فقلت: أنا فيهم يا رسول اللَّه؟! قال: «**لا**»[٤].

ج- عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنكم ستَفْتَحوُن مصر، وهي أَرَضٌ يُسمى فيها القِيرَاطُ**[٥]، **فإذا فَتَحتمُوهَا؛ فَأَحْسِنُوا إلى أَهْلِهَا** (وفي رواية:

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٧٤-٢٢٧٥/ ٢٩٦٢).

(٢) يبسون؛ أي: يسوقون ويزجرون إبلهم؛ كما في «النهاية».

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤/ ٩٠/ ١٨٧٥)، ومسلم في «صحيحه» (٢/ ١٠٠٩/ ١٣٨٨/ ٤٩٧) - والسياق له-.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٩٢٤).

(٥) القيراط: «جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشره في أكثر البلاد».

فاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا)، فإن لهَمُ ذمة[١] **ورحمًا**[٢]-أو قال: **ذمَّةً وصهرًا**[٣]- **فإذا رأيت رجلين يختَصِمَا ن** (وفي رواية: **يقتتلان**) **فيها في مَوْضِعِ لَبِنَة؛ فاخْرُج مِنها**».

قال: فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان (وفي رواية: يتنازعان) في موضع لبنة؛ فخرجت منها[٤].

ح- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**هَلَكَ كِسْرَى، ثم لا يكون** (وفي طريق: **قد مَاتَ كِسْرَى فلا**) **كِسْرَى بعده، وقيصر ليهلكنَّ، ثم لا يكون قيصرُ بعدَه** (وفي طريق: **إذا هلك كسرى، فلا كِسْرَى بعده، وإذا هَلَكَ قَيْصَر، فلا قَيْصَر بعدَه**)، **و[الذي نفسي بيده] لَتُقْسَمَنَّ** (وفي طريق: **لَتُنْفَقَنَّ**) **كنوزهُمَا في سبيل اللَّه**»[٥].

خ- عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا هَلَكَ كِسْرَى؛ فَلا كِسْرَى بَعْدَه، وإذا هَلَك قَيْصَرُ؛ فَلا قَيْصَرَ بَعْده، والذي نفسي بيده؛ لتنفقنَّ كنُوزُهُمَا في سبيلِ اللَّهِ**»[٦].

د- وعنه رضي الله عنه، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لَتَفْتَحنَّ عصابةٌ مِن المسلمين** -أو: **من المؤمنين**- **كَنْزَ آل كسرى الذي في الأَبْيَض**»[٧].

ذ- عن أبي عبيدة بن حذيفة؛ قلت لعدي بن حاتم: حديث بلغني عنك أُحبُّ أن أسمعه منك. قال: نعم؛ لما بلغني خروج رسول اللَّه ﷺ، فكرهت خروجه كراهة شديدة، خرجت حتى وقعت ناحية الروم؛ حتى قدمت على قيصر. قال: فكرهت مكاني ذلك أشدَّ من كراهيتي لخروجه. قال: فقلت: واللَّه لو أتيت هذا الرجل؛ فإن

---

(١) الذمة: العهد، والأمان، وسُمُّوا: أهل الذمة؛ لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم.

(٢) يعني: هاجر؛ أم إسماعيل عليه السلام.

(٣) يعني: مارية القبطية، والتي كانت من إمائه ﷺ، وكان منها ولده إبراهيم.

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ١٩٧٠/ ٢٥٤٣/ ٢٢٧).

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦/ ١٥٧/ ٣٠٢٧)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٣٦-٢٢٣٧/ ٢٩١٨). وانظر: «مختصر صحيح البخاري» (٢/ ٣٢٢-٣٢٣/ ١٣٢٣).

(٦) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦/ ٢١٩-٢٢٠/ ٣١٢١)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٣٧/ ٢٩١٩).

(٧) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٣٧/ ٢٩١٩).

كان كاذبًا لم يضرني، وإن كان صادقًا علمت. قال: فقدمت فأتيته، فلما قدمت قال الناس: عدي بن حاتم، عدي بن حاتم. قال: فدخلت على رسول اللَّه ﷺ، فقال لي: «**يا عَدِيُّ بنُ حَاتم! أَسْلِم تَسْلَم**» -ثلاثًا-. قال: قلت: إني عَلى دين، قال: «**أَنَا أَعْلَمُ بدينك منْكَ**»، فقلت: أنتَ أَعْلَمُ بديني منِّي؟! قال: «**نعم؛ ألستَ مِن الرَّكُوسيَّة، وأنتَ تأكلُ مِربَاعَ قومِكَ؟**»، قلت: بلى، قال: «**فإنَّ هذا لا يَحِلُّ لك في دينك**». قال: فلمْ يعد أن قالها؛ فتواضعتُ لها. قال: «**أما إنِّي أعلمُ ما الذي يَمْنَعُكَ مِنَ الإسلام؛ تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس، ومَنْ لا قوةَ لهُ، وقد رَمَتْهُم العَرَبُ. أتعرفُ الحِيرةَ**»؟ قلت: لم أرها؛ ولكن سمعتُ بها، قال: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأمرَ حتى تخرجَ الظَّعينةُ مِنَ الحيرة، حتى تطوفَ بالبيتِ في غَير جِوَارِ أَحَدٍ، ولَيُفْتَحَنَّ كنوزُ كِسْرَى بن هرمز**»، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: «**نَعَم؛ كسرى بنُ هُرمُز، ولَيُبْذَلَنَّ المالُ حتى لا يقبلهُ أحدٌ**».

قال عدي بن حاتم: فهذه الظَّعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوارٍ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده؛ لتكونَنَّ الثالثة؛ لأن رسول اللَّه ﷺ قد قالها[١].

٣- أحاديث قتال الترك والأكراد وانتصار المسلمين عليهم.

أ- عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**إنَّ مِنْ أشراطِ السَّاعَةِ أنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا يَنْتَعِلون نعالَ الشَّعْرِ، وإنَّ مِن أشراط الساعة أن تُقاتلوا قومًا عِراضَ الوجُوه؛ كأنَّ وجوهَهُم المجانّ المطرقَة**»[٢].

ب- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صحبت رسول اللَّه ﷺ ثلاث سنين، لم أكن في

(١) حسن: أخرجه أحمد (٣٠/ ١٩٦-١٩٧/ ١٨٢٦٠ و ٢٠٥/ ٨٢٦٨ و٢٠٦/ ١٨٢٦٩)، وابن حبان (٦٦٧٩)، والدارقطني في «السنن» (٢/ ٢٢١)، والحاكم (٤/ ٥١٨، ٥١٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٤٣)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ٨-٩)، وغيرهم من طرق عنه.
قلت: وهو صحيح.
وأصله في البخاري (٣٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦/ ١٠٣-١٠٤/ ٢٩٢٧).

سني أحرص على أن أعي الحديث مني فيهنّ، وسمعته يقول: «**بَيْنَ يَدَي الساعةِ تُقاتلون** (وفي طريق: **لا تقومُ الساعَةُ حتى تُقَاتلوا**) **قومًا نعالُهم** (وفي رواية: **حتى تقاتلكم أمة ينتعلون**) **الشَّعرَ**، -وهو هذا البارز-، **ولا تقوم الساعةُ حتى تقاتلوا** (وفي رواية: **يقاتلَ المسلمونُ**) **التركَ** (وفي طريق: **خوزًا وكرمانَ من الأعاجِم**)، **[قومًا] صغارَ الأعينِ، حُمْرَ الوجُوه، ذُلْفَ** (وفي طريق: **فُطْسَ**) **الأنُوف، كأنَّ وُجُوهَهُم [مثل] المجانِ المطرقَة**»[1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود: أنَّ قتال الترك وقع في آخر أيام الصحابة، قاتلوا القان الأعظم، فكسروه كسرة عظيمة»[2].

٤- أحاديث فتح الهند وانتصار المسلمين.

عن أبي هريرة؛ قال: «وَعَدَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ الهِنْدِ، فإن اسْتَشْهَدتُ؛ كنت خَيْرَ الشُّهَداءِ، وَإِنْ رَجَعْتُ؛ فَأَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ المحُرَّرُ»[3].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد غزا المسلمون الهند أيام معاوية سنة أربع

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦/ ١٠٤/ ٢٩٢٨-أطرافه)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٣٣/ ٢٩١٢).
وانظر: «مختصر صحيح البخاري» (٢/ ٤٧٤/ ١٥٣٠).

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٢٢٢).

(٣) حسن لغيره: أخرجه أحمد (١٢/ ٢٨/ ٧١٢٨ -ط الرسالة)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٦-٣١٧)، والحاكم (٣/ ٥١٤).
وأخرجه النسائي (٦/ ٤٢)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ١٦٧)، و«دلائل النبوة» (٦/ ٣٣٦) من طريق هشيم به، والنسائي (٦/ ٤٢) من طريق زيد بن أبي أنيسة؛ كلاهما عن سيار أبي الحكم، عن جبر بن عبيدة، عن أبي هريرة به.
قلت: إسناده ضعيف؛ فيه جبر بن عَبِيدَةَ مقبول.
وله طريق آخر: عن الحسن، عن أبي هريرة؛ قال: حدثني خليلي الصادق المصدوق أنه قال: «**يكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند**».
فإن أنا أدركته؛ فاستشهدت فذاك، وإن أنا، فذكر كلمة، رجعت وأنا أبو هريرة المحرر، قد أعتقتني من النار.
أخرجه أحمد (١٤/ ٤١٩/ ٨٨٢٣)، وإسناده ضعيف؛ فالبراء الغنوي ضعيف، والحسن مدلس وقد عنعن.
وبالجملة؛ فالحديث حسن لغيره بطريقيه، والله أعلم. وله شاهد يرتقي إلى درجة الصحة وهو ما بعده.

وأربعين وقد غزا الملك الكبير محمود بنُ سبكتكين -صاحب غزنة- في حدود سنة أربعمائة بلاد الهند، فوغل فيها، وقتل وأسر وسبى وغنم؛ حتى دخل السومنات، وكسر البُدَّ الأعظم الذي يعبدونه، واستلب شنوفه وقلائده، ثم رجع غانمًا سالمًا مُؤيّدًا منصورًا»[1].

حقائق منهجية

هذه الأحاديث النبوية الصحيحة التي أخبر فيها الرسول ﷺ عن فتوح بلاد الكفر -يومئذ-، وقد تحققت، وهذا يدل على حقائق منهجية؛ منها:

أولًا: أنها من أعلام رسالته ودلائل نبوته ﷺ، فهي تدل على صدقه؛ حيث وقع ما أخبر عنه شبرًا بشبر وذراعًا بذراع؛ فقد فُتحت بلاد الشام، والعراق، واليمن، ومصر، وغزا المسلمون الهند، وقاتلوا الترك، وانتصروا عليهم؛ فيدلُّ على أن هذه الغيوب لا تُعلم إلا بوحي يوحى.

ثانيًا: أن ما أخبر به الرسول ﷺ وقع رغم تشكيك المنافقين في عصر النبوة، وقياسًا عليه: سيقع ما وعد به رسول اللّه ﷺ من انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وسيطرته على الدين كله، ولو كره المشركون وشكَّكَ الخراصون، ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ثانيًا: الأحاديث التي بشَّر فيها الرسول ﷺ بأن المستقبل للإسلام، ولم تقع بعد.

أ- عن ثوبان رضي الله عنه -مولى رسول اللّه ﷺ-؛ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ زَوى لي الأرض، فَرَأيتُ مَشَارِقَها ومغاربها، وإن أُمّتي سَيَبْلُغ مُلْكُها ما زُوي لي منها، وَأعطيت الكَنْزَين: الأَحْمَر والأَبْيَض، وإني سَألتُ ربِّي لأمتي ألَّا يُهْلِكها بَسَنةٍ عامةٍ،**

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٢١٨-٢١٩).

وألَّا يُسَلِّطَ عليهم عَدوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِم؛ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُم، وإنَّ ربِّي قال: يَا مُحمدّ! إني إذا قَضَيْت قَضاء؛ فَإِنَّه لا يُرَدُّ، وإني أعطيتُ لأمتكِ ألَّا أُهلكَهم بَسَنةٍ عامَّة، وألَّا أُسَلِّطَ عليهم عدوًّا من سوى أنفُسِهم؛ يستبيح بيضَتَهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارِها- أو قال: من بين أقطارها-؛ حتى يكون بعضهم يُهلكُ بَعْضًا، ويسبي بعضُهم بَعْضًا»[1].

ب- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تَقومُ الساعَةُ حتى يكثر [فيكم] المالُ ويفيضُ؛ حتى يخرجَ الرجلُ بزكاة ماله فلا يجدُ أحدًا يقبلها منه (وفي رواية: حتى يهمّ رب المال من يقبله منه صدقةً، ويُدعى إليه الرجل فيقول: لا أَرَبَ لي فيه)، وحتى تعود أرضُ العَرب مُروجًا وأنهارًا»[2].

ت- عن الجريري -سعيد بن إياس-، عن أبي نضرة؛ قال: كنا عند جابر بن عبد اللَّه، فقال: يوشك أهل العراق ألَّا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل العجم، يمنعون ذاك، ثم قال: يوشك أهل الشام ألَّا يُجبى إليهم دينار ولا مدى، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل الروم. ثم أسكت هنيَّة، ثم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يَكُونُ في آخِرِ أُمَّتي (وفي رواية: الزمان) خَلَيفةٌ يحثي المالَ حَثيًا [و] لا يَعُدُّه عَدًّا».

قال: قلت لأبي نضرة وأبي العلاء: أتريان أنه عمر بن عبد العزيز؟ فقالا: لا[3].

ت- عن أبي سعيد الخدري، وجابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما، قالا: قال رسول اللَّه ﷺ: «يكَونُ في آخرِ الزمان خليفةٌ يقسمُ المالَ ولا يَعدُّه».

وفي رواية: «مِنْ خُلَفَائِكُم خَلِيفَةٌ يَحْثُو المَالَ حَثْيًا، ولا يَعُدُّهُ»[4].

ث- عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، عن نافع بن عتبة رضي الله عنه؛ قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في غزوة، قال: فأتى النبيَّ ﷺ قومٌ من قبل المغرب، عليهم ثياب الصُّوف، فوافقوه

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢١٥/ ٢٨٨٩).
(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢/ ٧٠١/ ٦٠و٦١).
(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٣٤/ ٢٩١٣).
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٣٥/ رقم ٦٩)، والرواية الثانية عند مسلم (٤/ ٢٢٣٥/ ٢٩١٤/ ٦٨).

عند أكمة، فإنهم لقيام ورسول اللَّه ﷺ قاعد، قال: فقالت لي نفسي: ائتهم، فقم بينهم وبينه؛ لا يغتالونه، قال: ثم قلت: لعله نجيٌّ معهم، فأتيتهم، فقمت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلمات، أعدُّهنَّ في يدي؛ قال: «**تَغْزُون جزيرةَ العرب؛ فيفتحها اللَّه، ثم فارس؛ فيفتحها اللَّه، ثم تغزون الرومَ؛ فيفتحها اللَّه، ثم تغزون الدجال؛ فيفتحه اللَّه**»[1].

قال: فقال نافع بن عتبة: يا جابر! لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم.

ج- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تَقُومُ السَّاعةُ حتى ينزلَ الرومُ بالأعماقِ -أو: بدابقٍ-، فيخرجُ إليهم جيشٌ من المدينةِ؛ من خيار أَهل الأَرض يومئذ، فإذا تَصافَّوا؛ قالت الرّوم: خَلّوا بَيْنَنَا وبَيْنَ الذين سُبُوا مِنَّا نُقاتلُهم، فيقول المسلمون: لا واللَّه! لا نُخلِّي بَيَنكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم؛ فيُهزم ثُلُثٌ لا يتوبُ اللَّهُ عليهم أبدًا، ويُقْتَلُ ثُلُثُهم؛ أَفْضَلُ الشُّهَداءِ عنْدَ اللَّهِ، ويَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لا يُفتنُونَ أبدًا، فَيَفتَتحُونَ قُسْطَنطِينِيَّة، فَبَيْنَما هُم يَقْتَسِمونَ الغَنَائِم قَد عَلَّقُوا سُيُوفَهُم بِالزَّيتُونَ؛ إذْ صَاحَ فِيهِم الشَّيطَانِ: إنَّ المسِيحَ قَد خَلَفَكُم في أَهْلِيكُم؛ فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ باطلٌ، فإذا جاءوا الشَّام خَرَجَ، فبينما هم يُعدّون للقتال، يُسَوّون الصُّفوفَ؛ إذ أُقيمَت الصَّلاة، فينزلُ عيسى بنُ مريم فَأَمَّهم، فإذا رآه عَدُوُّ اللَّه؛ ذاب كما يذوب المِلْحُ في الماء، فلو تَرَكه لانذابَ حتى يَهلِك، ولكن يقتله اللَّه بيدِه، فيريهم دمهَ في حربتِهِ**»[2].

ح- عن يُسَيْر بن جابر؛ قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجِّيرى إلا: يا عبد اللَّه بن مسعود! جاءت الساعة!!، قال: فقعد- وكان متكئًا- فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث، ولا يُفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا -ونحّاها نحو الشام-، فقال: عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردَّة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت؛ لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٢٥/ ٢٩٠٠).
(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٢١/ ٢٨٩٧).

هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرْطَة، ثم يشترط المسلمون شُرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل؛ فيفيء هؤلاء وهؤلاء؛ كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرطَة، ثم يشترط المسلمون شُرطة للموت؛ لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرطة، فإذا كان يوم الرابع؛ نَهَدَ إليهم بقية الإسلام؛ فيجعل اللَّه الدَّبْرَة عليهم، فيقتتلون مقتلة- إما قال: لا نرى مثلها، وإما قال: لم يُر مثلها-؛ حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم، فما يخلفهم حتى يخر ميتًا؛ فيتعاد بنو الأب كانوا مائة؛ فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقسم؟ فبينما هم كذلك؛ إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ: إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم؛ فيرفضون ما في أيديهم، ويُقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنِّي لأَعْرِف أسماءهُم، وأسْمَاءَ آبَائِهِم وألوان خيولهم؛ هم خَيْرُ فوارسٍ على ظهرِ الأرضِ يومئذ- أو: مِن خيرِ فوارسَ على ظهرِ الأرض يومئذ-**»(١).

خ- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**سَمعْتُم بمدينةٍ؛ جانبٌ منها في البَرِّ، وجانبٌ منها في البحرِ؟**»، قالوا: نعم يا رسول اللَّه! قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يغزوها سَبْعون ألفًا من بني إسحاق، فإذا جاءوها نَزَلوا، فلم يقاتِلوا بسلاحٍ، ولم يرموا بَسهم؛ قالوا: لا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر؛ فيسقط أحدُ جانبيها**- قال ثور بن زيد الدّيلي: لا أعلمه إلا قال: - **الذي في البحر**-، **ثم يقولوا الثانية: لا إلهَ إلا اللَّه، واللَّهُ أكبر؛ يسقط جانبُها الآخرُ، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر؛ فيفرج لهم، فيدخلُوها فَيَغْنَموا، فبينما هم يَقْتسمون المغَانِم؛ إذ جاءهم الصريخُ، فقال: إن الدجالَ قد خَرَج؛ فيتركون كلَّ شيء، ويرجعون**»(٢).

د- عن أبي قَبيل -حييِّ بن هانئ- المعافريِّ، قال: كنا عند عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وسئل: أيّ المدينتين تُفتح أولًا: القسطنطينية، أو رومية؟ فدعا عبد اللَّه بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد اللَّه: بينما نحن حول

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٢٣-٢٢٢٤/ ٢٨٩٩).
(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٣٨/ ٢٩٢٠).

رسول اللَّه ﷺ نكتب؛ إذ سُئل رسول اللَّه: أيُّ المدينتين تفتح أولًا: قسطنطينية، أو رومية؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَدينَةُ هِرَقْل تُفْتَح أوَّلًا**»، يعني: قسطنطينية[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٢٩-٣٣٠)- وعنه ابن أبي عاصم في «الأوائل» (٩٠/ ١١٠)-، والدارمي في «مسنده» (٣/ ٢٧٣/ ٥١٣-«فتح المنان»)، والإمام أحمد (١١/ ٢٢٤-٢٢٥/ ٦٦٤٥)، والطبراني في «الأوائل» (٨٩/ ٦١)، وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن وأشراط الساعة وغوائلها» (٦/ ١١٢٧/ ٦٠٧) عن يحيى بن إسحاق السيلحيني، وابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص١٦٨) عن سعيد بن كثير بن عفير، والحاكم (٤/ ٥٥٥) من طريق عبد اللَّه بن وهب.
ثلاثتهم عن يحيى بن أيوب الغافقي، عن أبي قبيل به.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
قال شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١/ ١/ ٣٣) بعد أن زاد نسبته لعبد الغني المقدسي في «العلم» (٢/ ٣٠/ ١)-: «وهو كما قالا».
قال عبد الغني المقدسي: «حديث حسن الإسناد».
قلت: وهو كما قال؛ للكلام اليسير في يحيى بن أيوب.
وقد أعله المعلقون(!) على «مسند الإمام أحمد -ط الرسالة» بيحيى بن أيوب وأبي قبيل(!!)
ويكفي لردّ تُرّهات هؤلاء، ونقض جهلهم: ما قاله (كبيرهم) في «تحريره على التقريب»، عن يحيى بن أيوب- هذا-: «بل هو صدوق؛ كما قال البخاري، وقد وثقه ابن معين، ويعقوب بن سفيان، وإبراهيم الحربي، والدارقطني. . .» إلخ.
مع أن هؤلاء النابتة الذين اتخذوا من العبث بالسنة النبوية تجارة: كتموا في تعليقهم على «المسند» الكثير من كلام أهل العلم والمتضمِّن تعديل (يحيى) وتوثيقه، ومن أهمها- في نقدي- قول الحافظ ابن عدي: «لا أرى في حديثه إذا روى عنه ثقة، أو يروي هو عن ثقة حديثًا منكرًا فأذكره، وهو عندي صدوق لا بأس به».
لا سيما وابن عدي يعتمد في كلامه على الرواة على سبر رواياتهم وتمحيصها(!)
زد على ذلك: أنهم كتموا: أن الإمام مسلمًا احتج به في «صحيحه»، كما قال (شيخهم) في «تحريره»(!) فأين الأمانة(؟) فوا أسفاه(!!)، فانتظر الساعة.
أما القول في أبي قبيل؛ فأعجب وأغرب؛ فقد قال (منظِّرهم)!! في «تحريره» عنه -متعقبًا قول الحافظ فيه: «صدوق يهم»-: «بل ثقة؛ وثقه يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وأبو زرعة الرازي، وأحمد بن صالح المصري، ويعقوب بن سفيان، والعجلي، وابن حبان، وقال أبو حاتم: صالح. . . ولم يثبت أن يحيى (بن معين) ضعفه؛ كما زعم بعضهم. . .».
قلت: بطانتك وأعوانك في مكتب (التحقيق) من بعضهم(!) فقد قالوا في تسويدهم: «وذكره الساجي في كتابه «الضعفاء» وحكى عن ابن معين: أنه ضعفه!»، فأين أنت عنهم أيّهذا؟! هل هو الجهل؟ أم تغيير الشكل من أجل الأكل؟!

هذه هي الأحاديث النبوية المتواترة التي أخبر فيها رسول الله ﷺ عن انتشار الإسلام، ولم تتحقق بعد، وهي بمجموعها تدل على حقائق منهجية، منها:

أولًا: أن الإسلام سينتشر في جميع أنحاء الأرض، وسيملك أقطارها مُلكًا عزيزًا؛ بدلالة حديث ثوبان عن النبي ﷺ: «**إنّ اللَّهَ زَوى لي الأرضَ؛ فَرَأَيْتُ مشارِقَها ومغارِبها، وإَن أمّتي سَيْبلُغ مُلْكهُا ما زُوي لي منها**».

١- الحديث نصٌّ في سيطرة الإسلام على جميع الكرة الأرضية؛ حيث أخبر رسول الله ﷺ أن ملك المسلمين سيبلغ ما زوي له منها، وقد زُويت كلها لرسول الله ﷺ.

٢- هذا الحديث يشير إلى انتشار الإسلام في جميع العالم؛ لأن السيطرة تستلزم الانتشار.

وقد وردت أحاديث تدل على ذلك دلالة صريحة:

عن تميم الداري، عن النبي ﷺ: «**لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغ الليلُ والنّهارُ، ولا يَتْرُكُ**

كيف لو قرأت قول (منظرهم) هذا في «تحريره»: «ولا خلاف علمناه فيه إلا تضعيف الحافظ ابن حجر له في «تعجيل المنفعة»... إلخ».

إذن؛ ما فائدة إشعار القارئ أن في أبي قبيل ضعفًا؟ لا سيما وأن العلماء- بلا خلاف بينهم - على توثيقه(!) وصنيع من يذكر المضعف لراوٍ ما، وما قيل فيه بأدنى جرح، ويكتم أسماء وأقوال العلماء الموثقين له؟! وهؤلاء (حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام) قرءوا وعرفوا توثيق الإمام أحمد، وأبي زرعة، وابن معين وغيرهم، وقرءوا قول أبي حاتم الرازي- على تشدُّده المعروف في الرجال-: «صالح»[1]، فما جوابهم عنه؟! وما رأيهم فيه؟!

لكنها الحداثة، وحب المشاكسة؛ فقد هدم (كبيركم) كلامكم- بل وكلامه قبلكم- بما سوّدته يداه على «التقريب».

فما قولكم في شيخكم؟ أتسقطونه؛ كما أسقطتم توثيق الأئمة لأبي قبيل، أمَّاذا؟... فماذا أنتم قائلون؟... إنا لمنتظرون... وموعدنا في الذب عن «المسند الإمام» من عبث هؤلاء الأقزام في مصنف مستقلّ -إن شاء الله تعالى-، ويومئذ يفرح طلاب علم الحديث، وتقر أعين علماء أهل السنة.

---

(١) وهي من صيغ التعديل رغم أنوف المتعالمين المتسلقين!

اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ ولا وَبَر إلا أدْخَلَهُ اللَّهُ هذا الدين؛ بعزِّ عَزيزٍ أو بِذُلِّ ذليلٍ؛ عزًّا يعزُّ اللَّهُ به الإسلام، وذُلًّا يذلُّ به الكُفْرَ»[1].

فهذا الحديث الصريح يوضِّح: أن الإسلام سيبلغ مبلغ الليل والنهار، والليل والنهار يعمان كل جزء في هذه الأرض، ويؤكِّد هذا المعنى قوله ﷺ: «**وَلا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أَدْخَله اللَّهُ هذا الدينَ**».

ثانيًا: أن هذا الوعد الصادق واقعٌ ما له من دافع، ويدل عليه ما يأتي:

١- كما تحقق الوعد الأول -بإذن اللَّه وفضله-؛ سيتحقق الوعد الآخر، فالذي حقَّق الأول قادر على أن يحقق الآخر وهو عليه أهون، والذي وعد في الأول فتحقّق ما وعد به، دلالة على صدقه؛ فسيتحقق ما وعد به في الأخرى؛ لأنه وحيٌ يوحى، ووعد اللَّه ورسوله لا يتخلَّف، ولكل نبأ مستقر.

٢- تأكيد رسول اللَّه ﷺ ذلك بشتى أنواع التوكيد؛ كقوله: «**ليبلغن...**»، و«**لا تقوم الساعة...**».

ثالثًا: أن المسلمين سيرجعون إلى دينهم الذي أنزله اللَّه على محمد ﷺ، فيرفع اللَّه الذلَّ عنهم؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: «**إذا تَبايَعْتُم بالعِينَةِ، وأَخَذْتمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرْعِ، وتَرَكْتُم الجِهادَ؛ سَلَّطَ اللَّهُ عليكُم ذُلًّا، لا يَنْزِعهُ؛ حتّى تَرجِعُوا إلى دِينِكُم**»[2].

رابعًا: أن المسلمين سيعودون أقوياء في معنوياتهم وماديَّاتهم وسلاحهم؛ كما دلَّ عليه فتح رومية والقسطنطينية وفيض المال.

خامسًا: أن تكالب الأمم وتداعيها للسيطرة على بلاد الإسلام ومعاقل التوحيد، ستبوء بالفشل الذريع والخسران المبين، ويدل على ذلك:

١- قوله ﷺ: «**... وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهم عَدُوًّا من سوى أنفُسِهم؛ يستبيحُ بيضَتهم،**

---

(١) «الصحيحة» (٣).

(٢) مضى تخريجه (ص ١١٥).

ولو اجتَمع عليهم مَن بأقطارها -أو قال: **من بَيْنِ أَقطارها**-، **حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِكُ بعضًا، وَيَسبي بَعْضُهم بَعْضًا**».

٢- وبدلالة أن الإسلام سيغزو أوربا، ويفتح دولها؛ بدلالة حديث فتح رومية والقسطنطينية.

سادسًا: المنهج الذي سيحقق ذلك هو ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه: منهج العبودية والاتباع، والتوحيد والسنة؛ بدلالة أحاديث قتال اليهود: «**يا مسلم! يا عبد اللَّه!...**»، وحديث الفتح الثاني للقسطنطينية: «**سمعتم بمدينة جانب منها في البر...**».

فهذه الأحاديث تدل على تمكُّن التوحيد والسنة في قلوب ذلك الجيل؛ الذي تربَّى على العبودية والطاعة.

فأصبحت الكلمة الطيبة سلاحًا يفتح البلدان، ويكسر الصلبان؛ فيدخل الناس في دين اللَّه أفواجًا (!)

ثالثًا: الأحاديث التي بشَّر فيها رسول اللَّه ﷺ بأن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

١- حديث الخلافة الراشدة، ودلالته على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: كنا قعودًا في المسجد، وكان بشير رجلًا يكفُّ حديثه، فجاء أبو ثَعلبة الخشني، فقال: يا بشير بن سعد! من يحفظ حديث رسول اللَّه ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته؛ فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تكونُ النُّبوةُ فِيكم ما شاءَ اللَّهُ أن تكونَ، ثم يَرْفعُهَا اللَّهُ إذا شاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثمَّ تكُونُ خِلافةٌ على مِنْهَاجِ النُّبوَّةِ، فَتَكُون ما شاءَ اللَّهُ أنْ تَكُون، ثمَّ يَرفعُهَا إذا شَاءَ أنْ يَرفَعَهَا، ثمَّ تكونُ مُلكًا عاضًّا**[1]**، فتَكُونُ ما شَاءَ اللَّهُ أن تكُونَ، ثم يَرْفَعُها إذا شَاءَ أن يَرْفَعَهَا،**

(١) وراثيًّا يتكادمون عليه تكادم الحمير.

ثمَّ تكونُ مُلْكًا جبريًّا[١]، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ تكونَ، ثمَّ يرفَعُهَا إذا شَاءَ أن يرفَعَها، ثم تكُونُ خِلافةٌ على مِنْهَاجِ النُّبوَّةِ»، ثم سكت[٢].

قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز -وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته-؛ فكتبت إليه بهذا الحديث أُذكِّره إيَّاه، فقلت له: إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين -يعني: عمر -بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز؛ فُسر به، وأعجبه.

فقه الحديث:

أولًا: تحديد مراحل الحكم التي تمر على الأمة الإسلامية، وهي كالآتي:

١- مرحلة النبوة؛ ورفعت بانتقال رسول اللَّه ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

٢- خلافة النبوة، وهي مدة خلافة الأربعة الراشدين- أبي بكر، وعمر، وعثمان،

---

(١) قهريًّا يسوق الناس بعصاه؛ يملأ الدنيا جورًا وظلمًا.

(٢) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (١/ ٣٤٩-٣٥٠/ ٤٣٩)-، وعنه أحمد (٣٠/ ٣٥٥-٣٥٦/ ١٨٤٠٦) -ومن طريقه الحافظ العراقي في «محجة القرب إلى محبة العرب» (١٧٥-١٧٦/ ٨٤)-، والبزار في «البحر الزخار» (٧/ ٢٢٣-٢٢٤/ ٢٧٩٦)- عن داود بن إبراهيم الواسطي، عن حبيب بن سالم، عن النعمان به.
قال العراقي: «هذا حديث صحيح وداود بن إبراهيم[١]: سكن البصرة، وثقه أبو داود الطيالسي وابن حبان، وباقي رجاله محتج بهم في الصحيح».
قال شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١/ ١/ ٣٥): «لكن حبيبًا -هذا- قال فيه البخاري: «فيه نظر»، وقال ابن عدي: «ليس في متون أحاديثه حديث منكر، بل قد اضطرب في أسانيد ما يروى عنه».
إلا أن أبا حاتم، وأبا داود، وابن حبان: وثقوه؛ فحديثه حسن على أقل الأحوال -إن شاء اللَّه تعالى-، وقد قال فيه الحافظ: «لا بأس به».
قلت: وهو كما قال.
وله شاهد من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما بنحوه: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ رقم ١١١٣٨).
وسنده جيد؛ كما فصّله شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٧/ ٢/ ٨٠٢-٨٠٣/ ٣٢٧٠).

---

(١) في «الأصل الخطي»: «إبراهيم بن داود» على القلب، وصوّبه محققه -جزاه اللَّه خيرًا-.
قال شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا مقلوب، والصواب: (داود بن إبراهيم)، ولست أدري هل هو مني، أمْ مَنَ العراقي؟ فإن كتابه ليس في متناول يدي الآن».
قلت: رحم اللَّه شيخنا! ما أثبته وأدق نظره، لقد أتعب من بعده.

وعلي ﵃، وهي ثلاثون سنة؛ لحديث سفينة مولى رسول اللَّه ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «خِلَافَةُ النُّبُوةِ ثلاثون سَنَةً، ثم يؤتي اللَّهُ الملكَ -أو: ملكه- من يشاء».

قال سفينة -كما عند أبي داود، والترمذي، وأحمد، وابن أبي عاصم، وغيرهم-: «أَمْسِكْ خِلافَةَ أَبِي بَكْرٍ ﵁ سَنَتَيْنِ، وَخِلافَةَ عُمَر ﵁ عَشْرَ سِنِينَ، وَخِلافَةَ عُثْمَان ﵁ ثِنْتَي عَشرة سَنَةً، وَخِلَافَة عليٍّ سِتَّ سِنِينَ»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «واعتمد عليه الإمام أحمد وغيره في تقرير خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة، وثبَّته أحمد، واستدل به على من توقف في خلافة علي؛ من أجل افتراق الناس عليه؛ حتى قال أحمد: من لم يربع بعليٍّ في الخلافة؛ فهو أضل من حمار أهله، ونهى عن مناكحته، وهو متفق عليه بين علماء السنة وأهل المعرفة، والتصوف، وهو مذهب العامة.

وإنما يخالفهم في ذلك بعض أهل الأهواء من أهل الكلام، ونحوهم؛ كالرافضة الطاعنين في خلافة الثلاثة، أو الخوارج الطاعنين في خلافة الصهرين المنافيين -عثمان وعلي-، أو بعض الناصبة النافين لخلافة علي، أو بعض الجهَّال من المتسنِّنة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦و٤٦٤٧) -واللفظ له-، والترمذي (٢٢٢٦)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٥٢)، وابن حبان (٦٦٥٧و٦٩٤٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٣٤٩)، وأحمد (٥/ ٢٢٠و٢٢١)، وابنه عبد اللَّه في «زوائده على الفضائل» (٧٩٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٨١)، والطيالسي (١١٠٧)، والطبراني في «الكبير» (٦٤٤٢)، والحاكم (٣/ ٧١و١٤٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣٤١و ٣٤٢)، والطبري في «صريح السنة» (٢٦)، وغيرهم من طرق عن سعيد بن جمهان، عن سفينة به.
قلت: إسناده حسن؛ لأن سعيدًا مختلف فيه، وقد وثقه جماعة؛ منهم: ابن معين، وأحمد وأبو داود، وقال الحافظ في «التقريب»: «صدوق، له أفراد»، فمثله حسن الحديث.
وقال ابن أبي عاصم: «حديث ثابت من جهة النقل».
وصححه ابن حبان، والحاكم، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٨٤)، والذهبي.
وقال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٨): «وهو حديث مشهور».
وله شاهد من حديث أبي بكرة ﵁ بنحوه: أخرجه أبو داود (٤٦٣٤-٤٦٣٥)، والترمذي (٢٢٨٧)، وأحمد (٥/ ٤٤، ٥٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٣٣٥)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٣٤٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣٤٢، ٣٤٨).
قلت: إسناده ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان ضعيف؛ لكن يعتبر به.
وصححه بشواهده شيخنا ﵀ في «الصحيحة» (١/ ٨٢٣/ ٤٥٩).

الواقفين في خلافته.

ووفاة النبي ﷺ كانت في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من هجرته، وإلى عام ثلاثين سنة كان إصلاح ابن رسول الله ﷺ الحسن بن علي- السيد- بين فئتين من المؤمنين بنزوله عن الأمر، عام إحدى وأربعين في شهر جمادى الأولى، وسمي: «عام الجماعة»، لاجتماع الناس على معاوية، وهو أول الملوك»[1].

قال شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «... رأيت بعض المتأخرين ممن ليس له قدم راسخة فيه ذهب إلى تضعيفه؛ منهم: ابن خلدون المؤرخ الشهير، فقال في «تاريخه» (٢/ ٤٥٨- طبع فاس بتعليق شكيب أرسلان) -ما نصه-: «وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدولة الخلفاء وأخبارهم، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة، ولا ينظر في ذلك إلى حديث: «**الخِلَافَةُ ثَلَاثُونَ سَنَةً**»، فإنه لم يصح، والحقيقة أن معاوية في عداد الخلفاء ...».

وتبعه على ذلك العلامة أبو بكر بن العربي، فقال في «العواصم من القواصم» (ص٢٠١): «وهذا حديث لا يصح».

هكذا أطلق الكلام في تضعيفه؛ دون أن يذكر علته، وليس ذلك من الأسلوب العلمي في شيء، لا سيما وقد صححه من عرفت من أهل العلم قبله.

ولقد حاول صديقنا الأستاذ محب الدين الخطيب: أن يتدارك الأمر ببيان العلة، فجاء بشيء لو كان كما ذكر؛ لوافقناه على التضعيف المذكور ...

وقد أعلَّه الأستاذ الخطيب -أيضًا- بعلة أخرى في متنه، فقال: «وهذا الحديث المهلهل يعارضه ذلك الحديث الصحيح الفصيح في كتاب الإمارة من «صحيح مسلم» ... عن جابر بن سمرة قال: «دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: «**إِنَّ هذا الأمر لا يَنْقَضِي حتَّى يَمْضِيَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كلُّهم من قُرَيْشٍ**»».

وهذه المعارضة مردودة؛ لأن من القواعد المقرَّرة في علم المصطلح: أنه لا يجوز

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٨).

ردُّ الحديث الصحيح بمعارضته لما هو أصح منه، بل يجب الجمع والتوفيق بينهما، وهذا ما صنعه أهل العلم هنا، فقد أشار الحافظ في «الفتح» (١٣/ ١٨٢) نقلًا عن القاضي عياض إلى المعارضة المذكورة، ثم أجاب أنه أراد في حديث سفينة خلافة النبوة، ولم يُقيّد في حديث جابر بن سمرة بذلك.

قلت: وهذا الجمع قوي جدًّا، ويؤيده لفظ أبي داود: «**خلافة النبوة ثلاثون سنة...**»، فلا ينافي مجيء خلفاء آخرين بعدهم؛ لأنهم ليسوا خلفاء النبوة، فهؤلاء المعنيّون في الحديث لا غيرهم، كما هو واضح.

ويزيده وضوحًا: قول شيخ الإسلام في رسالته السابقة: «ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء، وإن كانوا ملوكًا ولم يكونوا خلفاء الأنبياء؛ بدليل ما رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»: عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**كَانت بَنُو إسْرَائيلَ تَسُوسُهم الأنبياءُ، كلّما هلك نبيٌّ؛ خلفه نبيٌّ، وإنّه لا نَبيّ بعدي، وستكون خلفاءُ فتكثر**». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**فُوا ببيعةِ الأول فالأول، وأعطوهم حقَّهم؛ فإن اللَّه سائلهم عما استرعاهم**».

فقوله: «فتكثر»: دليل على من سوى الراشدين؛ فإنهم لم يكونوا كثيرًا.

وأيضًا قوله: «**فُوا ببيعة الأُوَّلِ فالأَوَّل**»: دلّ على أنهم يختلفون، والراشدون لم يختلفوا»[1].

٣- مرحلة الملك العضوض، وتبدأ بخلافة بني أمية:

عن عبداللَّه بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**تدورُ رحى الإسلامِ على خمسٍ وثلاثين، أو سِتٍّ وثلاثين، أو سبع وثلاثين؛ فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم: يقم لهم سبعين عامًا**»، قلت: (وفي رواية: قال عمر: يا نبي اللَّه!) مما بقي أو مما مضى؟ قال: «**مما مضى**»[2].

---

(١) «الصحيحة» (١/ ٨٢٤-٨٢٧).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٢٥٤)، وأحمد (١/ ٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٣-٣٩٥، ٤٥١)، وأبو يعلى (٥٠٠٩، ٥٢٨١، ٥٢٩٨) والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٦٠٩-١٦١٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٢٢٥)، =

قوله ﷺ: «تَدُورُ رَحَى الإِسْلام»، إعلام ببداية النهاية لمرحلة الخلافة الراشدة، وبدء القتال والحروب الداخلية.

قال الخطابي في «معالم السنن»: «دوران الرحى: كناية عن الحرب والقتال، شبّهها بالرَّحى الدائرة التي تطحن الحب؛ لما يكون فيها من تلف الأرواح وهلاك الأنفس».

وقال الخطيب البغدادي: «مثلٌ، يريدُ أنّ هذه المدة إذا انتهت حدث في الإسلام أمر عظيم، يُخاف لذلك على أهله الهلاك، يقال للأمر إذا تغير واستحال: قد دارت رحاه، وهذا -والله أعلم- إشارة إلى انقضاء مدة الخلافة»[1].

قوله ﷺ: **«إنه بعد خمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين»**، ليس على الشك.

قال الطحاوي: «إنه ليس على الشك؛ ولكن على أن يكون ذلك فيما يشاؤه الله ﷻ من تلك السنين؛ فشاء ﷻ أنه كان في سنة خمس وثلاثين، فتهيأ فيها على المسلمين حصر إمامهم، وقبض يده عما يتولّاه عليهم مع جلالة مقداره- لأنه من الخلفاء الراشدين المهديِّين-؛ حتى كان ذلك سببًا لسفك دمه -رضوان الله عليه-، وحتى كان ذلك سببًا لوقوع الاختلاف وتفرق الكلمة، واختلاف الآراء، فكان ذلك مما لو هلكوا عليه، لكان سبيل مهلك لعظمه، ولما حلّ بالإسلام منه؛ لكن الله ستر وتلافى، وخلف نبيه في أمته من يحفظ دينهم عليهم، ويبقى ذلك لهم.

ثم تأملنا ما بقي من هذه الآثار؛ فوجدنا في حديث مسروق -منها- عن عبدالله:

= والطيالسي (٣٨٣)، والخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٥٤٩)، ويعقوب بن سفيان الفسوي في «المعرفة والتأريخ» (٣/ ٣٥٥)، والحاكم (٤/ ٥٢١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣٩٣)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣١١، ١٠٣٥٦)، وابن الأعرابي في «المعجم» (٨٣٤-٨٣٦، ١٤٦٩-١٤٧٢)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٩٦/ ٢٩٠) من طرق عن عبدالله بن مسعود.

قلت: وهو صحيح؛ صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال شيخنا رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٩٧٦): «هذا حديث صحيح، من معالم نبوته ﷺ».

(١) «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٩٧).

«فإن يصطلحوا فيما بينهم على غير قتال؛ يأكلوا الدنيا سبعين عامًا رغدًا»، ووجدنا مكان ذلك في حديثي عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، والبراء بن ناجية: «فإن يبق لهم دينهم؛ فسبعين عامًا»، وكان ذلك قد جاء مختلفًا في حديث مسروق، وحديثي صاحبيه، فكان ما في حديث مسروق أولاهما وأشبههما بما جرت عليه أمور الناس مما في حديثي الآخرين؛ لأن الذي في حديث مسروق: «فإن يصطلحوا بينهم على غير قتال؛ فتكون المدة التي يأكلون الدنيا فيها كذلك سبعين عامًا، ثم تنقطع، فلا يأكلونها بعدها»، ولكن جرت أمورهم على غير ذلك، مما لم ينقطع معهم القتال، فكان ذلك رحمة من الله لهم، وسترًا منه عليهم، فجرى على ذلك أن يأكلوا الدنيا بلا توقيت عليهم فيه، وكان ما في حديثي عبدالرحمن بن عبدالله والبراء بن ناجية: يوجب خلاف ذلك، ويوجب انقطاع أكلهم الدنيا بعد ذلك سبعين عامًا، وقد وجدناهم بحمد الله ونعمته أكلوها بعد ذلك سبعين عامًا وزيادة على ذلك، ودينهم قائم على حاله، فعقلنا بذلك: أن أصل الحديث في ذلك كما رواه مسروق فيه، لا كما رواه صاحباه؛ لأنه لا خُلف لما يقوله ﷺ والله نسأله التوفيق»[1].

٤- مرحلة الملك الجبري، وتبدأ -والله أعلم- بسقوط الخلافة الإسلامية في مطلع القرن العشرين الإفرنجي.

وهي مرحلة تملأ الأرض جورًا وظلمًا؛ ولكن الباطل زاهق، فستُملأ -إن شاء الله- عدلًا، ولتعلمنَّ نبأه بعد حين.

٥- مرحلة خلافة على منهاج النبوة.

وهذه المرحلة تبدأ -بإذن الله- قبل ظهور المهدي ونزول عيسى عليه السلام؛ يدل على ذلك أمور:

أ- قوله ﷺ: **«يَكُونُ خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَائكُمْ في آخِرِ الزَّمَانِ، يَحْثُو المَالَ ولا يَعُدُّهُ»**[2].

---

(١) «شرح مشكل الآثار» (٤/ ٢٩٣-٢٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩١٤/ ٦٧).

فهذا الحديث يشير إلى أن المهدي خليفة من الخلفاء في آخر الزمان، الذين يحكمون بالكتاب والسنة على منهاج النبوة، ولما كان المهدي من آخرهم، وليس بعده إلا المسيح بن مريم عليه السلام؛ فقد ثبت أن قبله خلفاء.

ب- المهدي يمثل قمة الإصلاح الديني في آخر الزمان؛ حيث يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، ومن المعلوم بداهة أن هذا المستقبل الزاهر لا يتحقق جملة، بل بالتدريج على سنن اللَّه الجارية في التغيير؛ فلذلك لا بد من وجود مصلحين سابقين، يُوطئون للمهدي قمة إصلاحه وحكمه، واللَّه أعلم[1].

بصيرة:

ثانيًا: لقد تبيَّن أن المستقبل لهذا الدين؛ ولكن ما هي معالم هذا المنهج الذي سيأخذ بيد المسلمين إلى مستقبلهم الزاهر، وتقدُّمهم الباهر، وانتصارهم القاهر لأعداء اللَّه -بإذن اللَّه-؟

١- إنه منهج على أثر صحابة رسول اللَّه ﷺ، يدل على ذلك أمور:

الأول: أن مستقبل الإسلام يتحقق بإعادة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة؛ كما هو صريح حديث حذيفة.

الثاني: أن الذي حقق مجد الإسلام؛ هو: الخلافة الراشدة التي جاءت بعد النبوة، وكانت على منهج النبوة -نفسه-.

الثالث: أن رسول اللَّه ﷺ أخبر بخلافة راشدة بعد النبوة، وبخلافة راشدة على منهاج النبوة في آخر الزمان، فتبين: أن مستقبل الإسلام كماضي الإسلام: انتصارٌ، وازدهارٌ، وانتشارٌ.

الرابع: أن الذي حقق الخلافة الراشدة بعد النبوة هم أصحاب رسول اللَّه ﷺ ومن تبعهم، إذن؛ فالذي يعيد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة هم من كانوا على منهج

---

(١) وانظر (ص: ١٧٨-١٧٩).

السلف الصالح من الصحابة ومن تبعهم.

فتبين: أن من يأتي ليحقِّق مستقبل الإسلام هم من كانوا على منهج الصحابة ﭫ.

٢- أنه منهج إصلاحي تربوي؛ يدل على ذلك أمور:

الأول: أن منهج الصحابة الذين حققوا الخلافة الراشدة بعد النبوة تربوي إصلاحي، إذن؛ فمنهج الذين يحققون الخلافة الراشدة على منهاج النبوة إصلاحي تربوي.

الثاني: أن خطاب الحجر -أو الشجر- للجيل الذي يحقق الخلافة الراشدة على منهاج النبوة يدل على أن منهجهم إصلاحي تربوي: يا مسلم! يا عبد اللَّه! ولن تتحقق عبودية اللَّه في النفس البشرية إلا بإصلاح وتربية.

الثالث: أن استخلاف المؤمنين، والتمكين للدين في الأرض: ثمرة للإصلاح والتربية؛ كما جاء ذلك صريحًا في قوله -تعالى-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وعد اللَّه المؤمنين بالاستخلاف في الأرض، وبالتمكين لدينهم الذي ارتضى لهم فيها، وأن يبدِّلهم من بعد خوفهم أمنًا وهو وعد واقع ما له من دافع، ووعد صادق غير مكذوب؛ لأنه وعد اللَّه، ووعد اللَّه حق، ولن يخلف اللَّه الميعاد: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

والاستخلاف وعد من اللَّه للعصبة المؤمنة في كل عصر؛ فهي سنة من سنن اللَّه، ولن تجد لسنة اللَّه تبديلًا، ولن تجد لسنة اللَّه تحويلًا؛ ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وبداية الاستخلاف وآية فهمه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

أما التمكين بداية الاستخلاف؛ فإن التمكين للدين في تصريف شئون الحياة

وتدبيرها والهيمنة عليها؛ لا يتم إلا بتمكنه في القلوب، فإذا تمكن الدين في قلوب دعاته، وتغلغل في دقائق تصرفاتهم؛ فاعلم -عندئذ- أن وعد اللَّه قريب.

وأما أن التمكين آية فهم الاستخلاف؛ فإن الاستخلاف يكون لعمارة الأرض على منهج اللَّه، والانتفاع بكل ما أودعه اللَّه فيها من التوجه بكل ذلك إلى اللَّه، فالمؤمنون عندما يتمكَّن الدين من نفوسهم قبل أرضهم أمروا بالإصلاح والعدل، واستعلوا على شهوات الأرض، وساروا بالبشرية خطوات؛ ليحققوا منهج اللَّه الذي أراد، ولذلك: فهم ينشرون الأمن ويجتثُّون البغي والجور، فيكون مجتمعهم واحة أمن وأمان، وسكينة وطمأنينة وإيمان.

وهنا يبرز أثر العبودية للَّه من قبل الاستخلاف والتمكين وبعده في قول اللَّه -سبحانه- في الآية نفسها، تعليلًا للاستخلاف والتمكين والأمن ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، فهل تحقيق العبودية يكون بعد الاستخلاف والتمكين؟!

والجواب بلا خلاف: أن تحقيق العبودية سبب الاستخلاف والتمكين.

إن للاستخلاف والتمكين تكاليف في ذات النفس وفي واقع الحياة.

للاستخلاف والتمكين تكاليفه في عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده، والتهاون في أمر اللَّه.

إن ثبات القلوب على الحق بعد التمكين منزلة فوق الاستخلاف والتمكين فهي التي تحميه وتحرسه وهذه هي الحقيقة التي نطق بها القرآن: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠و٤١].

إنه ثبات على المنهج بعد الاستخلاف والتمكين؛ كما ثبتوا عليه من قبل، وهم يُلاقون أشد أنواع الابتلاء على يد الكافرين.

وبه يتبين: أن العبودية سبب الاستخلاف والتمكين؛ فقد وصفهم اللَّه بالإيمان والعمل الصالح قبل الاستخلاف والتمكين، وهي غاية الاستخلاف والتمكين التي

وصفهم اللَّه بها، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وأظهر اللَّه نبيه ومكَّن لدينه فكانوا آمنين، ولقد تحقق وعد اللَّه مرة، وسيظل متحققًا وواقعًا؛ ما قام المسلمون على شرط اللَّه ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾.

إن العبودية حقيقة ضخمة، لا بد من أن يحققها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد اللَّه، ولا بد أن يبحث عن مصداقها في الحياة الإسلامية، وهو يدرك شروطها؛ قبل أن يتشكَّك، أو يرتاب، أو يستبطئ وقوعها.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على منهج اللَّه ليكون الدين كله للَّه؛ إلا تحقق وعد اللَّه بالاستخلاف، والتمكين والأمن ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

وإذا كانت العبودية للَّه سبب استخلاف وتمكين جيل القدوة الأول -محمد ﷺ والذين معه-؛ فهي استخلاف وتمكين الطائفة المنصورة الذين هم على ما كان عليه محمد ﷺ والذين معه، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

لقد ظهر يقينًا -ورأينا عيانًا- أن المنهج المؤَهَّل لإعادة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، وتحقيق مستقبل الإسلام المنشود، وقطع دابر يهود، واستئصال شأفة كل عدو لدود؛ هو: منهج السلف الصالح -المعهود-.

قد هيئوك لأمرٍ لو فطِنتَ له فاربأ بنفسك أن تَرْعَى معَ الهَمَلِ

* * *

أحاديث غربة الإسلام ودلالتها على مستقبل الإسلام بمنهج السلف الكرام

قال ﷺ: «إِنَّ الإِسلام بَدَأَ غَريبًا، وَسَيعودُ غَريبًا كَمَا بَدَأ، فطوبى للغُرباء»[1].

ووجه الدلالة على مستقبل الإسلام بمنهج السلف الكرام من وجوه متعدِّدة:

١- أن الإسلام بدأ غريبًا، ثم انتشر وانتصر، وتحقق فتح بلدان كثيرة، أخبر عنها رسول اللَّه ﷺ، كبلاد الشام، والعراق، ومصر، واليمن، وغيرها.

٢- أن الإسلام سيعود غريبًا، والغربة الثانية بين أهله ودعاته، ولكن اللَّه يبعث من يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها؛ كما في حديث التجديد، ولذلك لن يبقى غريبًا ذليلًا في الأرض إلى آخر الدين؛ فلا بد من الانطلاقة الثانية الكبرى بعد الغربة الثانية، كما كانت الانطلاقة الأولى بعد الغربة الأولى.

٣- قوله ﷺ: «فَطُوبَى لِلغُرَبَاء»، يدل عليه حديث الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة؛ وهو: منهج السلف الصالح ﷺ، فالمستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

٤- ما ثبت من تفسيره للغرباء، وقد ثبت تفسيران[2]:

الأول: «الذين يصلحون إذا فسد الناس».

---

(١) متواتر: كما بينته في كتابي «الغربة والغرباء» (ص١١-٣١)، وممن نص على تواتره: السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص١١٤)، والسيوطي في «تدريب الراوي» (٢/ ١٨٠)، والكتاني في «نظم المتناثر» (ص٣٤-٣٥)، وعده عبداللَّه بن محمد صديق الغماري في تعليقاته على «المقاصد الحسنة» (ص١١٤) متواترًا.

(٢) انظر: «الغربة والغرباء» (ص٣٣).

الثاني: «أُنَاسٌ صالحون في أُناسِ سَوْءٍ كثير، مَن يَعْصِيهم أَكْثَرُ ممن يُطِيعهُم»[١].

إذن، منهج الغرباء إصلاحي تربوي، فهم صالحون مصلحون، وهذا هو منهج الصحابة الكرام ﷺ يدل على ذلك أمور:

أ- أن منهج الصحابة الذين حققوا الخلافة الراشدة بعد النبوة تربوي إصلاحي: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وقد مكّن اللَّه لهم دينهم، واستخلفهم في الأرض، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنًا؛ فدل ذلك على صحة المنهج السلفي الذي كان عليه الصحابة ﷺ، هو تربوي إصلاحي، قائم على عبادة اللَّه وتوحيده؛ كما في آية التمكين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ب- أن خطاب الحجر والشجر للجيل الذي يحقق الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، ويقاتل آخرهم الدجال؛ يدل على أنه منهج تربوي إصلاحي: يا مسلم! يا عبد اللَّه! ولن تتحقق عبودية اللَّه في النفس البشرية إلا بإصلاح وتربية.

ت- أن الإصلاح والتربية والعلم والتزكية منهج الأنبياء، وهو كذلك منهج ورثتهم، والطائفة المنصورة وعلماؤها ورثة محمد ﷺ وصحبه ﷺ، فهذا يدل دلالة واضحة على أن المستقبل للإسلام؛ لكن بمنهج السلف الكرام.

* * *

(١) المرجع السابق (ص٣٤).

حديث التجديد ودلالته على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

عن أبي هريرة ﷺ، قال: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ، قال: **«إنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لهذه الأمةِ على رأْسِ كُل مِائَة سنةٍ من يُجَدِّدُ لها دينَهَا»**(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ١٠٩/ ٤٢٩١)- ومن طريقه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها» (٣/ ٧٤٢-٧٤٣/ ٣٦٤)، وابن عساكر في «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» (ص٥١)-، والبزار في «البحر الزخار»، كما في «التنبئة فيمن يبعث على رأس كل مئة» (ق٢/ أ)، وسَمُّويه في «فوائده» -ومن طريقه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٢/ ٦١-٦٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٧١-٢٧١-٢٧٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٢/ ٤١٣)، والحافظ ابن حجر في «توالي التأنيس لمعالي ابن إدريس» (ص٤٥-٤٦)-، والحسن بن سفيان في «مسنده»، كما في «توالي التأنيس» (ص٤٦)-ومن طريقه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٥٣)-، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (١/ ١٢٣)- ومن طريقه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (١/ ١٢٣/ ١٢٤)، وابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» (ص٥١-٥٢)-، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٦٥٢٧)، والحاكم (٤/ ٥٢٢)، والهروي في «ذم الكلام» (٤/ ٢٦٤/ ١١٠٧)- ومن طريقه ابن حجر في «توالي التأنيس» (ص٤٦) -من طرق عن عبداللَّه بن وهب، عن سعيد بن أبي أيوب، عن شراحيل بن يزيد المعافري، عن أبي علقمة المصري الهاشمي، عن أبي هريرة به.

قال الطبراني: «لا يروى هذا الحديث عن رسول اللَّه ﷺ إلا بهذا الإسناد، تفرد به: ابن وهب».

قلت: وهو ثقة حافظ؛ فلا يضر تفرده، وباقي رجاله ثقات.

قال شيخنا الإمام الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢/ ١٤٨): «سكت عليه الحاكم والذهبي، وأما المناوي؛ فنقل أنه صححه، فلعله سقط من النسخة المطبوعة من «المستدرك»، والسند صحيح؛ رجاله ثقات رجال مسلم.

ووقع عند الحاكم والهروي مكان (شراحيل): (شرحبيل)، ولا أراه محفوظًا، وقد أشار إلى ذلك الحافظ في ترجمة: (شرحبيل بن شريك) من «التهذيب». واللَّه أعلم».

وقال الزين العراقي؛ كما في «التنبئة فيمن يبعث على رأس كل مائة» (ق٢/ أ)، و«مرقاة الصعود على سنن أبي داود» (ق١٨٩/ ب)، و«فيض القدير» (٢/ ٢٨٢): «سنده صحيح».

وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة»(ص٢٠٣): «وسنده صحيح، ورجاله كلهم ثقات».

وقال السيوطي في «التنبئة» (ق٢/ أ): «اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح... وأما المتقدمون؛ فكلهم

لهجوا بذكر هذا الحديث».
ورمز لصحته في «الجامع الصغير».
وقال في «مرقاة الصعود» (ق١٨٩/ ب): «اتفق الحفاظ على تصحيحه؛ منهم: الحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «المدخل».
وممن نص على صحته من المتأخرين: الحافظ ابن حجر».
وقال المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٢٨٢): «بإسناد صحيح».
وقال- عقبه-: «. . . وأخرجه ابن عدي في مقدمة «الكامل» من رواية عمرو بن سوَّاد، وحرملة، وأحمد بن عبد الرحمن بن وهب- ابن أخي وهب-؛ كلهم عن عبد اللّه بن وهب بهذا الإسناد.
قال ابن عدي: لا أعلم رواه غير[1] ابن وهب، عن سعيد بن أبي أيوب، ولا عن ابن وهب غير هؤلاء الثلاثة.
قلت (الحافظ): ورواية عثمان بن صالح، والأصم، وأبي الربيع ترد عليه؛ فهم ستة أنفس رووه عن ابن وهب.
قال أبو بكر البزار: «سمعت عبد الملك بن عبد الحميد الميموني يقول: كنت عند أحمد بن حنبل، فجرى ذكر الشافعي؛ فرأيت أحمد يرفعه، وقال: روي عن النبي ﷺ يقول: «**إنّ اللّهَ- تعالى- يُقَيِّضُ في رأس كلّ مائة سنة من يعلمُ النَّاسَ دينَهم**».
فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى».
وقال ابن عدي: سمعت محمد بن علي بن الحسين يقول: سمعت أصحابنا يقولون: «كان في المائة الأولى عمر بن عبد العزيز، وفي المائة الثانية محمد بن إدريس الشافعي».
وقد سبق أحمد ومن تابعه إلى عدّ عمر بن عبد العزيز في المائة الأولى: الزهري؛ فأخرج الحاكم من طريق أحمد بن عبد الرحمن بن وهب- عقب روايته عن عمه عن سعيد بن أبي أيوب- الحديث المذكور.
قال ابن أخي ابن وهب: قال عمي: [حدثنا] يونس، عن الزهري؛ أنه قال: فلما كان في رأس المائة، منَّ اللّه على هذه الأمة بعمر بن عبد العزيز.
قلت (الحافظ): وهذا يشعر بأن الحديث كان مشهورًا في ذلك العصر؛ ففيه تقوية للسند المذكور؛ مع أنه قوي لثقة رجاله» اهـ بطوله.
تنبيه:
١- قال أبو داود -صاحب «السنن»- عقبه: «رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني لم يَجُزْ به شراحيل».
وقال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٦/ ١٦٣): «وعبد الرحمن بن شريح الإسكندراني ثقة، اتفق البخاري ومسلم على الاحتجاج بحديثه، وقد عضل الحديث».
وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: «وسعيد الذي رفعه أولى بالقبول؛ لأمرين:
أحدهما: أنه لم يختلف في توثيقه، بخلاف عبد الرحمن؛ فقد قال فيه ابن سعد: «إنه منكر الحديث».
والثاني: أن معه زيادة علم على من قطعه».

(١) في المطبوع من «توالي التأنيس» (ص٤٦): (عن!)، والتصويب من «الكامل»، وبه يستقيم المعنى.

حديث التجديد يدل دلالة واضحة لا لَبْسَ فيها، وصريحة لا غموض يعتريها، وبيِّنة لا غبش يأتيها -ليلها كنهارها، لا ينكرها إلا هالك، أو أعمى لا يرى النور في رائعة النهار- على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام:

وهو يدل على ذلك من وجهين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل:

١- استمرار التجديد، حتى يظهر الإسلام على الدين كله.

٢- لا يخلو زمان من طائفة تجدِّد الدين حتى يأتي أمر اللَّه؛ بإتمام نوره، وكبت الباطل وشروره.

أما المفصَّل:

١- تأكيد ذلك بـ(إن) التي تفيد التوكيد، وأن هذا كائن لا محالة؛ كما نطق بذلك الكتاب الكريم، وشهد عليه الرحمن الرحيم.

٢- استمرار بعث المجدِّدين جيلًا فجيلًا؛ لأن الحق سلسلة ذهبية مترابطة الحلقات، متراصة الصفوف، منضبطة الأحكام، دقيقة الإحكام، لا يعتريها زيغ، ولا يفسدها تردد، ولا يقطعها انحراف؛ بل الثبات نورها، والهدى سبيلها، والصواب واسطة عقدها.

ويستمر التجديد في أئمة السلف، ويرثوه كابرًا عن كابر، وتسليم كف بكف.

وهذا ما تدل عليه الآيات القرآنية الدالة على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف

= وقال شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يعلل الحديث قول أبي داود عقبه... (وذكره)، وذلك لأن سعيد ابن أبي أيوب ثقة ثبت -كما في «التقريب»- وقد وصله وأسنده؛ فهي زيادة من ثقة يجب قبولها».

٢- قال المنذري: «لم يجزم- يعني: أبا علقمة- برفعه».

قلت: قال السخاوي: «وقوله: فيما أعلم؛ ليس يشك في وصله، بل قد جعل وصله معلومًا له».

وقال شمس الحق العظيم آبادي في «عون المعبود» (١١/ ٣٩٧): «نعم؛ لكن مثل ذلك لا يقال من قبل الرأي، إنما هو من شأن النبوة؛ فتعين كونه مرفوعًا إلى النبي ﷺ».

الكرام، وكذلك أحاديث الطائفة المنصورة والفرقة الناجية؛ حذو القذة بالقذة.

٣- أن اللَّه تكفَّلَ باستمرار ذلك كله وهذا يقتضي ظهوره على الدين كله؛ لأن ما تكفل اللَّه به فلا ضيعة عليه، فاللَّه متمّ نوره، ولو كره المشركون.

٤- هذه الأمة المرحومة هي التي تسير على منهج السلف الصالح؛ فهي الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، يدل على ذلك أمران:

أ- قوله ﷺ: «**هذه الأمة**»، أشار إلى أصحابه ومن سلك سبيلهم، وسار على منهجهم.

ب- قوله: «**دينها**»، فإسناد الدين إليها وهو دين اللَّه، يدل على أنهم هم القائمون الظاهرون عليه، وهؤلاء هم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

٥- التجديد لا يكون إلا بعد اندراس واندثار، ثم يكون انتصارٌ وازدهار وانتشار.

هذا الحديث يؤكِّد: أن الطائفة المنصورة والفرقة الناجية تقوم بتجديد الدين، وعلماؤها يحيون ما اندرس من السنن، ويدفعون غربة الإسلام الثانية؛ كما دفع رسول اللَّه ﷺ والصحابة رضي الله عنهم غربة الإسلام الأولى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فقد أخبر الصادق المصدوق: أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحق أعزاء، لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل، فأما بقاء الإسلام غريبًا ذليلًا في الأرض كلها قبل الساعة؛ فلا يكون.

وقوله ﷺ: «**ثُمَّ يعودُ غريبًا كما بدأ**»: أعظم ما تكون غربته إذا ارتدَّ الداخلون فيه عنه، وقد قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهؤلاء لا يقيمونه إذا ارتدَّ عنه أولئك، وكذلك بدأ غريبًا ولم يزل يقوى حتى انتشر، فهذا يتغرَّب في كثير من الأمكنة والأزمنة، ثم يظهر حتى يقيمه اللَّه عز وجل؛ كما كان عمر بن عبد العزيز لما وُلِّي قد تَغَرَّبَ كثير من الإسلام على كثير من المسلمين، حتى كان منهم من لا يعرف الخمر، فأظهر اللَّه به في الإسلام ما كان غريبًا.

وفي «السنن»: «**إنّ اللَّهَ يَبْعَثُ لهذه الأمَّةِ في رأسِ كلِّ مائة سنةٍ من يُجدِّدُ لها دينَها**».

والتجديد إنما يكون بعد الدروس، وذاك هو غربة الإسلام، وهذا الحديث يفيد أن المسلم لا يغتمُّ بقلَّة من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام، كما كان الأمر حين بدأ، قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على صحة الإسلام»[١].

ومما سبق كله -جملة وتفصيلًا-: يتبين الصبح لذي عينين أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

وقد بينا في غير موضع: أن التجديد من خصائص أهل السنة والجماعة، أتباع السلف والحديث، ونقلنا عن أهل العلم ما يُثلج قلوبهم، وتطمئنُّ به أفئدتهم. واللَّه الموفق[٢].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٢) انظر -فضلًا لا أمرًا- رسالتي: «الطلع النضيد في فقه حديث التجديد».

حديث العدول ودلالته على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

قال رسول اللَّه ﷺ: «**يَحْمِلُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عدُوله: يَنْفون عَنه تَحْريفَ الغالين، وانتحالَ المُبطلين، وتأويلَ الجاهِلين**»[1].

ووجه الدلالة على ذلك من وجوه متعددة:

١- أن اللَّه ﷻ قيض لهذا الدين علماء ربانيين، يحملونه ويذبُّون عنه من كل خلف، وهؤلاء هم علماء الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، وهو بهذا يلتقي مع أحاديث الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، وهي تدل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

وهذا يكون بالقلم واللسان، أو بالسيف والسنان، وقد يجتمعان في آخر الزمان عندما يقاتل آخرهم الدجال.

٢- الدين عِلم والعِلم دين، وكلاهما نور وهدى ودين حق؛ فلا بد من ظهوره؛ كما دلت عليه الآيات القرآنية السابقة.

---

(١) ورد الحديث عن جمع من الصحابة ﵃: أبي هريرة، وعبد اللَّه بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وعبد اللَّه ابن عمرو بن العاص، وعبد اللَّه بن عمر، ومعاذ بن جبل، وجابر بن سمرة، وعبد اللَّه بن عباس، وأنس بن مالك، وأبي أمامة الباهلي، وأبي الدرداء، وأسامة بن زيد، ومرسل إبراهيم بن عبد الرحمن العذري.
وجميعها لا تخلو من مقال؛ لكن بعضها يسلم للاعتبار.
وجملة القول: إن مرسل إبراهيم العذري لا بأس به في الشواهد، وهو يقوي الطريق الثانية من حديث أبي هريرة، وحديث أبي أمامة، ويرتقي الحديث -إن شاء اللَّه- لدرجة الحسن لغيره -على أقل أحواله-، واللَّه أعلم.
وله شواهد كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تشهد لصحة معناه، ومتانة مبناه، وأن عليه نور النبوة؛ كما فصلته في كتابي: «إرشاد الفحول إلى تحرير النقول في تصحيح حديث العدول»، وهو مطبوع متداول.

٣- أن أهل الانتحال المبطلين، والتأويل الغالين، والتحريف الجاهلين، يريدون إطفاء نور الكتاب والسنة، والله لا يمكّنهم من ذلك، وهو متمٌّ نوره، ولن يتم لهم ذلك، كما ورد في الآيات القرآنية السابقة.

٤- الحمل يعني أمرين:

أ- معرفة الحق والظهور به.

ب- العمل به والدعوة إليه.

ومن كان كذلك؛ فهو ظاهر منتصر؛ لوعد الله القائم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

٥- وفقه حديث العدول يلتقي جملة وتفصيلًا مع أحاديث الفرقة الناجية والطائفة المنصورة وحديث التجديد، وكلها دالة على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

* * *



أحاديث الطائفة المنصورة والفرقة الناجية ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

أ- عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا يَزَالُ ناسٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحقِّ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»(١).

ب- عن معاوية رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يَزَالُ مِنْ أُمّتي أمة قائِمةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، ما يَضرُّهم من كَذّبهم، ولا من خَالَفَهم، حتّى يَأتِيَ أَمْرُ اللّهِ وهُم عَلى ذَلِك**»(٢).

ت- عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تَزَالُ طائِفَةٌ مِن أُمّتي ظَاهِرِينَ عَلى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم حَتّى يأْتِي أَمْرُ اللّهِ وهُم كَذَلِكَ**»(٣).

ث- عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي، يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ إلى يَوْمِ القِيامَة**»(٤).

ج- عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَن نَاوأهُم، حَتّى يُقَاتِلَ آخِرُهُم المَسِيحَ الدَّجالَ**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) (١٧٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٠).
(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٣).
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٤٨٤)، وأحمد (٤/ ٤٢٩و٤٣٧) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٦٨و١٦٩)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٢٧)، والحاكم (٤/ ٤٥) من طريق حماد بن سلمة، عن قتادة عن مطرف عنه به. =

ح- عن قرة بن إياس المزني ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا فَسَدَ أهلُ الشام؛ فلا خَيْرَ فِيْكُم، ولا تزالُ طائفةٌ مِن أمتي مَنْصُورينَ، لا يضرُّهم مَن خَذَلهُم حتى تقومَ السَّاعة»**[1].

وفي الباب: عن جابر بن سمرة، وسعد بن أبي وقاص، وعقبة بن عامر، وعبد اللَّه ابن عمرو بن العاص، وزيد بن أرقم، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وسلمة بن نفيل الكندي، والنواس بن سمعان، وأبي أمامة الباهلي، ومرة بن كعب الفهري، وشرحبيل ابن السمط، ومعاذ بن جبل، وأبي عنبة الخولاني ﷺ[2].

وأحاديث الطائفة المنصورة والفرقة الناجية تدل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام؛ من وجوه متعددة:

١- أحاديث الطائفة المنصورة تنبئ عن استمرار ظهورها، حتى يكتمل ذلك بقتال الدجال وأتباعه من اليهود والمنافقين، والخوارج بقيادة المسيح عيسى بن مريم -عليه الصلاة والسلام- ومن قبله المهدي ﷺ، ويدل على ذلك قوله ﷺ: **«لا تزال»**، وهو فعل مضارع يفيد الاستمرار والتدرج.

٢- أنه لا فرق بين الطائفة المنصورة والفرقة الناجية؛ لأنهما حقيقة واحدة، وبيان ذلك من وجوه:

= قلت: رجال إسناده ثقات؛ لكن فيه عنعنة قتادة، وذا لا يضر إن شاء اللَّه؛ فقد تابعه حماد بن زيد عن الجريري عن مطرف، عن عمران.

أخرجه أبو عوانة (٥/ ١١٠)، والجريري ثقة اختلط؛ لكن رواية حماد عنه قبل الاختلاط.

وبالجملة؛ فالحديث صحيح.

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢١٩٢)، وأحمد (٣/ ٤٣٦و٥/ ٣٤و٣٥)، وأبو القاسم البغوي في «مسند علي ابن الجعد» (١١١١)، واللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٧٢)، وابن حبان (٦١) وغيرهم من طريق شعبة حدثنا معاوية بن قرة عن أبيه.

قلت: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) ولذلك عده أهل العلم متواترًا؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٦)، والسيوطي في «الأزهار المتناثرة»(ص٢١٦)، والكتاني في «نظم المتناثر» (ص٩٣)، والزبيدي في «لقط اللآلئ» (ص٦٨-٧١)، وشيخنا الألباني في «صلاة العيدين» (ص٣٩-٤٠).

أولًا: ما ورد في الفرقة الناجية، وبيان منهجها:

أ- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**افْتَرَقَت اليَهُود عَلَى إِحْدَى - أَوْ: ثِنْتَيْنِ- وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَة**»[1].

ب- عن أبي عامر -عبد اللَّه بن لحيّ- الهوزني قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة؛ قام حين صلى صلاة الظهر، فقال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إِنَّ أَهْلَ الكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِم عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّة، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّة سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّة- يعني: الأهواء-، كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدةً؛ وَهِيَ الجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِم تِلْكَ الأَهْوَاء، كَمَا يَتَجَارَى الكَلَبُ بِصَاحِبِهِ؛ لا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ ولا مَفْصِل إلاّ دَخَلَهُ**».

واللَّه يا معشر العرب! لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ، لغيركم من الناس أحرى ألّا يقوم به[2].

ت- عن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**افْتَرَقَت اليَهودُ على إحدى وَسَبعين فرقةً؛ فَوَاحدةٌ في الجنَّةِ وسَبْعونَ في النَّارِ، وافترقتِ النَّصارى عَلَى ثِنْتَين وَسَبْعِينَ فِرْقَة؛ فإحدى وَسَبْعُونَ في النَّارِ وواحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةٍ وَاحِدَةٌ في الجَنَّةِ، وثنتانِ وسبعونَ في النَّارِ**».

قيل: يا رسول اللَّه! من هم؟

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، والحاكم (١/ ٦١، ١٢٨) وغيرهم من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عنه به.
قلت: إسناده حسن؛ لأن محمدًا صدوق، وباقي رجاله ثقات.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، والدارمي (٢/ ١٥٨)، والحاكم (١/ ١٢٨)، والآجري في «الشريعة» (٣١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١، ٢، ٦٥)، وابن نصر المروزي في «السنة» (٣٨و٣٩ -بتحقيقي) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٥٠)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٤٥و٢٤٧)، وقوام السنة الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (١٠٧) وغيرهم من طريق صفوان بن عمرو، قال: حدثني أزهر بن عبد اللَّه الحرازي، عن أبي عامر الهوزني عنه به.
قلت: إسناده حسن، رجاله ثقات؛ غير أزهر بن عبد اللَّه، فإنه صدوق.

قال: «**الجَمَاعَةُ**»[1].

ث- عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليأتِينَّ على أمّتي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْل؛ حتى إن كان منهم من أتى أمَّه علانيةً لكان في أمتي من يَصْنَعُ ذلك، وإن بَنِي إسرائيل تَفرَّقت على ثِنتين وسبعين مِلَّة، وَتَفْتَرِقُ أُمتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِين مِلَّة، كلُّهم فِي النَّار إلا مِلَّةً واحِدَةً**».

قالوا: ومن هي يا رسول اللَّه؟!

قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[2].

ج- عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: «**افْتَرَقَت بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً** -أو قَال: **اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة**-، **وتزيدُ هذه الأمَّةُ فِرقَةً وَاحدةً، كُلُّهَا في النَّارِ؛ إلا السَّوادَ الأَعْظَم**».

فقال له رجل: يا أبا أمامة! من رأيك، أو سمعته من رسول اللَّه ﷺ؟

قال: إني إذن لجريء، بل سمعته من رسول اللَّه ﷺ غير مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث[3].

وفي الباب عن أنس، وعبد اللَّه بن مسعود، وجابر بن عبد اللَّه، وسعد بن أبي وقاص، وواثلة بن الأسقع، وأبي الدرداء، وعمرو بن عوف المزني، وعلي بن أبي طالب، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهم[4].

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٤٩)، وقوام السنة الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (١٩و٢٠) كلهم من طريق عمرو بن عثمان حدثنا عباد بن يوسف: حدثني صفوان بن عمرو، عن راشد بن سعد، عنه به.
قلت: إسناده حسن رجاله ثقات؛ غير عباد بن يوسف، فإنه صدوق.

(٢) حسن لغيره: كما بينت ذلك في «درء الارتياب عن حديث ما أنا عليه اليوم والأصحاب».

(٣) حسن: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٦٨)، وابن نصر في «السنة» (٤٣و٤٤ -بتحقيقي)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٥١و١٥٢)، وأبو نعيم الأصبهاني في «أخبار أصبهان» (١/ ٢٨٦)، والبيهقي (٨/ ١٨٨) وغيرهم من طرق عن أبي غالب، عنه به.
قلت: إسناده حسن؛ لأن أبا غالب -واسمه: حزَوَّر، وهو صاحب أبي أمامة- صدوق.

(٤) وقد تكلمت عليها بتفصيل في كتابي: «نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق الأمة»، فلينظر.

أحاديث الافتراق تنبئ عن حتميَّة افتراق الأمة الإسلامية، اتباعًا لسنن أهل الكتابين: اليهود والنصارى، وهذه الفرق مذمومة كلها، متوعدة بدخول النار، إلا فرقة واحدة من الأهواء المضلة، وفي ذلك بيان وتبصير على معرفة منهج الناجين لسلوك سبيلهم.

ومن انعم النظر في أحاديث الافتراق؛ تجلَّى له عيانًا كالقمر ليلة البدر: أن منهج السلف هو سبيل الفرقة الناجية، وتقرير ذلك من وجوه:

الأول: الافتراق من سنن المغضوب عليهم والضالين، والفرقة الناجية لا تتبع سُننهم، ولا تسلك سبيلهم، وإنما تسأل اللَّه أن يهديها صراط الذين أنعم عليهم؛ كما في فاتحة الكتاب: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦و٧]، وهم الذين عرفوا الحق واتبعوه، ولا ريب أن أصحاب رسول اللَّه ﷺ هم أولى بذلك من غيرهم؛ فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول اللَّه ﷺ جهلوا الحق وعرفه غيرهم، أو رفضوه وتمسك به غيرهم.

ولهذا فسر السلف الصالح الصراط المستقيم، وأهله: بأصحاب رسول اللَّه ﷺ.
وبذلك يتبين: أن منهج السلف هو سبيل الفرقة الناجية.

الثاني: الفرقة الناجية هي الجماعة، والجماعة هم أصحاب رسول اللَّه ﷺ، لأنه لم يكن آنذاك جماعة غير أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فتبين: أن الجماعة بعد الافتراق؛ هي الثابتة على ما كانت عليه الجماعة قبل الافتراق؛ كما في حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما، ولو لم تكن كذلك؛ فلا معنى للجماعة.

وهذا يقتضي: أن الفرقة الناجية هي ما كانت على منهج السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان.

الثالث: أن المتفرقين عن الجماعة أصحاب هوى؛ كما وصفهم رسول اللَّه ﷺ في حديث معاوية رضي الله عنه، وأما الناجون؛ فهم على الهدى؛ لأنهم معتصمون بحبل اللَّه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد أخبر اللَّه -تعالى- أن المعتصم بحبله مهتدٍ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى

﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آل عمران: ١٠١]، والصراط المستقيم، هو: ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، فلذلك؛ فإن منهج السلف هو سبيل الفرقة الناجية.

الرابع: أن رسول اللَّه ﷺ أخبر أن الفرقة الناجية هي ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، وهذا يدل على أن فيصل التفريق بين الناجين والهالكين إنما هو اتباع الصحابة رضي الله عنهم فيما كانوا عليه؛ لأنهم كانوا على ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ، ولذلك؛ فمناط النجاة والهداية هو منهج السلف، فهو سبيل الفرقة الناجية.

الخامس: أن النجاة من الاختلاف الكثير الذي تمثّله الفرق هو سنة رسول اللَّه ﷺ والخلفاء الراشدين؛ كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «**فَإِنَّهُ من يَعِشْ مِنْكُم فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ المْهَدِيين من بعدي، عَضّوا عليها بالنّواجِذِ، وإياكم ومحدثاتِ الأمورِ؛ فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضَلالة في النَّار**»[1]، وهذا يقتضي أن منهج السلف هو سبيل الفرقة الناجية.

ثانيًا: أقوال أهل العلم في ذلك:

١- **قال الآجري** رحمه الله: «وقوله ﷺ: «**سيعود غريبًا**» معناه- واللَّه أعلم- أن الأهواء المضلة تكثر؛ فيَضِلُّ بها كثير من الناس، ويبقى أهل الحق الذين هم على شريعة الإسلام غرباء في الناس، ألم تسمع قول النبي ﷺ: «**تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثلاثٍ وسَبْعِينَ فِرْقَة كلّها في النارِ إلا واحدة**»؟ فقيل: من هي الناجية؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيه اليومَ وَأَصْحَابِي**»»[2].

٢- **وقال ابن رجب** رحمه الله: «وأما فتنة الشبهات والأهواء المضلة؛ فبسببها تَفرَّق أهل القبلة، وصاروا شيعًا، وكفَّر بعضهم بعضًا، وأصبحوا أعداء وفرقًا وأحزابًا، بعد أن كانوا إخوانًا قلوبهم على قلب رجل واحد، فلم ينجُ من هذه الفرق إلا الفرقة الناجية، وهم المذكورون في قوله ﷺ: «**لا تَزَالُ طائفةٌ من أُمّتي ظاهرين على الحقِّ،**

---

(١) صحيح: وقد أفردته في جزء مستقل: «نسيم الرياض بذكر فوائد حديث العرباض».

(٢) «صفة الغرباء من المؤمنين» (ص٢٧).

لا يضُرُّهم من خذَلهم، ولا من خالَفَهم، حتى يأتي أمرُ اللَّه وهم على ذلك».

وهم في آخر الزمان الغرباء المذكورون في هذه الأحاديث»[١].

٣- **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة «العقيدة الواسطية»: «أما بعد؛ فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة: أهل السنة والجماعة»[٢].

ثم قال في خاتمتها: «لكن لما أخبر النبي ﷺ: أن أمته ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة؛ كلها في النار إلا واحدة؛ وهي الجماعة، وفي حديث عنه أنه قال: «**هم ما كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، صار المتمسِّكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة، وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، أولو المناقب المأثورة والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال[٣]، وفيهم أئمة الدين، وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أمَّتي على الحقِّ مَنْصُورَة، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُم ولا مَنْ خَذَلَهُم حتى تَقُوم السَّاعَة**» نسأل اللَّه أن يجعلنا منهم، وألَّا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا»[٤].

٤- **وقال اللالكائي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهي الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، والعصبة الهادية، والجماعة العادلة المتمسكة بالسنة»[٥].

هذا ما صرح به أهل العلم من السلف، ولو تدبرت أوصاف الطائفة المنصورة والفرقة الناجية؛ لما وجدت بينها تعارضًا وتغايرًا.

لقد وردت الأخبار الصحيحة عن رسول اللَّه ﷺ بتعيين أوصاف الفرقة الناجية والطائفة المنصورة منهجًا وحالًا، وواقعًا ومآلًا:

---

(١) «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» (ص٢٢).
(٢) «مجموعة الرسائل الكبرى» (١/ ٣٩٣).
(٣) أي: أولياء اللَّه، وهم المتقون، ولا يصح في الأبدال حديث مرفوع.
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤١١).
(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٢٤).

أما المنهج والحال؛ فقد وردت ثلاثة ألفاظ بتحديد ملامحه:

أ- «**ما أنا عليه وأصحابي**».

ب-«**الجماعة**».

ت-«**السواد الأعظم**».

وهذه الألفاظ النبوية تتفق ولا تفترق، وتأتلف ولا تختلف، وتجتمع ولا تمتنع؛ كما بينه الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «ثم إنه -صلوات اللَّه وسلامه عليه- سئل: من الناجية؟ فقال -عليه الصلاة والسلام- في حديث: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، وفي حديث: «**السواد الأعظم**»، وفي حديث: «**واحدة في الجنة؛ وهي الجماعة**».

قلت أنا: ومعانيها واحدة -إن شاء اللَّه تعالى-»[1].

هذه الطائفة المنصورة هي الجماعة؛ لأن الجماعة: ما وافق الحق ولو كنت وحدك.

عن عمرو بن ميمون الأودي؛ قال: قدم علينا معاذ بن جبل على عهد رسول اللَّه ﷺ، فوقع حبه في قلبي؛ فلزمته حتى واريته في التراب بالشام، ثم لزمت أفقه الناس بعده عبد اللَّه بن مسعود، فَذُكِرَ يومًا عنده تأخير الصلاة عن وقتها، فقال: «**صلوا في بيوتكم، واجعلوا صلاتكم معهم سبحة**» فقلت له: وكيف لنا بالجماعة؟ فقال لي: يا عمرو بن ميمون، إن جمهور الجماعة هي التي تفارق الجماعة؛ إنما الجماعة: ما وافق طاعة اللَّه، وإن كنت وحدك»[2].

قال أبو شامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة؛ فالمراد به: لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلًا والمخالف كثيرًا؛ لأن الحق: الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم»[3].

وبذلك تبين: أن الطائفة المنصورة والفرقة الناجية؛ هي: السواد الأعظم.

---

(١) «الشريعة» (١/ ١٢٥).

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٦٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٣٢٢/ ٢)، وصححه شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تخريج مشكاة المصابيح» (١/ ٦١).

(٣) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص٢٢).

قال إسحاق بن راهويه رحمه الله: «لو سألت الجهال عن السواد الأعظم؛ لقالوا: جماعة الناس، ولا يعلمون أن الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه؛ فهو الجماعة»[١].

قال الشاطبي رحمه الله: «فانظر حكايته؛ تتبين غلط من ظن أن الجماعة هي جماعة الناس وإن لم يكن فيه عالم، وهو فهم العوام لا فهم العلماء، فليثبت الموفق في هذه المزلة قدمه؛ لئلا يضل عن سواء السبيل، ولا توفيق إلا بالله»[٢].

وقال ابن حبان رحمه الله: «الأمر بالجماعة بلفظ العموم، والمراد منه الخاص؛ لأن الجماعة هي إجماع أصحاب رسول الله ﷺ، فمن لزم ما كانوا عليه وشذَّ عمَّن بعدهم؛ لم يكن بشاقٍّ للجماعة ولا مفارقٍ لها، ومن شذَّ عنهم وتبع من بعدهم كان شاقًّا للجماعة، والجماعة بعد الصحابة: هم أقوام اجتمع فيهم الدين والعقل والعلم، ولزموا ترك الهوى فيما هم فيه، وإن قلَّت أعدادهم؛ لا أوباش الناس ورعاعهم، وإن كثروا»[٣].

ولا شك أن الطائفة المنصورة؛ هي: ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

وبهذا تتضح معالم منهج الفرقة الناجية والطائفة المنصورة: أنه الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة؛ محمد ﷺ والذين معه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما الواقع والمآل؛ فقد ورد أنها ناجية منصورة، ولا تعارض ولا تناقض؛ فهي ناجية في الدنيا من الخلاف والبدع، وفي الآخرة من النار، منصورة في الدنيا بظهورها على الحق، وفي الآخرة بفوزها بجنات عدن، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقد ظن بعض المعاصرين: أن النصر لا يكون إلا للمقاتلين؛ ولذلك فقد زعم: أن الطائفة المنصورة غير الفرقة الناجية!! وهذا وهم وتوهم، ليس له قوائم حق وبراهين صدق.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٣٩).

(٢) «الاعتصام» (٢/ ٢٦٧).

(٣) «صحيح ابن حبان» (٨/ ٤٤).

قال اللَّه -تعالى- : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

فهل انتصارات جميع الرسل كانت في ساحات المعارك وميادين القتال؟

وقال -تعالى- : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

فهل النصر المضمون من رب العالمين للمؤمنين يكون في ساحات المعركة فحسب؟ وهل يكون يوم القيامة -يوم الأشهاد- قتال؟!

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٤-١١٦].

فهل انتصار موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- على فرعون وهامان وقارون وهما في ميادين القتال وساحات النزال ومقارعة الأبطال، أو أنه ثمرة للصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى اللَّه؟

وقال تعالى : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

فهل انتصار رسول اللَّه ﷺ أثناء هجرته كان فيه مواجهة في ساحات القتال، أم أنه النجاة من أذى الكفار وكيدهم، وعدم وصولهم إليه وإلى صاحبه؟

وهب جدلًا أن الفرقة الناجية هي سواد الطائفة المنصورة، والقاعدة الشعبية لها؛ فهل الفرقة الناجية في معزل عن النصر وأسبابه؟! بل هي أهم عنصر فاعل فيه.

عن مصعب بن سعد؛ قال؛ رأى سعد أن له فضلًا على من دونه، فقال النبي ﷺ: «**هل تُنْصَرُونَ إلا بضُعَفَائِكُم؟**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦).

وفي رواية: «**إنّما يَنْصُر اللَّهُ هذه الأمةَ بِضَعِيفِها؛ بِدَعْوَتِهِم، وَصَلاتِهِم، وإِخْلاصِهِم**»[١].

إذن؛ فالضعفاء لهم أثر فعَّال في تحقيق النصر، وبهذا يتبين: أن الفرقة الناجية كذلك منصورة، والطائفة المنصورة ناجية لا فرق بينهما، وأن التفريق بينهما من محدثات العصر.

إذن؛ فالمستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

٣- أن الطائفة المنصورة ظاهرة على الحق متمكِّنة به لا تزحزح عنه.

وقد تنوعت عبارات الأحاديث وتعددت في بيان أن هذه الطائفة تحمل الحق الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه؛ من غير تحريف، ولا تبديل، ولا تأويل، ولا انتحال؛ فتارة بأنهم «على الحق»، وأخرى أنهم «على أمر اللَّه»، وثالثة أنهم «على هذا الأمر»، وأخيرة «على الدين»، وهذا يستلزم أنها على الحق قدرًا وشرعًا.

وقد تقدم: أن الحق هو ما كان عليه السلف الصالح، إذن؛ فمنهج السلف الصالح سبيل الطائفة المنصورة.

وهو ما تكفل اللَّه بظهوره على الدين كله ولو كره المشركون.

إذن؛ فالمستقبل للإسلام، بمنهج السلف الكرام.

٤- أن الطائفة المنصورة لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، ولا من كذَّبها، وإنما صارت الفرق فرقًا مذمومة بمخالفتها للطائفة المنصورة والفرقة الناجية، ولما كانت الفرق ليست على منهج السلف؛ فالطائفة المنصورة هي القائمة على منهج السلف الصالح، وهذا ما يغيظ أهل البدع والأهواء من الفرق والأحزاب؛ كما أن الإسلام يغيظ الكفار من الملل والنحل، وهو يلتقي مع قوله -تعالى-: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي (٦/ ٤٥).

٥- أن الطائفة المنصورة قائمة بأمر اللَّه، متصدية للدعوة إلى اللَّه؛ لإصلاح الناس بالكتاب والسنة، ولا طريق لذلك إلا بمنهج السلف الصالح.

٦- أن الطائفة المنصورة ظاهرة إلى قيام الساعة.

وهذا الظهور يشمل معانيَ كثيرة؛ منها:

أ- الوضوح والبيان وعدم الاستتار، وهذه صفة منهج السلف: وضوح المنهج وعلانية الدعوة، وهو يلتقي مع وصف اللَّه -تعالى- لدينه الذي سيظهره بـ(النور).

قال ابن الجوزي: «فقد بان بما ذكرنا: أن أهل السنة هم المتبعون، وأن أهل البدعة هم المظهرون شيئًا لم يكن قبل، ولا مستند له؛ ولهذا استتروا ببدعتهم، ولم يكتم أهل السنة مذهبهم، فكلمتهم ظاهرة، ومذهبهم مشهور، والعاقبة لهم»[1].

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيتم قومًا يتناجون في دينهم دون العامة؛ فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة»[2].

وقال فيما كتبه إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول اللَّه ﷺ فاكتبه؛ فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتُفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يُعَلَّم من لا يَعْلَم؛ فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا»[3].

ب- تمكن الحق من نفوسهم واستقامتهم عليه لا يثنيهم عنه شيء، ولا يلهيهم عنه أمر، وهذه صفة حزب اللَّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولا شك أن حزب اللَّه: هم محمد ﷺ والذين معه من أصحابه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) «المنتقى النفيس من تلبيس إبليس» (ص٤٠).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٤٨)، والدارمي (١/ ٩١)، وهو صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٩٤ - فتح).

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢١و٢٢].

ت- الغلبة والتمكُّن والعلو والظفر، وهذا لا يحققه إلا منهج السلف.

إذن؛ فالمستقبل للإسلام، بمنهج السلف الكرام.

٧- أن الطائفة المنصورة صابرة مصابرة مرابطة، حتى يأتي أمر اللَّه وهي على ذلك.

وقد سمَّى رسول اللَّه ﷺ غربة الإسلام الثانية -حيث يتجلى صبر الفرقة الناجية، وثبات الطائفة المنصورة- بـ«أيام الصبر»، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**إنّ مِن وَرَائِكُم أيامَ الصَّبر، الصَبْرُ فيهن مثل قَبْضٍ على الجَمْرِ، للعامِل فيهن مثل أجر خَمسين رجُلًا يعمَلون مثل عَمَلِهِ**».

قالوا: يا رسول اللَّه! أجر خمسين منهم؟

قال: «**أجر خمسين منكم**»[١].

وإنما الأجر في أيام الصبر لمن تمسك بمنهج السلف؛ كما في حديث عتبة بن غزوان رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنَّ من ورائِكم أيام الصَّبْرِ للمتمسكِ فيهن يومئذٍ بما أنتم عليه أجر خمسين مِنْكم**».

قالوا: يا نبي اللَّه! منا، أو منهم؟

قال: «**بل مِنْكم**»[٢].

---

(١) حسن بشواهده: كما بينته في كتابي: «القابضون على الجمر»، وانظر كتابي: «بصائر ذوي الشرف بشرح مرويات منهج السلف» (ص٢٧).

(٢) حسن لغيره: أخرجه ابن نصر المروزي في «السنة» (ص١٥٨-١٦١/ ٢٤ -بتحقيقي) بإسناد صحيح لولا الانقطاع بين إبراهيم بن أبي عبلة وعتبة بن غزوان.
وله شواهد ذكرتها في تحقيقي للكتاب المذكور، وانظر كتابي: «درء الارتياب عن حديث ما أنا عليه والأصحاب» فبها يرتقي إلى درجة الاحتجاج.

٨- إجماع أهل العلم -من أهل السنة والجماعة -على أن الطائفة المنصورة هم السلف الصالح أهل الحديث.

لقد اتفقت كلمة أهل العلم على أن أهل الحديث هم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية:

قال عبد اللَّه بن المبارك: «هم -عندي- أصحاب الحديث»[١].

وقال علي بن المديني: «هم أصحاب الحديث، والذين يتعاهدون مذاهب الرسول ﷺ، ويذبون عن العلم؛ لولاهم لم تجد عند المعتزلة والرافضة والجهمية وأهل الإرجاء شيئًا من السنن».

وفي رواية: «لأهلك الناس المعتزلةُ والرافضةُ والجهميةُ وأهل الإرجاء»[٢].

قال أحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث؛ فلا أدري من هم!»[٣].

وقال أحمد بن سنان القطان الحافظ: «هم أهل العلم وأصحاب الآثار»[٤].

قال البخاري: «يعني: أصحاب الحديث»[٥].

واحتج الترمذي[٦] بقول علي بن المديني المتقدم، وقال: «تفسير الجماعة عند أهل العلم؛ هم: أهل الفقه والعلم والحديث»[٧].

ثم تواتر هذا التفسير عن أهل العلم؛ كابن قتيبة[٨]، وابن حبان[٩]، والآجري[١٠]،

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٩٢و٢٢٢٩)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص١٠و٢٧)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٨) من طريقين عنه.
قلت: وهو صحيح.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٧)، وله طرق متعددة عنه، وهو صحيح.

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٧).

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٧)، وله عنه طرق وألفاظ أخر.

(٦) في السنن (٤/ ٤٨٥و٥٥٤-٥٥٥).

(٧) المصدر السابق (٤/ ٢٦٧).

(٨) «تأويل مختلف الحديث» (ص٥١).

(٩) «صحيح ابن حبان» (١/ ١٤).

(١٠) «الأربعين» (ص٥٥).

وابن الجوزي[١]، والحاكم[٢]، والخطيب البغدادي[٣]، والبغوي[٤]، والنووي[٥]، وغيرهم كثير[٦]، حتى إنني رغم عمق التقصي وشدة التقصي؛ لم أجد لهم مخالفًا مما يؤكد الإجماع الذي نقله النووي[٧]، ومن المعلوم ضرورة: أن أهل الحديث هم السلف الصالح، ولذلك؛ فمنهجهم هو سبيل الطائفة المنصورة الناجية[٨].

إذن: فالمستقبل للإسلام وحده- بإذن اللَّه وحده-؛ لكن بمنهج السلف الصالح -محمد ﷺ والذين معه، ومن اتبعهم بإحسان ممن جاء بعدهم-، ليتم اللَّه هذا الأمر وحده، وينصر جنده، ويصدق نبيه وعبده ﷺ.

* * *

(١) «تلبيس إبليس» (ص١٦).
(٢) «معرفة علوم الحديث» (ص٢-٣).
(٣) «شرف أصحاب الحديث» (ص٧-١٠).
(٤) «شرح السنة» (٤/ ٢١٣).
(٥) «شرح صحيح مسلم» (١٣/ ١٦-١٧).
(٦) وانظر أقوالهم المحشودة، واظفر بها؛ فإنها الضالة المنشودة، في كتابي: «اللآلئ المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة»، و«إرشاد الفحول إلى تحرير النقول في تصحيح حديث العدول».
(٧) «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٧١).
(٨) وانظر -لزامًا- : «الانتصار لأهل الحديث»، للدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول، ففيه تفصيل جملة ذلك.

أحاديث المهدي عليه السلام ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

أحاديث المهدي المتواترة(١) تخبر بظهور مصلح آخر الزمان، يحكم بالكتاب والسنة بمنهج السلف الصالح، ويملأ الأرض عدلًا بعدما ملئت جورًا وظلمًا، يبايع وهو مكره، يحكم ثمان -أو سبع- حجج، يكثر المال في زمانه، ويحثوه ولا يَعُدُّه، اسمه: محمد بن عبد الله، من أهل بيت الرسول ﷺ، ومن ولد فاطمة رضي الله عنها، ومن سلالة الحسن رضي الله عنه، وهو إمام عادل تقي، وحاكم سلفي منصف.

١- عن معاوية بن قرة، عن أبيه مرفوعًا: **«لَتُمْلأَنَّ الأرض جَوْرًا وظلمًا، فإذا مُلِئت جَوْرًا وظُلْمًا؛ بعثَ اللَّهُ رجلًا منّي، اسْمه اسمي، فَيَمْلَؤُها قِسْطًا وعَدلًا كما مُلِئَت جَوْرًا وظلمًا»**(٢).

٢- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: **«يَخْرُجُ المهدي في آخرِ أمتي: يَسقيه اللَّهُ الغيثَ، وتُخرجُ الأرضُ نباتَها، ويُعطَى المال صحاحًا، وتكثُر الماشية، وتعظم الأمَّةُ، يعيش سبعًا أو ثمانيًا؛ يعني: حججًا»**(٣).

٣- عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا: **«المَهْدي من عِتْرتي مِن وَلَدِ فاطِمَة»**(٤).

٤- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: **«يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمانِ خَلِيفَة؛ يَقْسِمُ**

---

(١) وقد صرح بذلك جماعة من أهل العلم؛ كالحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٤٩٣)، والسيوطي في «العرف الوردي» (٢/ ٥٧-٨٧- حاوي)، والسخاوي في «فتح المغيث» (٣/ ٤٣)، والسفاريني في «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٧٠)، والكتاني في «نظم المتناثر» (ص٤٧)، والبرزنجي في «الإشاعة لأشراط الساعة»(ص٨٧)، وشيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٤١).

وقد فندت شبهات منكري خروج المهدي في كتابي: «الأدلة والشواهد» (ص١٠٤-١٢٢).

(٢) «الصحيحة» (١٥٢٩).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٥٧-٥٥٨)، وصححه، ووافقه الذهبي وشيخنا في «الصحيحة» (٤/ ٤٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٨٤)، وابن ماجه (٤٠٨٦) بإسناد جيد.

المال ولا يَعُدُّه»[١].

وفي رواية: «**يكون في آخر أمتي خليفة؛ يحثي المال حثيًا ولا يعدُّه**»[٢].

وأحاديث خروج المهدي تدل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام؛ من وجوه متعددة:

١- أنه خليفة في آخر الزمان، وخلافة آخر الزمان سلفية راشدة على منهاج النبوة؛ كما دلَّ على ذلك حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه المتقدم[٣].

٢- أنه: «**من النبي ﷺ**»، وفي رواية: «**من عترتي**» وفي ثالثة: «**من أهل بيتي**»، والمراد: أنه من ولد فاطمة رضي الله عنها كما جاء صريحًا؛ لكن وراءه معنى عظيم، وهو: أن أهل بيت الرجل أعلم الناس بهديه وسمته، وأشدهم تمسكًا بسنته وجريًا على سننه، ولن يكون المهدي كذلك إلا إذا حكم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ بمنهج السلف الصالح.

٣- أحاديث الملاحم تدل على أن الذي يفتتح كثيرًا من البلدان، مثل: فتح القسطنطينية -الفتح الثاني-؛ هو: المهدي.

٤- أنه يملأ الأرض عدلًا كما ملئت ظلمًا وجورًا، وهذا لا يكون إلا في ظلال الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، وأنّ العدل يبلغ ما بلغ الليل والنهار، وهذا يدل على سيطرة الإسلام على جميع الأديان، وعُلوِّ دين العدل والحق على قوانين الظلم والجور.

٥- يكثر المال في زمانه، وتعطي الأرض بركتها، وتعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا، وهذا دليل على الاستقلال الاقتصادي، الذي لا يقل أهمية عن الاستقلال السياسي، بل هو حصانته وحاضنته وحمايته.

*** تكميل لكل نبيل:**

واعلم أخا الإيمان: أن الخلافة الراشدة على منهاج النبوة تعود قبل ظهور

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩١٤/ ٦٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩١٣/ ٦٧).
(٣) (ص ١٤٣).

المهدي، وليس كما يعتقد بعض الناس، وتزعم بعض الحركات الإسلامية: أن الخلافة يرجعها المهدي، وهم ينتظرونه؛ فإن هذا مما لا دليل عليه، بل هو وَهمٌ وخرص وتخمين، وأدى إلى تواكل وكسل وفتور في الدعوة إلى اللَّه ﷻ.

ومن الأدلة على أن الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ترجع قبل ظهور الخليفة الصالح المهدي:

١- أن المسلمين يسترجعون بيت المقدس من اليهود؛ كما سبق ذكره وتبيانه، بينما المهدي يكون عند ظهوره في بيت المقدس، حيث يكون في أيدي المسلمين، وبيت المقدس الآن يرزح تحت نير الاحتلال الصهيوني اليهودي البغيض، فلا بد من قيام الخلافة قبل المهدي؛ لأنها هي السبيل الوحيد لاسترجاع مجد الإسلام التليد.

٢- ومما يؤكد أن الخلافة الراشدة عائدة قبل ظهور المهدي قوله ﷺ: «**يكون خليفة من خلفائكم في آخر الزمان**»، فهو يشير إلى أن المهدي خليفة في سلسلة الخلفاء الذين يحكمون بالكتاب والسنة بمنهج سلف الأمة على منهاج النبوة في آخر الزمان.

وقرينة أخرى: أن المهدي يمثِّل- هو وعيسى- قمة الإصلاح، الديني في آخر الزمان، ومن المعلوم بداهة: أن هذا لا يتحقق جملة، بل بالتدريج؛ فلذلك لا بد من وجود مُصلحين سابقين؛ يوطِّئون للمهدي قمة إصلاحه وحكمه، واللَّه أعلم.

٤- وردت بعض الأحاديث التي في إسنادها مقال، تدور حول خروج المهدي: «**يكون اختلاف عند موت خليفة...**»، و«**يستخرج كنز الكعبة ثلاثة، كلهم أبناء خليفة**».

وهي بمجموعها تدل على أن المهدي يخرج والخلافة الراشدة على منهاج النبوة في آخر الزمان مستمرة، فتدبر هذا المقام؛ فإنه مربط الفرس في هذا الباب[1].

وجملة الأخبار السابقة وغيرها تنبئ بمستقبل إسلامي زاهر على منهج السلف الصالح الكرام.

---

(١) وانظر -لزامًا- (ص ١٤٩-١٥٠).

أحاديث خروج الدجال ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

لقد أخبر رسول اللَّه ﷺ بخروج الدجال في أحاديث كثيرة، تصل إلى حد التواتر[١].

وخروجه أعظم فتنة تُنْتَظَر بين خلق آدم وقيام الساعة؛ ولكنها تدل دلالة واضحة على: أن المستقبل للإسلام؛ لكن بمنهج السلف الكرام، وأظهرها في ذلك حديثان:

١- عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تَزالُ طائفةٌ من أُمّتي يقاتلونَ على الحقّ، ظاهرين على من ناوَأَهم، حتى يقاتلَ آخرُهم المسيحَ الدَّجالَ»**[٢].

٢- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يَخْرُجُ الدَّجالُ، فيتوجه قِبَلَه رَجُلٌ من المؤمنين، فَتَلقاه المسالحُ[٣]- مسالحُ الدَّجالِ-، فيقولون له: أينَ تَعْمَدُ؟ فيقول: أَعْمَدُ إلى هذا الذي خَرَج، قال: فيقولون له: أو ما تُؤْمِنُ بِرَبنَا؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكُم ربُّكم أن تقتلوا أحدًا دونه؟ فينطلقون به إلى الدّجالِ، فإذا رآه المؤمنُ؛ قال: يا أيها الناسُ! هذا الدجالُ الذي ذَكَر رسولُ اللَّه ﷺ** -وفي رواية: فيقول: **أشْهَد أنَّكَ الدّجال الذي حَدّثنا رسول اللَّه ﷺ حديثَه**- قال: **فَيأْمُر الدجال به، فَيُشَبَّح[٤]، فيقول: خُذُوه وَشُجّوه[٥]**،

---

(١) وممن قرر تواتر أحاديث الدجال: ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٩١-٥٩٧)، والسخاوي في «فتح المغيث» (٣/ ٤٤)، والكتاني في «نظم المتناثر» (ص١٤٧)، وشيخنا الألباني في «الحديث حجة بنفسه» (ص٦٤)، و«وجوب الأخذ بحديث الآحاد» (ص٣٤)، و«التعليق على شرح العقيدة الطحاوية» (ص٥٠١).

(٢) مضى تخريجه (ص١٦٢).

(٣) قوم معهم سلاح، يرقبون في المراكز؛ كالخفراء، سموا بذلك؛ لحملهم السلاح، وهم: طلائع الدجال.

(٤) يمد على بطنه.

(٥) من الشج، وهو: الجرح من الرأس والوجه.

فيوسع ظَهْره وَبَطْنه ضَربًا. قال: فيقول: أوَما تُؤْمن بي؟ قال: فيقول: أنتَ المسيحُ الكذابُ. قال: فيؤمرُ به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه. قال: ثم يمشي الدجالُ بين القطعتين، ثم يقول له: قُم؛ فيستوي قائمًا، ثم يقولُ: أتؤمنُ بِي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرةً. قال: ثم يقولُ: يا أيها الناسُ! إنّه لا يفعلُ بعدي بأحدٍ من الناس. قال: فيأخذه الدجالُ ليذْبَحَه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نُحاسًا؛ فلا يستطيعُ فيأخذ بيديه، ورجليه، فيقذفُ به، فيحسب الناسُ أنّما قذفه في النار، وإنّما ألقي في الجنَّة».

فقال رسول اللّه ﷺ: «**هذا أعظمُ الناسِ شهادةً عند ربِّ العالمين**»[1].

هذان الحديثان يدلان دلالة واضحة على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام، من وجوه متعددة؛ منها:

١- أن الذي يقاتل الدجال هم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، وهم أهل الحديث أتباع السلف الصالح.

٢- المؤمن الذي يناظر الدجال حتى ينال الشهادة العظمى في سبيل اللّه سلفي؛ لأنه عرف الدجال بحديث رسول اللّه ﷺ، فقال له: «**أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثه**»، ثم يصيح في الناس محذِّرًا من أعظم فتنة: «**يا أيها الناس! هذا الدجال الذي ذكر رسول اللّه ﷺ**». إنه سلفي العقيدة... سلفي المنهج... حيث عرف الدجال الأكبر والفتنة العظمى بحديث رسول اللّه ﷺ الذي تربَّى عليه تعلُّمًا وتعليمًا وتقييمًا للواقع ومعرفة به... وهذه هي العقيدة السلفية المباركة التي تدعو إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

٣- أن أتباع الدجال هم من اليهود؛ كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول اللّه ﷺ قال: «**يَتْبَعُ الدَّجالَ من يهودِ أصبهان سبعون ألفًا، عليهم الطَّيالِسَةُ**[2]»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٨) (١١٢و١١٣).

(٢) جمع طيلسان؛ وهو: ثوب يلبس على الكتف، يحيط باليدين، ينسج للبس؛ خال من التفصيل والخياطة.

(٣) سيأتي تخريجه (ص٢٢٧).

والذي يقاتل اليهود، وينتصر عليهم، ويستأصل شأفتهم؛ هم أنصار رسول اللَّه ﷺ، أتباع المنهج السلفي الحق.

٤- أن الذي يقتل الدجال، ويريح المسلمين من شره ومكره، هو روح اللَّه وكلمته عيسى بن مريم- عليه الصلاة والسلام-، وهذا يدل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام من ناحيتين:

الأولى: أن المسيح -عليه الصلاة والسلام- عند نزوله يحكم بالكتاب والسنة بمنهج سلف الأمة؛ كما سيأتي تفصيله وتأصيله[1].

الأخيرة: أن أتباع المسيح -عليه الصلاة والسلام- هم الطائفة المنصورة؛ بدلالة قوله ﷺ: «**حتى يقاتل آخرهم الدجال**».

فدل هذا كله على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

* * *

(١) (ص ١٨٣- ٢١٣).

أحاديث نزول المسيح عيسى بن مريم -عليه الصلاة والسلام- ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

«المسيح العائد مَن ولِمَن؟!»[1]:

لم يخلق اللَّه -تعالى- بشرًا اختلفت فيه الأمم، وتباينت فيه المعتقدات؛ مثل المسيح عيسى بن مريم ﷺ، وبقدر ما حصل الاختلاف في الناس بشأنه: بين غالين فيه، وجافين عنه، ومتوسطين بين ذلك؛ بقدر ما كانت شخصيته موضوعًا مشتركًا لكثير من قضايا الحِجَاج واللّجاج بين أهل الأديان، ومعبرًا يوصل لفتح أحاديث في الإلهيات والنبوَّات والوحي والمعجزات عند كل أصحاب الملل والنحل، وتتعاظم في أيامنا هذه أهمية البحث والحديث في شأن عيسى ﷺ أكثر من أي عصر مضى؛ للأسباب التالية:

أولًا: النصارى المعظمين له والمغالين فيه -على اختلاف طوائفهم- يتوقعون عودته في هذه الحقبة التي نعيشها، وهم يترقبون بل يتقربون بتقريب هذه العودة المنتظرة بكل تشوق وتشوف وتلهف وتحسُّب.

ثانيًا: اليهود الذين كفروا بعيسى وآذوه وعادوه، ولا يزالون يكفرون به؛ سيجدون أنفسهم في مواجهة قضية مسيح منافس لمسيحهم المنتظر الموعود، والذي يترقبون قدومه في وقت قريب، مما سيضعهم في بؤرة الاهتمام بشأنه مرغمين عندما يتزايد الجدل حول قرب عودته إلى القدس، التي يعتقدون أنهم (حرروها) وجهزوها لمقدم مسيحهم اليهودي المنتظر.

(١) «حمى سنة ٢٠٠٠» عبد العزيز مصطفى كامل (ص٢٢٣-٢٣٩) بتصرف.

ثالثًا: المسلمون يعتقدون أن عيسى عليه السلام سيعود إلى الأرض، وسينزل من السماء، وسيحكم بالإسلام، سيزدادون اهتمامًا بشأنه، مع تزايد الحديث حوله؛ ولكن مع قلة العلم، وضعف اليقين، وشيوع الجهالة -خاصة عند المسلمين غير العرب-، فالخطر يتعاظم من الفتنة التي يمكن أن يحدثها أهل الكتاب عندما يبدءون ملحمة إعلامية، تضخ الدعايات المضلِّلة عن المسيح ورسالة المسيح، ومعجزات المسيح في أكبر حملة (تبشير) عالمية، عبر آلة الإعلام الدولية التي يملكون توجيه الفتن مع دفتها.

ولهذا: لم يكن المسلمون في عصر من العصور أحوج لتصحيح المعتقد في أمور الألوهية والرسالة والنبوة مما يتعلق بعيسى عليه السلام من هذا العصر الذي نعيشه؛ لأن هذه القضايا ستتفاعل، وستحتاج إلى الفهم السديد دون تحريف الغالين أو انتحال المبطلين، فالكلام حول شخص عيسى عليه السلام والحديث المفترى عن ألوهيته أو بنوته، سيتكثف مع الحديث عن بشريته ونبوته، وذلك كلما ضاعف النصارى من حملتهم للفت الأنظار إلى قرب عودته.

*** النصارى ومسيحهم المنتظر:**

إذا كان عهد اليهود قد طال بطول زمن التوراة؛ فإن انتظار النصارى لمسيحهم ظل مستمرًّا منذ زمن الإنجيل.

يقول ديورانت في كتابه المشهور «قصة الحضارة» (٣/ ٢٩٠):

«كان ثمة عقيدة مشتركة وحَّدت الجماعات المسيحية المنتشرة في أنحاء العالم؛ هي: أن المسيح بن اللَّه، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض، وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم في الدار الآخرة».

والجماعات النصرانية التي وحدت بينها تلك العقيدة لم تكتف بالاعتقاد، بل لم تقف عند حد الانتظار، وإنما تفاعلت مع ذلك المعتقد محاولة تحقيق علاماته واستدعاء مقدماته؛ فالطوائف الرئيسية من أصحاب تلك الديانة وهم: الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت؛ جميعهم يؤمنون بعودة المسيح ثانية، ويستعدون منذ قرن كامل لمجيئه.

ولكن البروتستانت -على وجه الخصوص- أصبحوا أصحاب الاهتمام الأكبر بعقيدة الانتظار من الناحية العملية، فعندما أنشأ (مارتن لوثر) المذهب البروتستانتي؛ دفعته ميوله اليهودية إلى اعتبار التوراة هي الأساس الوحيد لقبول الإيمان، وبما أن التوراة قد احتوت نبوءات عن مسيح يخرج في آخر الزمان؛ فقد ركَّب أتباعه تلك النبوءات على شخص عيسى عليه السلام، خاصة وأن مصادر أهل الكتاب تنسب عيسى عليه السلام إلى داود عليه السلام من جهة أمه مريم -عليها السلام-، ومن هنا انتقل معتقد المسيح عند اليهود واختلط بمعتقد النصارى البروتستانت في عيسى عليه السلام، ولما كانت التوراة تنص على أن مسيحًا سيجيء قبيل الألفية الأخيرة، وأنه سيحكم من القدس، وأنه سيعيد العبادة إلى الهيكل بعد بنائه؛ فقد تبنى البروتستانت كل هذه العقائد، وزاد من تثبيتها عندهم: أن الأناجيل التي معهم وردت فيها نصوص صريحة عن عودة عيسى عليه السلام، ولم يكن ممكنًا للنصارى أن يسلِّموا لليهود بأن نبوءات التوراة عن مسيح سيأتي في آخر الزمان هي عن مسيح آخر غير ابن مريم.

لقد تواطأ الكتابان (التوراة والإنجيل) معًا ليكونا عند النصارى -بخاصة البروتستانت- عقيدة لا تتزحزح عن عودة المسيح بن مريم إلى الأرض في آخر الزمان، وزاد النصارى على ذلك في معتقدهم: أن اليهود الذين سيكونون قد تجمَّعوا في القدس قبل عودة عيسى عليه السلام سيتنصرون هناك عند عودته.

تقول الكاتبة الأمريكية (لي أوبرين) في «المنظمات اليهودية الأمريكية ونشاطاتها في دعم إسرائيل» (ص٢٨٦):

«إن المذاهب اللَّاهوتية لكثرة من فيها من البروتستانت تصف إنشاء دولة اليهود بأنه تحقيق لنبوءة توراتية، وهي تذهب -أيضًا- إلى تجمع اليهود، وهو مجرد تمهيد لتنصيرهم قبل المجيء الثاني للمسيح».

وعندما انعقد المجمع العالمي للكنائس النصرانية في (إفناستون) عام (١٩٥٤م)، قدمت له اللجنة المختصة ببحث علاقة اليهود بالكنيسة تقريرًا؛ كما في «مجلة الأمل» عدد (١٠٤) سنة (١٩٨٢م)، جاء فيه:

«إن الرجاء المسيحي بالمجيء الثاني للمسيح لا يمكن بحثه عبر فصله عن رجاء شعب اليهود الذي لا نراه بوضوح فقط في كتاب العهد القديم، بل فيما نراه من عون إلهي دائم لهذا الشعب، ولا نرتاح قبل أن يقبل شعب اللّه المختار المسيح كملك».

وأصدر الأساقفة المجتمعون في ذلك المؤتمر البيان التالي: «إننا نؤمن أن اللّه اختار اليهود - الشعب المختار- لكي يتابع خلاص البشرية، ومهما كان موقفنا، فلا نتمكن من نكران أننا أغصان قد تطعَّمت على الشجرة القديمة (إسرائيل)، ولذلك؛ فإن شعب العهد الجديد لا يمكن أن ينفصل عن شعب العهد القديم.. إن انتظارنا لمجيء المسيح الثاني يعني أملنا القريب في اعتناق الشعب اليهودي للمسيحية، وفي محبتنا الكاملة لهذا الشعب المختار».

*** ماذا تخفي هذه المحبة؟!**

يعجب الإنسان عندما يكتشف أن تلك المشاعر الدينية الحميمة من النصارى تجاه اليهود، هي مشاعر مزيفة، ومصلحية، فيبدو أن نصارى الغرب قد درجوا على تقديم المصلحة في كل شيء حتى في الدين، فاليهود عندهم هم القنطرة التي سيعبرون فوقها نحو أمجاد الأيام الأخيرة، فلن يأتي المسيح ولن يقيم مملكة الرب (النصرانية) إلا بعد أن يعاد اليهود إلى فلسطين، ويسكنوا القدس ويبنوا الهيكل، ثم ماذا..؟! ثم يخرج مسيحهم المنتظر (المسيح الدجال)، ليعيث في الأرض فسادًا، ويملأها كفرًا وإجرامًا، ثم يِأتي عيسى ﷺ ليذبحه ويقتل ثلثي اليهود ويبقى ثلث يتوجب تنصيرهم!!

فهل يؤمن النصارى بمسيح آخر سيأتي في وقت مجيء المسيح بن مريم؟!

نعم؛ إنهم يؤمنون بذلك.. ويطلقون على ذلك المسيح (christ-Anti)، أي: ضد المسيح، أو (المسيح الدجال)!!

*** النصارى والمسيح الدجال:**

يعتقد النصارى -خاصة البروتستانت- أن هناك عدوًّا كافرًا طاغيًا قاسيًا سيخرج قبيل عودة عيسى ﷺ، وأنه سوف يكون من اليهود، فأمه امرأة يهودية، وستلتهم جيوشه العالم بعد أن يخرج من شمال إسرائيل، أو بالتحديد من سوريا، من قبيلة

(دان)، ويؤمنون أنه سيبدأ بدعوى الصلاح، وينتحل شخصية المسيح المخلِّص، ثم لا يلبث أن يتحول إلى دعوى الربوبية التي سيتبعه عليها أكثر الناس؛ نظرًا للخوارق التي ستجري على يديه، والتي سيقلِّد بها أفعال الإله: في الإحياء، والإماتة، وإنزال المطر، وإنبات النبات والزرع، ويؤمنون بأنه سيعتلي منبر الهيكل بعد إعادة بنائه، وسيهدم مقر البابوية في روما، وسيضطهد (المؤمنين)! ويضيق عليهم حتى يبلغ البؤس مداه، وعند ذلك يتدخل الإله، وينزل المسيح بن مريم؛ لينقذ بقايا المؤمنين بعد أن يقتل المسيح الدجال، ويقاتل أتباعه من اليهود وقوم (يأجوج ومأجوج)، ويتفرغ بعد ذلك لإقامة مملكة الرب التي سيسودها السلام.

إن هذه العقائد التي لا يزال يحتفظ بها النصارى عن المسيح الدجال؛ هي من بقايا ما أخبر به الأنبياء تحذيرًا منه، فقد أخبر الرسول ﷺ: أن جميع الأنبياء حذروا منه أممهم، وإنه لم تكن فتنة منذ ذرأ اللَّه ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وأنا آخر الأنبياء وأنتم خير الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة.

وقد أخبر الرسول ﷺ أن الدجال يهودي وأمه يهودية، ويخرج من قرية يقال لها: اليهودية، وأخبر أن أكثر أتباعه من اليهود، وأخبر أنه سيغزو كل الأرض عدا مكة والمدينة والقدس ومنطقة الطور، وأخبر أن الخوارق ستجري على يديه؛ مما يزيد من فتنة الناس به ويضاعفها، حتى تكون فتنته أعظم فتنة في تاريخ البشر منذ خلق اللَّه آدم عليه السلام.

والمقصود: أن النصارى يؤمنون بخروج الدجال، وبيهوديته، واتباع اليهود له، وبأنه سيسود العالم كله، ولكنهم مع ذلك يؤمنون بأن عيسى عليه السلام سينزل في غمرة فتنة الدجال؛ ليخلِّص العالم منه، ومن اليهود أيضًا!

إذن ففرح النصارى باليهود ورعايتهم لهم في عصرنا، هو أشبه بفرح علماء المختبرات بالعثور على الفئران أو الضفادع أو الحيات النادرة التي لا يمكن إنجاح التجارب إلا بها، وهذه المخلوقات على وضاعتها، وحقارتها، وخطورتها، تلقى كل الرعاية والحرص، لا حبًّا فيها؛ ولكن لأن الاختبارات لن تجتاز إلا بها! فالمسيح لن يأتي إلا بعد خروج الدجال، والدجال لن يأتي إلا بعد عودة اليهود إلى القدس وهدمهم

للأقصى وبنائهم للهيكل وذبحهم للبقرة.

فاليهود على هذا شر لابد منه، والدجال قَدَرٌ لابد من مواجهته، وهذا الدجال الذي تؤمن النصارى بحتمية خروجه، قد وردت بشأنه الأخبار في مصادرهم، ففي «الإنجيل رسالة بولس إلى أهل تسالونيكي» (الإصحاح الثاني/ ٣) هذا النص:

«لا يخدعنَّكم أحد بوجه من الوجوه؛ لأنه لابد أن يسبق الارتداد أولًا، ويظهر إنسان الخطيئة ابن الهلاك».

والنص هنا يذكر الارتداد، فلا بد إذن أن تكون ردة، ولكن ردة مَن؟ وعن ماذا؟!

إن النصارى أنفسهم يتقاذفون اليوم التهم بهذه الردة التي يقول الإنجيل إنها لابد أن تسبق أولًا، ولهذا فهم يتبادلون التكفير بين طوائفهم، بحيث أن كل طائفة تتهم الأخرى بأنها ستكون من أنصار الدجال عدو المسيح، فالنصارى الشرقيون العرب -وأكثرهم من الأرثوذكس- يعتقدون أن طوائف الكاثوليك الغربيين هم نصارى بالاسم فقط، وأنهم سيكونون مع الدجال ومع أعداء المسيح! يقول القس ناشد حنا في «تفسيره لسفر دانيال» (ص٦١):

«مما لا شك فيه أن المسيحية المرتدة سيعاد توحيدها، ولكن هذا الاتحاد سيكون خاليًا من تعاليم المسيح، ستتحد جميع الأنظمة المرتدة، وستستعيد الكنيسة البابوية نفوذها وسلطانها، وستشكل جميع كنائسها هيئة عظيمة واحدة تضم جميع أجزاء النصرانية.. هذه الكنائس ستكون مستمدة قوتها من البابوية، وستكون خادمة للوحش»، أي: المسيح الدجال.

ويقول هذا القس في «تفسير سفر الرؤيا» (ص٣٠٧-٣٧٣):

«يستطيع ذو البصيرة أن يرى بوضوح بوادر الانتكاس من اليوم -يعني: في الانحياز للدجال، وتكوين المعسكر ذي الرءوس العشرة-، وإنه من الغرابة بمكان أن تكون نهاية المدنية والاستنارة الذهنية في المسيحية المرتدة هي عبادة الإنسان للشيطان».

ويقول سركيس في كتابه «العلاقة بين اليهودية والمسيحية»:

«ليس هناك فرق بين إسرائيل وبين المسيحية إلا بالاسم، ففي يوم قادم -وهو قريب جدًّا-، سيتعامل الرب بقضائه المخيف مع المسيحيين بالاسم».

ويقول إيرنسايد في «تفسير سفر دانيال» (ص١٣١):

«إن عشر قوى أوربية ستتحد في تحالف واحد، وسيصبح هؤلاء العشرة بمثابة حاكم واحد لأوربا، وهذا الحاكم هو الوحش».

ويقول القس صايغ في كتاب «مشتهى الأمم» (ص٥٧):

«الكنيسة المرتدة ستعطي الوحش -الدجال- الصلاحية التامة ليمثلها ويمثل اليهود، وسيرتبط الجميع بمعاهدة لحماية الدولة اليهودية».

ويقول: «المسيح الدجال سيكون دكتاتورًا عالميًّا، وسيكون هو الرئيس العالمي لليهود والمسيحيين المرتدين».

والغريب أن البروتستانت ينظرون إلى كاثوليك أوربا هذه النظرة؛ كما في «النبوءة والسياسة» (ص٤٣)، فهم يؤمنون أن الوحش الذي ورد ذكره في «سفر الرؤيا»، يعني أنه سيكون هناك اتحاد قوي من عشر دول أوربية سوف تنهض في الأيام الأخيرة، وأن قيام المجموعة الأوربية المكونة من عشر دول هو تحقيق لهذه النبوءة، ودليل على أننا نعيش فعلًا الأيام الأخيرة؛ لأن هذه القوى الأوروبية ستكون معادية للمسيح؛ لأنها ستكون مرتدة عن المسيحية التي بشر بها!!

ومع اتهام طوائف النصارى بعضهم لبعض بأنهم أتباع الدجال عندما يخرج- كما في «سفر حزقيال» (الإصحاح-١٢/ ١٦)-؛ فإنهم يجمعون على أن اليهود هم طليعة أنصاره، ورأس حربته، وهم الذين سيقودون معسكر أعداء المسيح، ولهذا فهم يعتقدون أن اللَّه سينتقم منهم في القدس وسيخربها، ثم يُخلِّصها منهم، ويورِّثها للمسيح وأتباعه!

يقول القس (رشاد فكري) في «تفسير سفر حزقيال» (ص٥٩):

«مرة أخرى ستذوق أورشليم غضب اللَّه وقضاءه في نهاية الدهر، والمسيحية في الغرب قد انهارت؛ حتى إن الذين كان أجدادهم في القرون الماضية يشنُّون الحروب الصليبية -بذريعة حماية القدس-؛ باعوا فلسطين لليهود في القرن العشرين».

ويقول متى هنري في «تفسيره لإنجيل متى»:

«يجب أن نعلم أن الخراب سيتتابع على اليهود أينما كانوا، كما يتعقب النسر الفريسة».

ويقول إيرنسايد في «تفسير دانيال» (ص١٣٣):

«إننا نرى الآن أن اليهود قد تجمعوا في فلسطين، وجاءوا من أوربا الشرقية والغربية إلى أرض آبائهم، فيالهذا الشعب التعيس المخدوع، فهم يتصورون أنهم وجدوا ملجأً في آخر الأمر يكونون فيه بمأمن من الاضطهاد وبمنأى من الخطر لا! إنهم يهيئون أنفسهم على غير علم منهم لمعصرة غضب الرب».

ويقول (ص١٣٤): «سينصب المسيح الدجال نفسه الإله الوحيد الجدير بالعبادة، وله سيبدي المسيحيون المرتدون ولاء مطلقًا، وسينتحل لنفسه أمام اليهود صفة مسيحهم الموعود به منذ عهد بعيد على ألسنة الأنبياء، ويقبل اليهود ادعاءاته ويقولون: هذا هو حقًّا المسيح الذي طالما انتظرناه، وهذا هو الذي يتكلم كتابنا المقدس عنه».

إن المرء ليعجب أن يكون هذا حديث نصارى عن نصارى، أو حديث نصارى عن يهود، ولكن العجب يزول عندما نتذكر قول اللَّه -تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقوله -تعالى-: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣].

فالجميع أعداء الجميع، والجميع يريد أن ينتقم من الجميع، والجميع مع هذا كله ينتظرون، ويتحسّبون ويُرتبون.

إن من حقنا أن نعجب، ومن حقنا أن نتساءل: إذا كانت كل طائفة تدَّعي أن المخلِّص منها، وأنهم أتباعه وأنصاره، وتدعي في مبغضيها أنهم أتباع الدجال وأنصاره؛ فمن إذن هم الأتباع الحقيقيون للدجال الذي يتبرأ منه الجميع الآن، فإذا جاء كانوا أول المسارعين لنصرته والإيمان به؟!

*** لمن سيخرج الدجال:**

نحن لا نشك أن اليهود بمجموعهم سيكونون طليعة أنصار الدجال؛ فهو منهم وإليهم، وبخاصة يهود الشرق الذين سيخرج فيهم[1].

أما النصارى؛ فعلى الرغم من أنهم يزعمون أنهم سيكونون في جيوش المسيح الحق ضد المسيح الدجال، فاللَّه يعلم أنهم - بجميع طوائفهم- هم الذين هيئوا أنفسهم بأنفسهم؛ لكي يكونوا أول المصدقين بدعيٍّ من البشر يدّعي الألوهية، أليسوا هم الذين اعتنقوا عقيدة (المسيح الإله القادر على كل شيء)؟! والمسيح الدجال سيقول: أنا المسيح الإله القادر على كل شيء!

فما الذي سيكون مستغربًا في دعوة الدجال على مسامع النصارى الذين لا يستهجنون، ولا يستبعدون أن يتجسد الإله في صورة إنسان؟! بخاصة وأنه لن يمنعهم -ومعهم اليهود- من مشاركته في فرض السيطرة النهائية على العالم باعتبارهم أتباعه.

إننا نؤمن كما أخبرنا الرسول ﷺ أنه سيبلغ سلطانه كل منهل، وسيدخل كل أرض، باستثناء مكة والمدينة والقدس وأرض الطور.

أي: ستكون له (حكومة عالمية)، وكلًا من اليهود والنصارى يؤمنون بأن مُنتَظَرَهم سيقيم مملكة عالمية، فإذا رأى اليهود منه ذلك -وهو يهودي مثلهم- وإذا رأى النصارى منه ذلك- وهو يقول لهم: إنه المسيح المخلِّص، والإله القدير-؛ فما الذي سيمنعهم من الإيمان به؟!

---

(١) من الغريب أن يهود إيران لم يهاجروا للآن إلى دولة اليهود المزعومة في جند فلسطين المسلمة! فهل يعدون أنفسهم رصيدًا مدخرًا ليوم المجيء؟!

إن النصارى اليوم -على اختلاف طوائفهم- يشكلون ما يقرب من ثلث سكان العالم، والله أعلم كم سيبلغون إذا خرج فيهم من يهيئون الدنيا لمقدمه، ظنًّا منهم أنهم يهيئونها للمسيح عيسى بن مريم ﷺ، إن هؤلاء-، مع مسيحيّتهم- كفار بنبوة عيسى وعبوديته؛ ولهذا سيسارعون بتصديق من يقول: إنه هو المسيح الإله!

ولهذا؛ فإن الله -تعالى- سوف يزيل هذه الغمَّة بإنزال عيسى نفسه، حيث سيسقط في أيدي من ضلوا وأضلوا كثيرًا من البشر عبر القرون مدعين: أنه إله أو ابن إله، وسُيدفعون دفعًا إلى الإيمان بأن عيسى نبي الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ليس بإله ولا ابن إله، إنما هو كما قال الله عنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وعند نزوله سيرون ذلك رأي العين، ويسمعون منه كلامه الفصل؛ كما قال -سبحانه-: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

أما بقية القطعان البشرية الوثنية -من ملايين البوذيين، والهندوس، والملحدين، واللَّادينيين، ونحوهم-؛ فإنه لا حجاب بينهم وبين الإيمان بالدجال! إذا خرج، وقال لهم: إني أنا الإله، فهؤلاء وهؤلاء لن تزيدهم عقائدهم الوثنية التي تؤلّه الأحجار والأشجار والأنهار والأبقار إلا فتنة بالبشر المخلوق للفتنة، إذا جاء وقال لهم: إني أنا الإله، وشرع يجذب أبصارهم بالخوارق، وأسماعهم بالشبهات، وبطونهم وفروجهم بالشهوات!

إن من الغرائب مثلًا أن نعلم أن الوثنيين الآن في الأرض هم أكثر البشر عددًا؛ فالصين الشعبية البوذية وحدها تبلغ مليار من البشر وزيادة، ويقترب منهم الهندوس، وهناك ما يزيد العجب: إذا علمنا أن البوذيين -كما في «مقارنة الأديان» (ص١٨٠)- ينتظرون عودة (ابن الإله) -بوذا- قبل يوم القيامة! فهم يؤمنون بأنه ولد من عذراء، وتعمد بالماء المقدس، وعندما مات دفن، فشق قبره وعاد للحياة، ولكن صعد إلى السماء، وسيعود إلى الأرض، فهو عندهم ابن الإله الذي لا أول له ولا آخر -تعالى الله عما يفترون-، فهو مثل الإله الأب، وهو الابن الوحيد الذي تجسد في الناسوت، وسيقدم نفسه لافتداء البشرية، ومن ثم يسميه أتباعه (المخلِّص).

فياللَّه من الضلال الذي يضرب بأطنابه في أرجاء الأرض، وأنحاء المعمورة التي خربتها العقائد الشركية والكفرية والوثنية! هل سيجد الدجال صعوبة في جر هؤلاء لفتنته إذا خرج؟! هل يمكننا أن نتصور حجم فتنة تساق البشرية كلها لها -إلا من رحم اللَّه- بحيث تتكتل خلف إنسان يدعي الألوهية؟! حقًّا إنها ستكون أعظم فتن التاريخ البشري؛ كما أقسم على ذلك الصادق المصدوق ﷺ: «**واللَّهِ، ما بَيْنَ خَلْقِ آدم إلى قيام الساعة أَمْرٌ أَعْظَمُ من الدَّجال**».

إنها الفتنة التي كانت كل الفتن، وكل الشبهات، وكل العقائد الضالة على مَرِّ التاريخ بمثابة إعداد وإمداد لها؛ كما قال ﷺ: «**ما صُنِعَت فِتْنَةٌ منذ كانت الدُّنيا صَغِيرة ولا كَبِيرة إلا لِفْتنةِ الدَّجال**».

إنها الفتنة التي يسارع اليهود والنصارى الزمن لتهيئة العالم لها، ويظنون أنهم سيكونون خارجها.

نحن نؤمن معهم أن المسيح بن مريم سيعود، ونؤمن معهم أن الدجال سيخرج، ولكن شتان بين إيمان وإيمان، وبين عودة وعودة، فإيماننا: أن عودة عيسى عليه السلام هي القدر الإلهي الحكيم الذي سيضع النهاية للاختلاف الذي عم الأمم حوله، ولا يمكن أن ينتهي ذلك الاختلاف في شأنه إلا بعودته:

يقول ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» في كلامه على نزول عيسى عليه السلام: «إن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض، ويؤمن به أهل الكتاب الذين اختلفوا فيه اختلافًا بيِّنًا؛ فمن مدّعي إلهيته؛ كالنصارى، ومن قال فيه قولًا عظيمًا، وأنه ولد ريبة؛ وهم اليهود، فإذا أنزل قبل يوم القيامة تحقق كلٌّ من الفريقين كذب نفسه فيما يدعيه من الافتراء».

أما الدجال؛ فلا نشك في خروجه، وإن كنا لا نعلم موعده، ولكن مقصودنا هنا التنبيه على أن اليهود والنصارى يستعدون لخروجه، ومع ذلك فهو مسيح الضلالة الذي تعاقب به أمتا الضلالة، الذين تكبروا عن الإيمان بمحمد سيد الرسل -عليه صلوات اللَّه وسلامه-، وفضلوا أن يبقوا على ديانات منسوخة، لم تلبث أن تحولت إلى ديانات ممسوخة بالافتراء على اللَّه والكذب على أنبياء اللَّه.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «الجواب الصحيح» (١/ ١٧٧): «اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى بن مريم، بل هو آخر ينتظرونه، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال؛ فإنه الذي يتبعه اليهود، ويخرج معه سبعون ألف مطيلس[١] من يهود أصبهان».

ويقول ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ في «هداية الحيارى» (ص٦٥):

«فالمسلمون يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند اللَّه بالهدى ودين الحق، الذي هو عبد اللَّه ورسوله وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول، والنصارى إنما تؤمن بمسيح دعا إلى عبادة نفسه وأمه، وأنه ثالث ثلاثة، وأنه اللَّه -أو ابن اللَّه-، وهذا هو أخو المسيح الكذاب لو كان له وجود[٢]، فإن المسيح الكذّاب (الذي ينتظره النصارى) يزعم أنه اللَّه، والنصارى في الحقيقة أتباع هذا المسيح، كما أن اليهود إنما ينتظرون خروج مسيح، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بُشِّروا به، فعوّضهم الشيطان من الإيمان به بعد مجيئه انتظارًا للمسيح الدجال. . وهكذا كل من أعرض عن الحق يُعوَّض عنه بالباطل».

الانتظار الانتظار إذن. . هو الموقف الراهن.

. . . لكن اليهود والنصارى يتعجلون اليوم أمر الساعة أكثر من أي يوم مضى، ولا ندري ما هي الأقدار المخبّأة وراء تلك العجلة.

إن أهل الإيمان الحق ليسوا على عجلة من أمرهم في شيء، وهم يعلمون أن اللَّه لا يعجل بعجلة الناس، ويعلمون أن أمر الساعة شيء عظيم؛ ولهذا فهم لا يتعجلونها، ولا يتعجلون أماراتها؛ لأنهم يخشون الابتلاء والفتنة، ولا يعرف أحدهم: هل ينجو في أيام (الفتن والملاحم)، فيكون من المهتدين، أم يسقط في الفتنة إذا اشرأبَّت له؛ فيكون من الهالكين عياذًا باللَّه؟

---

(١) والطيلسان: هو رداء الصلاة عند اليهود، ويطلق عليه بالعبرية: (طاليت)، وهو أشبه في رسمه وألوانه بالعلم الإسرائيلي اليوم، وما ذكره ابن تيمية ورد في حديث أخرجه مسلم في «صحيحه».

(٢) أي: لو كان لمسيح النصارى بهذا الوصف وجود.

وما أهل الإيمان وأهل الكتاب والساعة إلا كما قال اللَّه -تعالى-: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]» اهـ.

إن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان حاكمًا بالكتاب والسنة وناصرًا لشريعة الإسلام، ثابت بصريح القرآن والسنة المتواترة.

أولًا: الأدلة من القرآن:

١- قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل هذه الآية: أن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجع لعيسى عليه السلام، وأنه حين ينزل في آخر الزمان لا يبقى أحد من أهل الكتاب في ذلك الزمان الموجودين في ذلك الزمان إلا آمن به وصدقه.

قال شيخ المفسرين ابن جرير: «وأولى هذه الأقوال بالصواب: قول من قال: تأويل ذلك: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ بعيسى قبل موت عيسى.

وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال؛ لأن اللَّه -جلّ ثناؤه- حكم لكل مؤمن بمحمد ﷺ بحكم أهل الإيمان في الموارثة، والصلاة عليه، وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة، فلو كان كلّ كتابيّ يؤمن بعيسى قبل موته؛ لوجب ألّا يرث الكتابيّ إذا مات على ملته إلا أولاده الصغار، أو البالغون منهم من أهل الإسلام؛ إن كان له ولد صغير أو بالغ مسلم، وإن لم يكن له ولد صغير، ولا بالغ مسلم؛ كان ميراثه مصروفًا حيث يصرف مال المسلم، يموت ولا وارث له، وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغسله وتقبيره؛ لأن من مات مؤمنًا بعيسى؛ فقد مات مؤمنًا بمحمد وبجميع الرسل، وذلك أن عيسى -صلوات اللَّه عليه- جاء بتصديق محمد وجميع المرسلين -صلى اللَّه عليهم-، فالمصدّق بعيسى، والمؤمن به: مصدّق بمحمد، وبجميع أنبياء اللَّه ورسله؛ كما أن المؤمن بمحمد مؤمن بعيسى وبجميع أنبياء اللَّه ورسله، فغير جائز أن يكون مؤمنًا بعيسى من كان بمحمد مكذبًا.

فإن ظنَّ ظانٌّ: أن معنى إيمان اليهوديّ بعيسى، الذي ذكره اللَّه في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] إنما هو إقراره بأنه للَّه نبيّ مبعوث، دون تصديقه بجميع ما أتى به من عند اللَّه؛ فقد ظنّ خطأً؛ وذلك أنه غير جائز أن يكون منسوبًا إلى الإقرار بنبوَّة نبيّ من كان له مكذبًا في بعض ما جاء به من وحي اللَّه وتنزيله، بل غير جائز أن يكون منسوبًا إلى الإقرار بنبوة أحد من أنبياء اللَّه؛ لأن الأنبياء جاءت الأمم بتصديق جميع أنبياء اللَّه ورسله؛ فالمكذب بعض أنبياء اللَّه في بعض ما أتى به أمته من عند اللَّه، مكذب جميع أنبياء اللَّه فيما دعوا إليه من دين اللَّه عباد اللَّه.

وإذا كان ذلك كذلك، وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين على أن كل كتابي مات قبل إقراره بمحمد -صلوات اللَّه عليه- وما جاء به من عند اللَّه، محكوم له بحكم الملة التي كان عليها أيام حياته، غير منقول شيء من أحكامه في نفسه وماله وولده -صغارهم وكبارهم- بموته عما كان عليه في حياته؛ أدلّ الدليل على أن معنى قول اللَّه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، إنما معناه: إلا ليؤمننّ بعيسى قبل موت عيسى، وأن ذلك في خاصّ من أهل الكتاب، ومعنيٌّ به أهل زمان منهم دون أهل كل الأزمنة التي كانت بعد عيسى، وأن ذلك كائن عند نزوله.

كالذي عن أبي هريرة: أن نبيّ اللَّه ﷺ قال: «**الأَنْبِياءُ إِخْوَةٌ لِعَلاّتٍ؛ أُمّهاتُهُمْ شَتّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وإِنّي أَوْلى النّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ؛ لأنّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيّ، وَإنّهُ نازِلٌ، فإِذَا رأَيْتُمُوهُ فاعْرِفُوهُ؛ فإِنّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الخَلْقِ إلى الحُمْرَةِ وَالبَياضِ، سَبْطُ الشّعْرِ، كأنّ رأسَهُ يَقْطُرُ وَإنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، بينَ مُمَصّرَتَيْنِ، فَيَدُقّ الصّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، وَيُفِيضُ المَال، وَيُقاتِلُ النّاسَ على الإسْلام حتى يُهْلِكَ اللّهُ فِي زَمانِهِ المِلَلَ كُلّها غيرَ الإسْلامِ، ويُهْلِكُ اللّهُ فِي زَمانِهِ مَسِيحَ الضّلالَةِ الكَذّابَ الدّجّالَ، وَتَقَعُ الأمَنَةُ فِي الأرْضِ فِي زَمانِهِ؛ حتى تَرْتَعَ الأُسُودُ معَ الإبِلِ، والنّمُورُ مَعَ البَقَرِ، وَالذّئابُ مَعَ الغنمِ، وَتَلْعَبُ الغِلْمانُ وَالصبيانُ بالحَيّاتِ لا يَضُرّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمّ يَلْبَثُ فِي الأرْضِ ما شاء اللّه**» -وربما قال: أَرْبعينَ سَنة-، **ثم يُتوفى ويُصَلي عَليه المُسلِمُون وَيَدْفنُونه**»[١].

(١) «جامع البيان» (٧/ ٦٧٢-٦٧٤).

قلت: جاء عن أبي هريرة ﵁، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نَفْسي بِيَده؛ ليوشكنَّ أن يَنْزِلَ فيكم ابنُ مَريم حكمًا مُقْسطًا، فَيَكْسِر الصليب، ويَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، ويفيض المالُ حتى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**».

ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]»[١].

وهذا صريح في أن مذهب أبي هريرة ﵁ أن الضمير في: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعود على عيسى ﵇.

ولا نعلم له مخالفًا من الصحابة.

قال الشيخ أحمد شاكر ﵀: «وقوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: عيسى»، يريد أن الضمير في «موته» عائد على عيسى، فهو تفسير للضمير.

وهذا هو الثابت في «الأصول الثلاثة»، وفي «جامع المسانيد»، و«تفسير ابن كثير»: قبل موت عيسى؛ بدون ذكر الضمير؛ فيكون تفسيرًا لمعنى الآية، لا حكاية للفظها، ثم تفسير اللفظ، والأمر قريب.

وهذا هو المعنى الصحيح للآية؛ أنه: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى؛ كما قال الطبري.

وهو -أيضًا- يردُّ على من أنكر أن عيسى ﵇ لا يزال حيًا في السماء لم يمت، وأنه رفعه الله إليه.

ويدل على أنه سينزل من السماء في آخر الزمان؛ كما ثبت من الأحاديث المتواترة في ذلك»[٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

وقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

(٢) «شرح المسند» (١٥/ ٢٧-٢٨).

﴿ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠].

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل هذه الآيات: أن عيسى كلَّمهم في المهد، وسيكلمهم إذا نزل لقتل الدجال، وهو يومئذ كهل.

وقد ذهب إلى ذلك جمع من السلف.

وثمة أمر آخر: أن كل الناس يتكلمون كهولًا؛ فما معنى تخصيص عيسى بذلك؟! إلا أن يكون خرقًا للمألوف المعتاد، وهذا لا يتحقق إلا بنزوله من السماء!

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١]

أي: أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان دليل على اقتراب الساعة، فهي تُعلم بنزوله، فلا تشكَّن فيه.

وهذا هو القول الصحيح في تأويل هذه الآية؛ لأن النبي ﷺ فسرها بذلك.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، قال: «**نُزُولُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ**»[١].

قال شيخنا رحمه الله: «واعلم أن الحديث صريح الدلالة على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ يعود إلى عيسى عليه السلام، وليس إلى القرآن- كما روي عن بعضهم-؛ ولذلك قال الحافظ ابن كثير:

«بل الصحيح: أنه عائد على عيسى عليه السلام؛ فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، أي: قبل موت عيسى عليه السلام، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة، إمامًا عادلًا، وحكمًا مقسطًا»»[٢].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٨١٧)، وصححه شيخنا رحمه الله في «الصحيحة» (٣٢١٨)، و«التعليقات الحسان» (٦٧٧٨).

(٢) «الصحيحة» (٧/ ١/ ٦٣٤-٦٣٥).

ثانيًا: الأدلة من السنة:

١- صرح جمهور المحدثين والمحققين بتواتر أحاديث نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان؛ كالطبري، والنووي، والقاضي عياض، وابن تيمية، والذهبي، وابن قيم الجوزية، وابن كثير، وابن حجر، والشوكاني، والألوسي، وابن عطية، وأبو حيان، وصديق حسن خان، والكتاني، وأحمد شاكر، وشيخنا الإمام الألباني -رحمهم اللَّه-، وغيرهم.

وقد صنف محمد أنور شاه الكشميري كتابه الفذ: «التصريح بما تواتر في نزول المسيح»، فقال (ص٥٦) تحت عنوان: أحاديث نزول عيسى عليه السلام متواترة: «ولعلك عرفت مما ذكرنا أن الأحاديث في هذا الباب متواترة، وقد صرح به جماعة من المحدثين» وذكرهم.

وقال شيخنا محدث العصر الإمام الألباني رحمه الله في «قصة المسيح الدجال» (ص٢٤-٢٥): «وللرد على أصحاب هذه الطريقة مفصلًا مجال آخر غير هذا، ويكفي في ذلك اتفاق أهل العلم بالحديث وحفاظه على تواتر حديث الدجال، ونزول عيسى عليه السلام من السماء؛ كالحافظ ابن كثير، وابن حجر وغيرهما، بل إن الإمام الشوكاني ألف رسالة سماها: «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح».

وقد تيقَّنت -أنا شخصيًّا- بتواتر أحاديث الدجال وعيسى . . . ».

٢- وإليك جملة من مفرداتها والتي لها صلة بمسألتنا:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال؛ قال رسول اللَّه ﷺ: «**وَالذِّي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَيوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فيكم ابنُ مَرْيم حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِر الصَّلِيب، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةِ، وَيَفِيضَ المالُ حتى لا يَقْبَلَهُ -أَحَدٌ، حتى تكونَ السَّجْدَة الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا**»[1].

(١) رواه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

٢- وعند مسلم: «والذِّي نَفْسي بِيَدِهِ؛ لَيوشِكَنَّ[١] أَنْ يَنزِلَ فِيكُم ابنُ مَرْيَم حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكسِرَ الصليب[٢]، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرِ، وَيَضَع الجِزْيَة[٣]، وَيَفِيْضَ المال حتى لا يَقْبَلَهُ أَحدٌ».

ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: «واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُم إذا نَزَل ابنُ مَرْيَم، فِيكُم وإِمَامُكُم مِنْكُم؟[٤]»[٥].

٤- وعن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا تَزَال طَائِفة من أُمّتِي يُقَاتِلُون على الحقِّ، ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزلُ عيسى بن مريم عليه السلام فيقولُ أميرُهم: تَعالَ صَلِّ لنا، فيقول: لا، إنَّ بَعْضَكم على بعض أمراء؛ تَكْرِمَةُ اللَّه لهذه الأُمَّةِ»[٦].

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَيُهِلَّنَّ[٧] ابنُ مريم بفجِّ الرَّوحاء[٨] حاجًّا أو مُعتمِرًا، أو ليثنيهما[٩]»[١٠].

---

(١) أي: لابد من ذلك سريعًا.
(٢) يبطل دين النصرانية، بأن يكسر الصليب حقيقة.
(٣) لا يقبل من النصارى غير الإسلام، أو القتل.
(٤) هو المهدي محمد بن عبد اللَّه عليه السلام.
قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٤٩٣): «الحكمة في نزول عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء: الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبيّن اللَّه -تعالى- كذبهم، وأنه الذي يقتلهم».
قال ابن الجوزي: «لو تقدم عيسى إمامًا؛ لوقع في النفس إشكال، ولقيل: أتراه تقدم نائبًا، أو مبتدئًا شرعًا؟ فصلى مأمومًا؛ لئلا يتدنس بغبار الشبهة وجه قوله: «لا نبي بعدي»».
وقال الحافظ (٦/ ٤٩٤): «وفي صلاة عيسى خلف رجل من هذه الأمة -مع كونه في آخر الزمان، وقرب قيام الساعة -دلالة للصحيح من الأقوال: أن الأرض لا تخلو من قائم للَّه بحجة، واللَّه أعلم».
(٥) رواه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥).
(٦) أخرجه مسلم (١٥٦).
(٧) الإهلال: رفع الصوت بالتلبية، يقول: لبيك اللّهم لبيك.
(٨) الفج: الطريق بين الجبلين، والروحاء: مكان يبعد عن طريق المدينة ستة أميال.
(٩) ليثنيهما: أي: يحرم بالحج والعمرة معًا.
(١٠) رواه مسلم (١٢٥٢).

٦- وعن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «الأنْبِيَاءُ إِخْوَة لعلَّات[١]، أُمَّهاتِهِم شَتَّى ودينُهم واحدٌ، وإنّي أولى النَّاس بعيسى بن مريم؛ لأنّهُ لم يكُنْ نَبِيٌّ بيني وبَيْنَه، وإنه نازِلٌ فاعْرِفوه؛ رجُل مَرْبُوع[٢] إلى الحُمْرَةِ والبياض عليه ثوبان مُمَصَّران، كأنَّ رأسه يَقْطر وإن لم يُصْبه بللٌ، فَيدُق الصَّلِيبَ، ويَقْتُلُ الخنزيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةِ، ويدعو النَّاس إلى الإسلام، ويُهْلِكَ اللَّه في زمانه المِلَلَ إلا الإسلام، وَيُهْلِكَ اللَّهُ في زَمَانِهِ المَسِيحَ الدَّجال، ثم تقَع الأمنَةُ[٣] على الأرض؛ حتى تَرْتع[٤] الأُسُودُ مع الإِبِلِ، والنِّمار مع البقَرِ، والذِّئابُ مع الغنَمِ، ويَلْعَبُ الصبيانُ بالحيَّات لا تضرُّهم، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَة، ثم يتَوَفَّى ويصلي عليه المسْلِمون»[٥].

٧- وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «طُوبى لِعيْشٍ بَعْدَ المَسِيحِ[٦] يُؤَذّن للسَّمَاءِ فِي القَطْرِ[٧]، ويُؤَذّن للأَرْضِ في النَّباتِ؛ حَتّى لو بَذَرْتَ حَبَّكَ على الصَّفَا[٨] لَنَبَتْ، وحتّى يَمُرَّ الرَّجُلُ على الأسَدِ فلَا يَضُرُّه، ويطأ على الحيَّة فلا تَضُرُّه، ولا تشاحَّ[٩] ولا تحاسد، ولا تباغض»[١٠].

٨- وعن أنس ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ أَدْرَكَ مِنْكُم عِيَسى بنَ مَرْيم؛ فَلْيُقرِئْهُ مِنِّي السَّلام»[١١].

٩- وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لَا تَقُوم الساعَة حتى تَنْزِل الرُّوم

(١) علاّت: ضرائر.
(٢) معتدل القامة بين الطويل والقصير.
(٣) الأمن والسلام.
(٤) تلعب.
(٥) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢١٨٢).
(٦) أي: بعد نزول المسيح، وقتله للدجال.
(٧) القطر: المطر.
(٨) الصفا: الصخرة الملساء.
(٩) لا تشاح؛ أي: لا معاداة.
(١٠) «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٢٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٨١٤).
(١١) «السلسلة الصحيحة» (٢٣٠٨)، و«صحيح الجامع» (٥٨٧٧).

بِالأَعْمَاقِ- أَو بِدَابِقَ[١]-، فَيَخْرُجُ إليهم جَيْشٌ من المدينة من خيار أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فإذا تصافّوا؛ قالت الروم: خَلّوا بَيْنَنَا وبَيْنَ الذين سُبُوا منا[٢] نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا واللَّه لا نُخَلّي بينكم وبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُم؛ فَيُهْزَمُ ثُلْثٌ لا يَتُوبُ اللَّه عَلَيْهِم أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلْثُهُم -أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ-، وَيَفْتَحُ الثُّلْثُ لا يُفتنون، فَيَفْتَحُون قُسْطَنْطِينِيَّة[٣]، فبينما هم يَقْسِمون الغَنَائمَ؛ قد عَلَّقوا سُيوفَهم بالزَّيتون[٤]، إذ صاح فيهم الشَّيطان: إن المَسِيحَ[٥] قد خَلَفَكم[٦] في أَهْلِيكم؛ فَيَخْرجُون، وذَلِكَ بَاطِلٌ[٧]، فَإِذَا جَاءوا[٨] الشَّامَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُم يَعْدُّونَ للقِتَالِ، يُسَوّون الصُّفُوفَ؛ إذ أقيمت الصلاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ فَأَمَّهُم[٩] فإذا رآه عَدُوُّ اللَّهِ؛ ذابَ كَما يذوبُ المِلحُ في الماء، فلو تركه لذاب حتى يَهْلَكَ، ولكن اللَّه يقتلُه بِيَدِهِ[١٠]، فَيُريهم دَمَه في حَرْبَتِهِ»[١١].

١٠- عن ابن مسعود ﷺ، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «لَقِيتُ ليلةَ أُسريِ بي إبراهيمَ وموسى وعيسى ﷺ، فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ الساعَةِ؛ فَرَدُّوا أَمْرَهُم إلى إبراهيم، فقال: لا عِلْمَ لي بها، فَرَدُّوا أَمْرَهُم إِلَىَ مُوسَى فقال: لا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا أَمْرَهُم إلى عِيسى، فقال: أَمَّا وَجبتها؛ فَلا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إلا اللَّه، وفيما عهد إليَّ ربي ﷻ أن الدَّجال خَارِج وَمَعِي قَضِيبانِ[١٢]، فَإِذَا رَآني ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ[١٣]. قال: فَيُهْلِكَهُ اللَّهُ إذا رآني، حتى

---

(١) الأعماق ودابق: موضعان بالقرب من مدينة حلب.

(٢) سبوا؛ أي: أسروا وأخذوا منا، ثم آمنوا، وقاتلونا معكم.

(٣) قسطنطينية؛ هي: اسطنبول.

(٤) أشجار الزيتون.

(٥) الدجال الأكبر، وقد لقبه النبي في حديث آخر بمسيح الضلالة.

(٦) خرج وعاث في الأرض.

(٧) هذا القول الذي قاله الشيطان إنما كان باطلًا.

(٨) من القسطنطينية إلى بلاد الشام، ودخلوا القدس.

(٩) فأمهم؛ يعني: أمر إمامهم بالإمامة.

(١٠) بيد عيسى بن مريم -عليه الصلاة والسلام-.

(١١) رواه مسلم (٢٨٩٧).

(١٢) سيفان.

(١٣) هرب واختفى.

إنّ الحَجَرَ والشَّجَرَ يقول: يا مُسْلِم! إنّ تَحْتِي كافرًا فتَعَال فَاقْتُلْهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسَ إلى بِلَادِهِم وأَوْطَانِهِم فَعِنْدَ ذلك يَخْرُجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون، فَيَطَئُونَ بِلَادَهُم، فَلَا يَأْتُونَ على شَيء إلا أَهْلَكُوهُ، ولا يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إلا شَرِبُوه، قال: ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسَ يَشْكُونَهُم، فَأَدْعُو اللَّهَ عَلَيْهِم؛ فَيُهْلِكَهُم وَيُمِيتَهُم، حَتّى تَجْوَى[1] الأرضُ من نتن ريحهم، وينزلُ اللَّهُ المطر؛ فَيَجْتَرِفَ[2] أجسادهم حتى يَقْذِفَهم في البَحْر، ففيما عَهِدَ إلي ربي ﷻ أن ذلك إذا كان كذلك: أن الساعة كالحَامِلِ المُتِمِّ[3] لا يدري بَعْلُها متى تفاجئهم بولادِها ليلًا أو نهارًا»[4].

١١- عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يَخْرُج الدَّجال في أُمَّتِي، فيمكث أربعين -لا أدري: أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا-، فيبعث اللَّه -تعالى- عيسى بنَ مريم؛ كأنه عروةُ بنُ مسعودٍ، فَيُصيبُه فَيُهْلِكَهُ، ثم يمكثُ الناسُ سبع سنين، ليس بين اثنين عَداوةٌ»[5].

١٢- عن مجمع بن جارية رضي الله عنه؛ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لَيَقْتُلَن ابنُ مريم الدجالَ بِبَابِ لُدٍّ»[6].

١٣- عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يَنْزِلُ عيسى بنُ مريم عند المنارةِ البيضاء شرقي دِمَشْق»[7].

١٤- وفي حديث النواس بن سمعان: «... فَبَيْنَمَا هو كذلك؛ إذ بَعَثَ اللَّهُ المَسِيحَ ابن مريم، فينزل عند المنارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْق بين مهرودَتَين، واضعًا كفّيه على أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إذا طَأْطَأَ رَأْسه قَطِرَ، وإذا رفعه تَحَدَّرَ منه جمانٌ كاللّؤلُؤِ، فلا يَحلّ لكافرٍ

---

(١) لا يطيق الإنسان المعيشة عليها من نتن رائحتهم.

(٢) يحملها ويلقيها.

(٣) التي على وشك الوضع.

(٤) ضعيف بهذا السياق: رواه ابن ماجه (٤٠٨١)، وبعضه في مسلم. «السلسلة الضعيفة» (٤٣١٨).

(٥) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٦) «صحيح الجامع» (٥٣٣٨).

(٧) «صحيح الجامع» (٨٠٢٥).

يَجِدُ رِيحَهُ إلا مَات، وَنَفسَهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُه، فَيَطْلُبُه حتّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ»... وفيه: «ثم يقال للأرض: أنبتي ثمَرتِكَ، وردِّي بَرَكَتك فيومئذ تأكل العصابةُ[1] من الرّمَّانَةِ، ويستظلون بِقَحْفِهَا، ويبارك في الرِّسْل[2]، حتى إن اللقحة[3] من الإبل لتكفي الفئام[4] من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[5] من الناس...»[6].

١٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كيفَ أَنْتُم إذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمّكُم؟[7]»[8].

١٦- عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال[9]: «يَا أَيُهَا النَّاسُ! إنّها لَمْ تَكُن فِتْنَةٌ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ منذ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرية آدم -ولا تكون حتى تقوم الساعة- أَعْظَم من فتنةِ الدّجال، ولن ينجو أحدٌ مما قبلها إلا نجا منها، وإنه لا يضرُّ مسلمًا.

وإن اللَّه عز وجل لم يبعثْ نبيًّا إلا حذّر أمته الأعورَ الدجال، إني لأنذركموه.

وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأُمَمِ.

وهو خارجٌ فيكم لا محالة، إنّه لحقٌّ، وأما إنّه قريبٌ، فكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ. إنما يخرجُ لغضبةٍ يغضبُها، ولا يخرُج حتى لا يُقسمَ ميراثٌ، ولا يُفرح بغنيمةٍ.

فإن يخرجْ وأنا بين ظهرانيكم؛ فأنا حجيجٌ لكل مسلم، وإن يخرجْ من بعدي؛ فكل امرئٍ حجيج نفسه، واللَّه خَليفتي على كلِّ مسلمٍ، (وفي حديث أم سلمة: وإن يخرجْ بعد أن أموت يكفيكموه اللَّه بالصالحين).

---

(١) العصابة: الجماعة.

(٢) الرسل: اللبن.

(٣) اللقحة: اللبون.

(٤) الفئام: الجماعة.

(٥) الفخذ من الناس: ما دون القبيلة.

(٦) رواه مسلم (٢١٣٧).

(٧) أمكم: أمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم.

(٨) تقدم تخريجه (ص ٢٠٠).

(٩) من أجمع الأحاديث التي فصلت خروج الدجال، ونزول المسيح وقتله، وقد جمعها في سياق واحد: شيخنا الإمام الألباني رحمه الله في «قصة المسيح الدجال» (ص١٢٩-١٤٩).

وإنه يخرجُ من أرض قبل المشرق، يقال لها: (خراسان)، في يهودية أصبهان، كأنّ وجوههم المجانُّ المطرقة، من خَلَّة بين الشامِ والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالًا، يا عباد اللّه! فاثبتوا -ثلاثًا-.

فإنّي سأصفُه لكم صفَةً لم يصفْها إياه نَبيٌّ قبلي، (وفي حديث عبادة: إنِّي قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت ألاّ تعقِلوا).

إنه يبدأُ فيقول: أنا نبيّ، ولا نَبيَّ بعدي.

ثم يثني فيقول: أنا ربُّكم، ولا ترون ربَّكم حتى تَمُوتوا.

وإنه أَعْور[١]، ممسوح[٢] العين اليسرى، عليها ظفرةٌ[٣] غليظةٌ، خَضراء كأنها كَوْكَبٌ دُرّيٌّ[٤]، عينه اليمنى كأنها عنبةٌ طافيةٌ[٥]، ليست بناتِئَةٍ ولا حجراء، جفال الشعر، ألا ما خفي عليكم من شأنه؛ فلا يخفين عليكم: إن ربكم ليس بأعور، ألا ما خفي عليكم من شأنه؛ فلا يخفين عليكُم: إنّ ربّكم ليس بِأعْور، -ثلاثًا-، وأشار إلى عينيه، وإنكم لن تروا ربَّكم حتى تموتوا.

إنه يمشي في الأرض، وإن الأرضَ والسماءَ للّه.

إنه شابٌّ قطط؛ كأني أشبهه بعبدِ العُزّى بن قطن، قصيرٌ، أفحجٌ، دَعجٌ، هجان.

وإنه آدم، جَعد، جفال الشَّعْرِ[٦].

وإنه مكتوب بين عينيه: كافرٌ؛ يقرؤه من كرِه عَمَله، أو يقرؤه كلُّ مؤمنٍ كاتبٍ أو غير كاتب.

وإن من فتنته: أن معه جنة ونارًا، ونهرًا وماءً، وجبل خبز، وإنه يجيء معه مثل

---

(١) عينه غير بارزة.

(٢) لحمة تنبت عند المآقي، وقد تمتد إلى السواد.

(٣) شديد الاتقاد.

(٤) بارزة، وهي غير الممسوحة.

(٥) خلاف السبط.

(٦) شعث الشعر.

الجنة والنار؛ فناره جنة، وجنته نار.

وسأله المغيرة بن شعبة عنه؛ فقال: إنهم يقولون: معه جبال من خبز ولحم، ونهر من ماء؟ قال: هو أهون على اللَّه من ذلك.

(وفي حديث آخر: معه نهران يجريان، أحدهما -رأي العين-: ماء أبيض، والآخر -رأي العين-: نار تأجج، فمن أدرك ذلك منكم، فأراد الماء؛ فليشرب من الذي يراه أنه نار، وليغمض عينه، ثم ليطأطئ رأسه؛ فإنه يجده ماء باردًا عذبًا طيبًا، فلا تهلّلوا، وفي أخرى: فمن دخل نهره؛ حطّ أجره، ووجب وزره، ومن دخل ناره؛ وجب أجره، وحطّ وزره).

فمن ابتُلي بناره؛ فليستغث باللَّه، وليقرأ عليه فواتح سورة (الكهف)، فإنها جواركم من فتنته.

وإن من فتنته: أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك؛ أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بُنَيَّ! اتّبعه؛ فإنه ربك!

وإن من فتنته: أن يُسلَّط على نفسٍ واحدة فيقتلها، وينشرها بالمنشار؛ حتى تُلقى شقين.

وإن من فتنته؛ أن يمر بالحي فيدعوهم؛ فيكذّبونه، فينصرف عنهم؛ فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت.

وإن من فتنته: أن يمر بالحي فيدعوهم، فيصدّقونه، ويستجيبون له، فيأمر السماء أن تمطر؛ فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت؛ حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه، وأمدّه خواصر، وأدرّه ضروعًا.

ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك؛ فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل.

يخرج في زمان اختلاف من الناس وفرقة (و) بغض من الناس، وخفَّة من الدين، وسوء ذات بين، فيرد كل منهل؛ فتطوى له الأرض طيّ فروة الكبش.

ولا يخرج حتى تنزل الروم بالأعماق -أو بدابق-، يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام؛ فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا؛ قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا؛ والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة؛ فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة؛ فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يُمسوا؛ فيفيء هؤلاء، وهؤلاء كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان اليوم الرابع: نهد إليهم بقية الإسلام، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويقتل ثلثهم -هم أفضل الشهداء عند الله-، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدًا؛ فيجعل الله الدبرة عليهم (أي: الروم)، فيقتتلون مقتلة؛ إما قال: لا يُرى مثلها، وإما قال: لم يُر مثلها، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتًا، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة؛ فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح أو أي ميراث يقاسم؟ فيبلغون قسطنطينية، فيفتحونها.

(وفي رواية: سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق، فإذا جاءوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، ؛ قالوا: لا إله إلا الله، والله أكبر؛ فيسقط أحد جوانبها الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله، والله أكبر؛ فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله، والله أكبر؛ فيفرج لهم فيدخلوها، فيغنموا)، فبينما هم يقتسمون الغنائم -قد علَّقوا سيوفهم بالزيتون-؛ إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح الدجال قد خلفكم في أهليكم؛ فيرفضون ما بأيديهم، فيخرجون، وذلك باطل، فيبعثون عشرة فوارس طليعة.

قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ»، فإذا جاءوا الشام، خرج.

وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه؛ إلا أربعة مساجد: مسجد مكة، ومسجد المدينة، والطور، ومسجد الأقصى.

وإن أيامه أربعون يومًا؛ يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.

قالوا: فذلك اليوم الذي كسنة؛ أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا؛ اقدروا له قدره.

قالوا: وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح.

وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر اللَّه السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر اللَّه السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله، فلا تنبت خضراء؛ فلا تبقى ذات ظلفٍ إلا هلكت؛ إلا ما شاء اللَّه.

قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: التهليل، والتكبير، والتسبيح، والتحميد، ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام.

لا يأتي مكة والمدينة من نقب من نقابها؛ إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة.

وإنه ليس من بلدة إلا يبلغها رعب المسيح الدجال؛ إلا المدينة، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل نقب من نقابها ملكان يذبَّان عنها رعب المسيح.

حتى ينزل عند السبخة -سبخة الجرف-، دبر أحد، فيضرب رواقه.

فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات؛ فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفي الخبث منها كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم: يوم الخلاص، وأكثر من يخرج إليه النساء.

فيتوجه قبله رجل من المؤمنين، ممتلئ شبابًا، هو يومئذ خير الناس، أو من خيرهم-، فتلقاه المسالح -مسالح الدجال-، فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج. قال: فيقولون له: أوَما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء!

فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحدًا دونه؟

فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس! أشهد أن هذا الدجال الذي ذكر (وفي طريق: الذي حدثنا) رسول اللَّه ﷺ حديثه، قال: فيأمر الدجال به فيشبح، فيقول: خذوه وشبحوه، فيوسع ظهره وبطنه ضربًا، قال: فيقول: أوَما تؤمن بي؟! قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب! فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته؛ أتشكُّون في الأمر؟ فيقولون: لا، قال: فيؤمر به فَيُؤْشَرُ بالمئشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، فيقتله (وفي حديث النواس: فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية الغرض).

قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم؛ فيستوي قائمًا.

قال: ثم يدعوه، فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، ثم يقول: يا أيها الناس! إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس.

قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فيُجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا، فلا يستطيع إليه سبيلًا.

قال: فيأخذه بيديه ورجليه، فيقذف به، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما أُلقي في الجنة، فقال رسول اللَّه ﷺ: هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين.

ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام، ثم يأتي جبل إيليا، فيحاصر عصابة من المسلمين، فيلقى المؤمنون شدة شديدة، ويفر الناس من الدجال في الجبال، فقالت أم شريك بنت أبي العكر: يا رسول اللَّه! فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل.

وإمامهم رجل صالح».

وقال ﷺ: «المهدي منا أهل البيت، من أولاد فاطمة، يصلحه اللَّه في ليلة، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يملك سبع سنين».

وقال ﷺ: «عصابتان من أمتي أحرزهما اللَّه من النار: عصابة تغزو الهند،

وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عليه السلام».

وقال: «من أدركه منكم؛ فليقرئه مني السلام».

فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح؛ إذ نزل عليهم من السماء عيسى بن مريم الصبح، عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جمانٌ كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه.

وقال ﷺ: «ليس بيني وبينه نبي (يعني: عيسى)، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين ممصّرتين، كأنّ رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويُهلك اللَّه في زمانه الملل كلها إلا الإسلام».

وقال ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم (وفي رواية: وأمكم) منكم»؟ (قال ابن أبي ذئب: تدري ما «أمكم منكم»؟ قلت: تخبرني. قال: فأمكم بكتاب ربكم -تبارك وتعالى-، وسنة نبيكم ﷺ).

فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى؛ ليتقدم عيسى، فيقول له: تعال صلِّ لنا؛ فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له: لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة اللَّه هذه الأمة، تقدم فصلِّ؛ فيصلي بهم إمامهم.

ثم يأتي الدجال جبل (إيلياء)، فيحاصر عصابة من المسلمين، فيقول لهم الذي عليهم: ما تنتظرون بهذا الطاغية إلا أن تقاتلوه حتى تلحقوا باللَّه، أو يفتح لكم؟ فيأتمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا.

فبينما هم يعدُّون للقتال، ويسوُّون الصفوف؛ إذ أقيمت الصلاة -صلاة الصبح-، فيصبحون ومعهم عيسى بن مريم، فيؤم الناس، فإذا رفع رأسه من ركعته قال: سمع اللَّه لمن حمده، قتل اللَّه المسيح الدجال، وظهر المسلمون، فإذا انصرف قال: افتحوا الباب- فيُفتح، ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلًّى وساج، فيطلبه عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

فيذهب عيسى بحربته نحو الدجال، فإذا نظر إليه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله اللَّه بيده، فيريه دمه في حربته، فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله، فيهلكه اللَّه ﷻ عند عقبة أفيق.

فيهزم اللَّه اليهود، ويسلط عليهم المسلمون، ويقتلونهم، فلا يبقى شيء مما خلق اللَّه يتوارى به يهودي؛ إلا أنطق اللَّه ذلك الشيء؛ لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة -إلا الغرقدة؛ فإنها من شجرهم لا تنطق- إلا قال: يا عبد اللَّه المسلم! هذا يهودي ورائي، فتعال فاقتله.

ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا، ليس بين اثنين عداوة.

فيكون عيسى بن مريم -عليه الصلاة والسلام- في أمتي مصدقًا بمحمد ﷺ على ملته حكمًا عدلًا، وإمامًا مهديًا مقسطًا، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويذبح الخنزير، وتجمع له الصلاة، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وتُرفع الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعونّ إلى المال فلا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها، وتكون الدعوة واحدة لرب العالمين.

والذي نفسي بيده؛ ليهلَّن ابن مريم بفجِّ (الروحاء) حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنينهما.

ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم اللَّه منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة.

فبينما هو كذلك؛ إذ أوحى اللَّه إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور.

ويبعث اللَّه يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بُحيرة طبريا، فيشربون ما فيها! ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرَّةً ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخَمر -وهو: جبل بيت المقدس-، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلم لنقتل من في السماء؛ فيرمون بنشَّابهم إلى السماء، فيردّ اللَّه عليهم نشَّابهم مخضوبة دمًا.

ويُحصر نبي اللَّه عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي اللَّه عيسى وأصحابه؛ فيرسل اللَّه عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى، كموت نفس واحدة.

ثم يهبط نبي اللَّه عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي اللَّه وأصحابه إلى اللَّه؛ فيرسل اللَّه طيرًا كأعناق البخت فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء اللَّه.

ثم يرسل اللَّه مطرًا لا يكنُّ منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة.

ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردِّي بركتك.

فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرِّسل؛ حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، وتكون الفرس بالدريهمات.

وقال ﷺ: «طوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح، يؤذن للسماء في القطر، ويؤذن للأرض في النبات، فلو بذرت حبَّك على الصفا لنبت، ولا تشاح، ولا تحاسد، ولا تباغض.

وتنزع حمة كل ذات حمة، وتقع الأمنة على الأرض؛ حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره، وتفرُّ الوليدة الأسد فلا يضرّها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السِّلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة؛ فلا يعبد إلا اللَّه، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، ثم يقال: تكون الأرض كفاثور الفضة، تنبت نباتها بعهد آدم.

فيمكث عيسى -عليه الصلاة والسلام- في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون.

فبينما هم كذلك؛ إذ بعث اللَّه ريحًا باردة من قبل الشام، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم (وفي حديث ابن عمرو: فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه)، ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، قال: فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارَّة أرزاقهم حسن عيشهم، يتهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة.

ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا، ورفع ليتًا، وأول من يسمعه: رجل يلوط حوض إبله، فيصعق، ويصعق الناس.

ثم يرسل اللَّه -أو قال: ينزل اللَّه- مطرًا كأنه الطل أو: الظل- شك من الراوي-؛ فتنبت منه أجساد الناس ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ثم يقال: يا أيها الناس! هلمّ إلى ربكم، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين؛ فذاك يوم ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، وذلك ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]».

* * *

نزول المسيح ودلالته على أن المستقبل للإسلام

قصة المسيح ونزوله في آخر هذه الأمة حكمًا عدلًا ، تدل دلالة واضحة على : أن المستقبل للإسلام وحده، بإذن اللَّه وحده؛ من وجوه متعددة :

أولًا : نزول عيسى عليه السلام يكون في الأمة الإسلامية ليكون حاكمًا عادلًا ؛ مما يدل على أن الإسلام سينتشر في زمانه انتشارًا عظيمًا .

ثانيًا : أن جميع أهل الكتاب في زمانه يؤمنون به ، ويدخلون في الإسلام؛ لأنه لا يقبل الجزية .

ثالثًا : قيامه بالعمرة والحج ؛ يدل على إعلاء شعائر الدين .

رابعًا : دعوته الناس إلى الإسلام، وهلاك جميع الملل إلا الإسلام؛ تصريح أن المستقبل للإسلام وحده .

خامسًا : قتله للدجال الذي ملأ الأرض ظلمًا وشرًّا ، دليل على أن المستقبل للإسلام، الذي سيملأ الأرض إيمانًا وأمنًا وأمانًا .

سادسًا : قتله للخنزير ، وكسره الصليب ، ووضع الجزية يدل؛ على أمرين :

أ- انتهاء الصليبية المنتسبة إليه ظلمًا وجورًا ، وهي من أكثر أهل الأرض عددًا .

ب- انتصار الإسلام ، وانتشاره وسيطرته .

* * *

نزول المسيح ودلالته على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

وأحاديث نزول عيسى عليه السلام تدل دلالة واضحة على أن مستقبل الإسلام سيكون على منهج السلف الصالح:

أولًا: اتفاق العلماء على أن عيسى عليه السلام يحكم بكتاب اللَّه وسنة رسوله محمد ﷺ، لقوله ﷺ: «... **ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا**»، وقوله: «**كَيْفَ أنتُم إِذَا نَزَلَ ابنُ مريمَ فأمَّكُم؟**»، والكتاب والسنة مرجعية المنهج السلفي.

ثانيًا: عيسى بن مريم عليه السلام نبي وصحابي: أما إنه نبي؛ فظاهر، وأما إنه صحابي؛ فقد رأى رسول اللَّه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، ولذلك فهو آخر الصحابة موتًا.

قال الذهبي في «تجريد أسماء الصحابة» (١/ ٤٣٢): «عيسى عليه السلام صحابي ونبي؛ فإنه رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء وسلَّم عليه، فهو آخر الصحابة موتًا».

فدل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الصالح.

ثالثًا: ائتمامه في الصلاة بالمهدي دليل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف؛ لأن المهدي حاكم سلفي، وأمير الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، وخليفة راشد.

رابعًا: الطائفة المنصورة يقاتل آخرها الدجال، والذي يقتله المسيح عليه السلام؛ فدل على أن المسيح بن مريم يقود في معركته الأخيرة مع الدجال الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، وهم أتباع السلف الصالح أهل الحديث والسنة والجماعة.

خامسًا: الجيش الذي يقوده المسيح عليه السلام هو الذي يفتح القسطنطينية، ويكون عائدًا إلى الشام، وهو جيش المهدي عليه السلام.

سادسًا: هلاك اليهود واستئصالهم من الأرض يكون في زمانه، حتى يقول الشجر

والحجر: يا مسلم! يا عبد اللّه! هذا يهودي ورائي تعال فاقتله؛ دليل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف؛ لأن هذا الجيل الذي أقام العبودية للّه هو الذي سيحقق ذلك.

* * *

أحاديث قتال اليهود ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

أ- عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**تُقَاتِلُكم (وفي رواية: تقاتلون، ورواية أخرى: لتقاتلنَّ) اليهود، فَتُسَلَّطُون عَلَيهِم، [فلتقتلنَّهم]؛ حتى [يختبئ أحدهم وراء الحجر، فـ]يقولُ الحجرُ: يا مسلمُ! هذا يهوديٌّ ورائي [فتعال] فاقتله**»[1].

ب- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمون (وفي رواية: تقاتلوا) اليهود، فَيَقْتُلهم المسلمون؛ حتى يختبئَ اليهوديُّ مِن وراءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فيقولُ الحَجَرُ أو الشَجَرُ [وراءه اليهودي]: يا مسلم! يا عبد اللَّه! هذا يهوديٌّ خَلْفِي (وفي رواية: ورائي) فَتَعَال فاقْتُلْهُ؛ إلا الغَرْقَد؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ**»[2].

فقه الحديث:

١- إخباره ﷺ بأن المسلمين سيقاتلون اليهود، ويُسلَّطون عليهم.

٢- بيان خطورة عداء اليهود للإسلام، وحقدهم على أهله.

٣- أن قتال اليهود في آخر الزمان لن يكون مع الصحابة رضي الله عنهم، لأن الصحابة رضي الله عنهم قد مضوا إلى ربهم، ولذلك فإن الذين يقاتلون اليهود في آخر الزمان مَن هم على سبيل الصحابة؛ ولذلك خاطب الرسول ﷺ الصحابة رضي الله عنهم وكأنهم هم.

وهذا أسلوب لُغوي معروف، وطريقة قرآنية معلومة؛ فإن القرآن الكريم خاطب بني

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦/ ١٠٣/ ٢٩٢٥و٦٠٤-٦٠٥/ ٣٥٩٣)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٣٨-٢٢٣٩/ ٢٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦/ ١٠٣/ ٢٩٢٦)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٣٩/ ٢٩٢٢).

إسرائيل في زمن الرسول ﷺ بما كان عليه أسلافهم الذين مضوا؛ لأنهم جميعًا على منهج واحد سواء.

ولذلك صح خطاب رسول اللَّه ﷺ بقوله: «**لتقاتلن اليهود**».

قال الحافظ ابن حجر: «قوله «**تقاتلكم اليهود**»، فيه: جواز مخاطبة الشخص والمراد من هو بسبيل؛ لأن الخطاب كان للصحابة ﷺ، والمراد: من يأتي بعدهم بدهر طويل؛ ولكن لما كانوا مشتركين في أصل الإيمان ناسب أن يخاطبوا بذلك»[١].

٣- تقرير هزيمة اليهود، وأنهم يختبئون من المسلمين وراء الشجر أو الحجر.

٤- أن الجيل الذي سيهزم اليهود هم من حقق عبودية اللَّه في الأرض، وأقام الدين؛ فاستحق التمكين ونال الاستخلاف في العالمين، وهذا منهج الصحابة التربوي الإصلاحي.

٥- وقد وردت أحاديث صحيحة تدل على أن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة يقاتل آخرها الدجال وأتباعه من اليهود والخوارج والمنافقين؛ كما تقدم[٢].

ويدل على هذا -أيضًا- آيات محكمات؛ فالذي يتدبر فواتح سورة الإسراء يرى عجبًا؛ فهي تؤكد أن جولة الإسلام مع اليهود في المستقبل ستكون في جانب المسلمين.

وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات تتكلم عما مضى من الزمان، وتخبر عن أحداث انقضت، وسيرة قوم اندثروا.

لكن هذه الآيات لم يصح فيها حديث مرفوع، وليس للسلف فيها قول واحد معتمد يُعَوَّل عليه، وتطمئن النفس إليه.

وهذه الروايات الكثيرة التي يسوقها المفسرون في هؤلاء المسلَّطين على بني إسرائيل من الإسرائيليات، والموضوعات التي فيها من العجائب والغرائب والمبالغات ما

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٦١٠).

(٢) انظر (ص ١٦٢- ١٦٣).

لا يُصدَّق، وفيها ما لا يحتمله الصدق ألبتة، وقد نقل ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا منها عن ابن إسحاق؛ الذي يذكر صراحة اسم أهل الكتاب، وأنهم يقولون كذا، أو عندهم كذا، وموقف المسلم تجاهها معروف؛ وهو: عدم التصديق ولا التكذيب؛ إلا إذا خالفت شرعًا أو عقلًا.

وأما دعوى إجماع السلف على أن الإفسادين حدثا؛ فمردود منقوض بعدم نقله ابتداء، وحصول الخلاف انتهاء.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلَّطين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده... وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل -سنحاريب- وجنوده، وعنه -أيضًا- وعن غيره: أنه بختنصَّر -ملك بابل-، وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في ترقيه من حال إلى حال...

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثًا أسنده عن حذيفة مرفوعًا مطولًا، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب فيه من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه موضوع مكذوب.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة، لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد.

وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ورسوله إليهم... ولو وجدنا ما هو صحيح -أو ما يقاربه-؛ لجاز كتابته وروايته، والله أعلم»[1].

ناهيك أن معرفة الماضي على التفصيل من أنباء الغيب التي لا يعلمها إلا الله؛ كما ورد صريحًا في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٧ - ٢٨).

﴿قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، ولا يمكن معرفة ذلك إلا بوحي صريح، ونقل صحيح.

ولذلك دعونا نعود إلى دراستها وتحليلها من جديد؛ لنجد فيها النافع الماتع المفيد، فمن علَّمه اللَّه تأويل القرآن المجيد كان عنده المزيد... إذ لا مجال للشطحات في تفسير اليقين القرآني، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال -تعالى-: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٨].

أولًا: الآيات تثبت إفسادين اثنين يُحْدِثُهما بنو إسرائيل، فلو كان المقصود بالإفسادين: أنهما فيما مضى من الزمان وانقضى؛ فإن التأريخ يثبت أن بني إسرائيل أفسدوا مرات كثيرة، فلم يفسدوا مرتين -فقط-؛ بل أفسدوا مرارًا وتكرارًا، ولكن هذين الإفسادين هما قمة فسادهما، ولما كانوا كذلك سلط اللَّه عليهم من يسومهم سوء العذاب؛ فقد سباهم بختنصر الكلداني، وسرجون الآشوري، وتيطس الروماني وغيرهم.

قال الحافظ ابن كثير: «وقد أخبر اللَّه عنهم لمَّا طغوا وبغوا سلط اللَّه عليهم عدوهم؛ فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء»[1].

ثانيًا: لم يُذكر في التأريخ كرَّة بني إسرائيل على من سباهم فيما مضى وانقضى،

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٨).

بينما الآيات تثبت أن لبني اسرائيل كرَّة على من يسومهم في الإفساد الأول: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾، فتدبر.

ثالثًا: لو كان المقصود بالإفسادين أنهما مضيا؛ لم يخبر عنهما بـ (إذا)، لأن لفظ (إذا) يفيد معنى الظرفية والشرطية في المستقبل لا في الماضي، فكيف يخبر عن الماضي الغابر بحرف يفيد المستقبل؟!

ولو كان الإفسادان قد وقعا في تلك الأزمنة؛ لاستعملت (لما) بدلًا من (إذا)، وهناك كلمة أخرى تدل على وقوع هذين الإفسادين في المستقبل، وذلك بعد نزول الوحي على رسولنا محمد ﷺ، وهي قوله -تعالى-: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾، فاللام والنون كلتاهما للتوكيد في المستقبل.

رابعًا: كذلك قوله -تعالى-: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ يدل على المستقبل؛ لأنه لا يقال: (وعد)، إلا لشيء لم يأت بعد، أو أمر لم يتحقق منه شيء، والوعد يُؤخذ على نية أن يكون أو لا يكون، ولكن الوعد من اللَّه أمر حتمي، فمعنى كلامه-سبحانه-: أنه يقول للناس: لا تأخذوا هذا الوعد على أساس قضية استقبال الوعود من الناس؛ لأن الناس قد يعدون ما لا يملكون، وقد يعدون ما لا يكون ضمن قدراتهم، ولكن اللَّه الذي قال ذلك لا يخرج شيء عن قدرته؛ فوعده محقق لا ريب فيه.

خامسًا: أن الحكام والأقوام الذين سبوا بني إسرائيل في القِدَمِ كانوا كفارًا وثنيِّين، فكيف يصفهم اللَّه بقوله: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾؟

فإن هذا الوصف يشير إلى أنهم من المؤمنين، وليس من المشركين- أو عبدة الأوثان-؛ لأن هذا الوصف لا يطلق في الأغلب إلا على العباد المؤمنين المخلصين، فالإضافة هنا للتشريف، ولا شرف ولا عزة إلا للمؤمنين.

ويدل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ [الفجر: ٢٩]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

سادسًا: سيكون في الإفساد الثاني تدمير مبان شاهقة عالية، والتأريخ لم يذكر أنه كان لبني إسرائيل في العهد المنصرم هاتيك المباني.

هذه جملة من الحقائق التحليلية لهذه الآيات، تؤكد: أن الإفسادين سيكونان بعد نزول سورة الإسراء؛ فلنستقرئ التأريخ الذي كانت فصوله بعد نزول هذه الآيات البينات والحجج الدامغات.

سورة الإسراء -أو بني إسرائيل- مكية، نزلت على رسول اللَّه ﷺ قبل الهجرة، تتحدث عن تأريخ بني إسرائيل ومواقفهم من الرسالات الإلهية، وتمردهم على أنبيائهم، وإقدامهم على الفساد في الأرض، ثم تنذرهم بأسوأ أنواع العقاب، وتذكرهم بأنهم في آخر الزمان سيجابهون أحداثًا مريرة، تفضي إلى تدميرهم، ودونك تفصيل ما ذكر:

*** الإفساد الأول:**

اليهود قوم اجتمعت فيهم عناصر تقنع الناس بأنهم أعداء للبشرية بأسرها؛ لأنهم يمثِّلون قمة التحريف في دين اللَّه، وزعموا: أنهم سادة البشر ومن دونهم عبيد، وهذا فحوى عقيدة شعب اللَّه المختار.

فما من دولة -أو أمة- إلا أخرجتهم حينما كشفت فسادهم وحسدهم وضغنهم، ومن شاء أن يعرف مستقبلهم مع الإسلام ومع الدنيا جميعها؛ فليتدبر قول رب العزة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وما عاشوا في أمة من الأمم؛ إلا كانوا منبوذين في أماكن وأحياء تعرف بأسمائهم؛ كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

إن تعبيرات القرآن عن اليهود في غاية الدقة؛ لأن قائلها هو اللَّه، فلم يجد اليهود أمانًا في أمة من الأمم إلا إذا أعطاهم دين من الأديان أمانًا، وهذا معنى قول اللَّه -تعالى-: ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، أو إذا حالفوا قومًا أقوياء وعاشوا في حمايتهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾، فلا يدفع الذلة إلا حبل من اللَّه، أو حبل من الناس.

وفي هذه الآية نكتة بلاغية؛ فاللَّه -سبحانه- عندما ذكر الذلة استثنى، ولكنه لما ذكر المسكنة لم يستثن؛ لأن المسكنة أمر ذاتي في نفوسهم لا يرفعه شيء، فليس لهم عزة ذاتية تقابل الذلة، بل عزتهم بحبل من اللَّه، أو بحبل من الناس.

وكذلك تعبيرات القرآن غاية في الدقة حينما تصفهم في البلاد التي عاشوا فيها، فاللَّه -سبحانه- قال فيهم ما صدَّقه الواقع: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] مزَّقناهم شر ممزق، فأصبحوا في كل بقعة من الأرض فئة، وهذه الفئة كانت تعيش وكأنها أمة داخل أمة، ولذلك قال الحق: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾، فقد كانوا مجتمعين في البلاد التي سكنوها وسط أحياء تُعرف باسمهم.

ولكن بعد أن شتتهم بنيانوس وتيطس لم تقم لهم قائمة؛ إلا فئة قليلة أتت إلى أرض العرب؛ لأسباب كثيرة، منها:

١- أمنية؛ وذلك لأنهم خافوا على أنفسهم من بطش الرومان.

٢- ومستقبلية؛ لأنه يوجد في التوراة عندهم أوصاف نبي يظهر في أرض العرب، فأتوا إلى أرض العرب ظانِّين أن النبي ﷺ سيكون منهم، فلذلك كانوا يستفتحون على القبائل العربية في المدينة، فكانوا يقولون: إنه سيأتي نبي، لئن أدركناه؛ لنقتلنكم به قتل عاد.

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وعندما بعث رسول اللَّه ﷺ كانت لهم دولة، فبعلمهم بالكتاب أخذوا الريادة الفكرية، وبشغلهم بدنيا المال أخذوا الزعامة الاقتصادية، وكانت لهم سلطة سياسية؛ لأنهم ورَّثوا العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج.

وهاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، وكان اليهود قد استأثروا بخيرها، وفرَّقوا أهلها، وأوقدوا نار الحرب بينهم، وأشعلوا العداوة القاتلة في صفوفهم كلما خبا لهيبها، فكانت الحروب قائمة على قدم وساق؛ فاستبدُّوا، وكانت لهم مراكز السيطرة، ومناطق النفوذ.

فلما وصل رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة: ظهر حقدهم؛ فانقلب فرحهم ترحًا، وقوتهم ضعفًا، وسلطانهم ذلًّا، وكان ينبغي أن يستقبله اليهود بالإيمان؛ لأن اللَّه جعل كلام أهل الكتاب حجة يواجه بها الرسول ﷺ المشركين: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

ومن العجب: أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا... قالوا كلامهم.. وحماقتهم: أنهم قالوه؛ لأنهم لم يفيدوا منه، بل أفاد منه قوم آخرون -وهم الأوس والخزرج-، فلما قدم رسول اللَّه ﷺ قالوا: هذا الرسول الذي توعدتكم به يهود؛ فلنسبقهم إلى الإيمان به... إذن لا يعلم جنود ربك إلا هو... حتى الكافرين قد يكونون من جند اللَّه وهم لا يعلمون... وهذه غفلة من أعداء اللَّه؛ لينتصر عباد اللَّه.

ولم يَعْتَدِ رسول اللَّه ﷺ، ولكن أحفاد الغدر وأرباب الخديعة نابذوه، وحاولوا قتله، ونقضوا عهده، وألَّبوا القبائل ضده، وبلغ الفساد ذروته بقولهم الفاسد: إن عبادة الأوثان خير من دين التوحيد، والسجود للأصنام أعز من السجود للَّه؛ فبلغ السيل الزّبى، واستشرى فسادهم، واعتدوا على عورات المسلمين، وخانوا رسول اللَّه ﷺ في مواضع الحرج والضيق؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥١-٥٤].

فما كان من رسول اللَّه ﷺ إلا أن جهز الجيوش؛ وجاس خلال الديار؛ فشتت شملهم، ونكَّل بهم، فاضمحلَّت قوتهم، وفرُّوا من جزيرة العرب خوفًا من العطب، وقضى على بقاياهم في جزيرة العرب: الخليفة العادل، عملاق الإسلام؛ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما طردهم من خيبر؛ تنفيذًا لوصية رسول اللَّه ﷺ، فطهر أرض الإسلام من الرجس والنجس.

إذن؛ فالإفساد الأول وقع في عهد النبوة؛ بدليل قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وقد اضطر رسول اللَّه ﷺ إلى

تأديبهم، ومعاقبتهم، وإخراجهم من ديارهم، واستئصال شأفتهم، وفاقًا لما جاء في فواتح سورة الإسراء: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، وكما ورد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾ [الحشر: ٢]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وبهذا التأديب النبوي انقطع حبل اللَّه عنهم، فضربوا في الأرض بحثًا عن قوم أقوياء يحالفونهم؛ ليعيشوا في حمايتهم. . . وهذا ما سنراه -إن شاء اللَّه- في السطور القادمة.

وبهذا التفصيل تأتي الأحداث التأريخية منسجمة مع الآيات؛ لأن القرآن حينما يخبر يأتي الواقع التأريخي حسبما أخبر؛ لأن واقع الحياة يعلمه الحق، وقائل الكلام هو الحق؛ فلا تضارب ولا تعارض أبدًا، فالإخبار بـ (إذا) التي تفيد الظرفية والشرطية في المستقبل تأكدت دلالته، والذين جاسوا خلال الديار هم محمد ﷺ وجنده المؤمنون المخلصون، فأنعم بهم من عباد لذي الجلال والإكرام ﷻ، فصح وصفهم بـ ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾.

*** كَرَّةُ بني إسرائيل:**

وانقضى عهد النبوة والخلافة الراشدة، وابتعد المسلمون عن القرآن شيئًا فشيئًا، فتفرقت بهم السبل، وغرقوا في بحر الفرقة اللجب، فاستوت بهم سفينة الافتراق على صخرة التنازع؛ حتى بلغوا الفشل، وذهبت ريحهم.

وفي غفلة من المسلمين، وبُعْدٍ عن دينهم؛ لملمت فلول الشرذمة الخبيثة قواها المبعثرة، وأعادوا الكرَّة على شر خلف لخير سلف، فأذلوهم وأذاقوهم العذاب والتشريد والتنكيل والتضييق ألوانًا، وانهالت المساعدات على دولة الصهاينة، ذاك الطفل المدلل للمعسكَرين الشرقي -الشيوعي والغربي -الرأسمالي-؛ فالأول يمدها بالرجال، والثاني يمدها بالأموال، فأصبح يهود أكثر نفيرًا من المسلمين الذين وصلوا في هذه الآونة إلى حال لا نظير لها في تأريخهم الطويل؛ فإن الخط البياني لوجودهم

الروحي والعسكري يمس القاع.

ولدت دولة اليهود في وقت هان فيه كثير من المسلمين على اللَّه، وعلى الناس وعلى أنفسهم، فالغرب الصليبي في عنفوان قوته، وعندما قرر إقامة دولة يهود على أنقاض شعب فلسطين المسلم؛ لم يحسب للعرب المسلمين أي حساب، ولم يقدِّر لوجودهم أية قيمة، أما الشرق الشيوعي الذي تبوأت روسيا قمته؛ فقد كان ينظر للمسلمين على أنهم أمة تافهة تائهة، ويرمق حكامهم بازدراء، ومن ثَمَّ أيدت روسيا وجود دولة يهود، وقررت إزالة أهل فلسطين، وشاركت الغرب الصليبي في أقذر جريمة.

ولماذا نلوم أعداءنا على هذا المسلك؟ فهم قوم يخدمون مصالحهم وأهدافهم، وقد استجابوا بهذه الفعلة مع طبيعتهم، إنما تقع اللائمة على كثير من المسلمين الذين نسوا اللَّه؛ فأنساهم أنفسهم، الذين يأبون الإسلام شعارًا لهم في المجال العالمي، أو حياة لهم في الميدان الداخلي.

وقامت دولة المسخ اليهودي في فلسطين على قدميها، وسط المسلمين المشدوهين؛ ولذلك قد يقول قائل: إن عدد المسلمين اليوم يزيد عن مليار ونصف نسمة، واليهود لا يتجاوزون بضعة ملايين... نقول له: على رسلك؛ فإن المراد: أن بني إسرائيل يصبحون أكثر نفيرًا من المؤمنين المخلصين؛ لأن الصراع الحقيقي بين الفرقة الناجية التي تمثل الحق وبين جماهير الباطل، مهما اختلفت ألوانهم وجنسياتهم.

عن عمران بن حصين ﵄ مرفوعًا: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ على الحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأهُم، حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُم المَسِيحَ الدَّجَّالِ**»[1].

ومن المعلوم: أن اليهود من أتباع المسيح الدجال(!) وهم ينتظرون خروجه(!!)[2].

---

(١) مضى تخريجه (ص ١٦٢).

(٢) انظر -لزامًا- (ص ١٩١).

عن أنس بن مالك: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يَتْبَع الدَّجالَ من يهودِ أصبَهان سبعون ألفًا، عَلَيهم الطَّيَالسةُ**»[1].

وأمر آخر: فإن كلمة ﴿نَفِيرًا﴾ تعني: القوم الذين يتنافرون إلى القتال، واليهود من هذه الناحية قد فاقوا المسلمين من حيث القوة والتدريب والتجهيزات العسكرية والاستعدادات الحربية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

وهذه الكرة تأديب لكثير من المسلمين الذين نسوا منهج اللَّه، وفُتنوا بمناهج الأرض، فأرادوا التحليق في الدنيا بجناح المادة؛ فخذلهم جناح الإيمان، فكُبكِبُوا على وجوههم، وسحبوا على مناخرهم، وإذا أراد اللَّه تأديب قوم انسلخوا عن منهجه بعدما كانوا مؤمنين به، سلَّط عليهم قومًا لا يرقبون فيهم إلًّا ولا ذمَّة.

ولكن هذه الكَرَّة لن تطول بإذن اللَّه ذي الحول والطول؛ ففي هذه الآيات تعبير بحرف العطف (ثم)، الذي يفيد الترتيب مع التراخي، والتأريخ أثبت بدون شك أن كرَّة بني إسرائيل حدثت بعد مدة طويلة، بل بعد قرون من الإفساد الأول، ولكن التعبير القرآني عن الإفساد الثاني يستخدم حرف العطف (الفاء)، الذي يفيد الترتيب مع التعقيب: إعلامًا للمسلمين أن الكرة والزهو والخيلاء لن تطول، إنما هي فترة محدودة وجيزة، تمكنهم من التجمع في الأرض المباركة؛ كي يلقوا مصارعهم هناك -بإذن اللَّه- على يد جند اللَّه؛ من عباد الرحمن الذين يحققون في أنفسهم ومجتمعهم العبودية الخالصة للَّه وحده، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه.

*** الإفساد الثاني:**

وأصبح لليهود في بيت المقدس واقع، فعاثوا في الأرض فسادًا، وقتلوا النساء والشيوخ والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، وحرقوا مسرى رسول اللَّه ﷺ، ومزقوا كتاب اللَّه، وعمَّ فسادهم وطمَّ، وبلغ ذروته؛ حيث العهر، والفجور، والرذيلة، والقتل، واستباحة أعراض المسلمين، وَسلْبُهم والتنكيل بهم، ونقض العهود والمواثيق.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٤).

إذن؛ فالإفساد الثاني مستمر، وهو الآن -واللَّه أعلم- في قمة علوه وعربدته؛ لأنه ليس بعد هذا الإفساد إفساد.

أيوجد إفساد أعظم من تحريق بيوت اللَّه؟!

أيوجد إفساد أشد من تمزيق كتاب اللَّه وركله بالأرجل؟!

أيوجد إفساد بعد تقتيل الأطفال والشيوخ والنساء، وتكسير عظامهم بالحجارة، وإهلاك الحرث والنسل؟!

أيوجد إفساد أكبر من إعلان الحرب جهارًا نهارًا على الإسلام ودعاته؟!

إنَّ هذا -وايم اللَّه- لهو قمة الفساد.

وجميع المحاولات التي طُرحت لحل الخلاف العربي اليهودي[1]، ولتسوية قضية مسلمي فلسطين؛ باءت بالفشل الذريع، والخسران المبين؛ لأن الأمر كله بيد اللَّه، لا بقرارات (هيئة اللمم) و(مجلس الفتن).

وأمامنا اليوم بسطة من الأدلة، ووفرة من البراهين تبيح القول: بأن قضية فلسطين غدت سلعة للمساومة والتراضي، بعدما عجزت الأطراف المشاركة في (اللعبة) من التوصل إلى حل يشبع رغبات وميول الجميع، ولكن الأخطبوط الصهيوني لا يفتأ يمد أذرعه السامة بين الفينة والفينة؛ ليجد فريسة يحقق على كاهلها مآربه التوراتية المزعومة. ومما هو جدير بالقول: إن هذا ديدن اليهود قديمًا وحديثًا، فلعل مسلمي

(١) هذا اصطلاح إعلامي مهزوم، تتداوله وكالات الأنباء، ووسائله المشبوهة في العالم الإسلامي، وله تأثير سيئ على المسلمين:
١- إخراج المسلمين من حلبة الصراع ومعترك النزاع مع يهود؛ حيث يتكرر على مسامعهم أن الصراع: عربي يهودي، وكأنه صراع قوميات، أو اقتصاديات، أو أرض. . . !
٢- تقزيم لحقيقة الصراع الإسلامي اليهودي؛ فإن القتل والقتال والجهاد والاستشهاد هو من المسلمين لليهود؛ لأن الصراع الحقيقي صراع عقيدة ودين ووجود لا حدود.
٣- مقدمة لتقزيم حقيقة الصراع، حيث سمعنا بأخرة: أنه صراع فلسطيني يهودي!! وكذلك يفعل الإعلام المشبوه؛ لنعلم أن اليهود يحاربوننا بكل وسيلة، حتى في المصطلحات، ليصلوا إلى مرادهم بكل حيلة. . . فاللَّه المستعان.

فلسطين -بخاصة- يستفيقون من غفوتهم بعد أن كُبكبوا فيها؛ لأنهم تنكَّبوا جادة الحق والصواب، وهاكم دليلًا من التأريخ المعاصر نسوقه للعبرة والتذكير... فهل من مدكر؟

يعمد الصهاينة إلى رشوة الزعماء والحكام؛ لتحقيق أهدافهم التلمودية، ولبناء وطنهم في أرض الميعاد المزعومة، على أنقاض الشعوب المغلوبة على أمرها... ولكن المعصوم من عصمه اللَّه: فعندما عقدوا مؤتمر (بال)، وقررت الشرذمة المشردة أن تجمع فلولها في أرض الميعاد المزعومة؛ صمموا على اتباع السبل الشيطانية المغرية في البداية؛ ليتجنبوا المواجهة المباشرة مع مسلمي فلسطين، فعرضوا على السلطان عبد الحميد رَحِمَهُ اللَّهُ مبالغ طائلة -وكان في مأزق اقتصادي- بشرط أن يسمح لهم بالهجرة إلى فلسطين... فرفض[1](!).

وفي سنة (١٩٤١م) حاولوا رشوة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، فأوفدوا الكولونيل (هوسكنس) من كبار موظفي القسم الشرقي في وزارة الخارجية الأمريكية، في محاولة لإقناع الملك عبد العزيز بالتنحي عن قضية فلسطين مقابل عشرة ملايين جنيه استرليني ذهبًا، فلما علم الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك رفض أن يبحث مع (هوسكنس) الأمور التي تتعلق بفلسطين، فعاد (هوسكنس) من مهمته بخفي حنين[2].

وزعماء اليهود وأنصارهم ما انفكوا يعملون منذ أعطاهم (بلفور) -وزير خارجية الإنجليز- ما لا يملك، ووعدهم بإنشاء وطن قومي في فلسطين عام (١٩١٧م) بشتى الوسائل، ومختلف الأساليب على تحقيق مآربهم وأهدافهم وغاياتهم، وإن تغنَّوا بالسلم والسلام وحفظ الجوار والمعاملة بالمثل؛ فإن هذا كله شنشنة عرفناها من أخزم.

وفي الآيات لفتة لُغوية رائعة؛ فلم يذكر اللَّه -سبحانه- دخول المسجد الأقصى في

(١) «مذكرات السلطان عبد الحميد».

(٢) «التجربة والخطأ» (ص٥٢٦).

وهذا الكتاب مذكرات زعيم الحركة اليهودية العالمية، وأول رئيس لدولتهم في فلسطين المسلمة السليبة، صدر عام (١٩٤٩م).

المرة الأولى منفصلًا مستقلًّا؛ لأنه كان طليقًا منهم، وذكره في المرة الثانية ملحقًا مع ذكر الدخول. . . فما نكتة ذلك؟

الآيات تتحدث عن إذلال اليهود، وأن المؤمنين المخلصين للَّه سيتبِّرون ما علا اليهود، ويسوءون وجوههم؛ فدخول المسجد الأقصى في المرة الأولى لم يكن إذلالًا لليهود؛ لأنه كان تحت سيطرة الرومان، بينما في المرة الثانية سيكون اليهود فيه، ودخوله وهم فيه: إذلال ومسخ وهوان لهؤلاء المغضوب عليهم ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، لأن الآيات تدل على أن المسلمين المخلصين الممثَّلين في الفرقة الناجية سيهزمون اليهود، وينكِّلون بهم، وسيدخلون المسجد الأقصى؛ ليستعيدوا هذه الضَّالة من الأمة الضَّالة، وهذا يعني: أن اليهود سيكونون في بيت المقدس حيث المسجد الأقصى، وهاهم اليوم اتخذوا القدس عاصمة أبدية لهم؛ كما يزعم ساداتهم وكبراؤهم. . . !!

*** القضاء على اليهود:**

وتستمر الآيات ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾، فعباد اللَّه سيهدمون قلاع الصهاينة، ويدُكُّون حصونهم، ويدمرون مستوطناتهم، وينسفونها، ولم تعهد أرض فلسطين المباني الشامخة إلا في ظل الحكم الصهيوني، حيث ناطحات السحاب، وحيث المستوطنات تقام على كل شبر من الأرض المباركة.

ومن خلال هذا الشرح والاستنباط؛ نعلن للبشرية بأسرها: أن بناء المستوطنات في فلسطين لن يتوقف مادام يهود فيها، ومهما أعلن قادة العدوِّ عن وقف ذلك؛ فإن كلامهم هراء وكذب وافتراء، فهاهي وكالات الأنباء تنقل لنا أخبارًا مفادها: أن اليهود مستمرون في بناء المستوطنات[1].

---

(١) كان هذا منذ سبعة وعشرين عامًا، والأمر على ما كان عليه وقتئذ، بل زاد حرص يهود على زراعة مستعمراتهم الاستيطانية في كلِّ شبر من أرض فلسطين المسلمة، واللَّه بالغ أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ما أخبر اللَّه ﷻ عن اليهود، وكيف يديرون صراعاتهم وقتالهم مع المسلمين لا يزال يمثل الخطط الاستراتيجية لدولة اليهود التي سلبت بيت المقدس وأكنافه.

فالمستوطنات التي زرعوا بها أرض فلسطين قرى محصنة؛ فقد اختاروا لها مناطق ذات نفوذ عالية، مشرفة=

ونحن نقول: ابنوا يا بني صهيون! وارتفعوا كما يشاء اللَّه؛ فإن مصارعكم فيها بإذن اللَّه، وقريبًا إن شاء اللَّه ستُدمَّر عليكم، وتخرُّ فوق رءوسكم، وما كان اللَّه ليخلف وعده ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

وذُكر المسجد الأقصى في المرة الثانية بينما لم يُذكر في المرة الأولى؛ لأن الدخول الأول سينقطع، ولو لم ينقطع الدخول الأول لكان الثاني استمرارًا له، ولكن لما انقطع الدخول الأول وانتهى؛ فإن الدخول إذا تجدَّد كان دخولًا ثانيًا وجديدًا، وهذا ما حدث فعلًا؛ فإن الدخول الأول انقطع عندما استولى يهود على القدس مع البقية الباقية من فلسطين في هجوم شنُّوه عام (١٩٦٧م)، سماه الخوالف: عام (النكسة)، ومن قبل سمّى الخلوف عام (١٩٤٨م): عام (النكبة).

والدخول الأول لن ينقطع إلا بوجود عائق وحائل يمنع المسلمين من الدخول، ويكون عدوًّا للإسلام وأهله، وكفى باليهود عدوًّا لدودًا مناهضًا للإسلام، وأهل

= مسيطرة على ما حولها، فجعلوها في قمم الجبال.

وزيادة في تحصينها؛ فقد اتخذت حكومة اليهود قرارًا في سنة (٢٠٠٢م) ببناء سور عازل يتكون من جزأين: جدار وسياج، ويبلغ طوله حوالي (٨٠٠) كم، وهو عبارة عن قواعد خرسانية وهيكل من أسلاك ارتفاعه خمسة أمتار، ويوجد على جانبيه أسلاك شائكة، وحفرة يبلغ عمقها أربعة أمتار، وهو مزود بأجهزة استشعار إلكترونية، قادرة على كشف أي تسلل وإطلاق النار عليهم تلقائيًّا، وبمحاذاته طريق مكسوٌّ بالرمل الناعم؛ بحيث يترك من يسير عليه آثار أقدام.

ويتكون نحو (٨,٥كم) من السور من حائط خرساني قوي، بارتفاع ثمانية أمتار، موضوع عليه أبراج للمراقبة، ويحيط هذا الجزء بمدينة (قلقيلية).

وهذا الجدار العازل والسور الفاصل يفصل المدن الفلسطينية بعضها عن بعض بالكلية، ولن يبقى لأهل فلسطين إلا (٤٢٪) من أراضي الضفة الغربية.

وهذا كله يؤكد المخطط الصهيوني لابتلاع أرض فلسطين المسلمة، ويقرر حقيقة اليهود، وأنهم لا يصبرون عند اللقاء؛ بل يلوذون بالقرى المحصنة، ويقاتلون من وراء الجدر، وهم مختلفون، وإن ظن العوام السذج من المسلمين وكثير من السياسيين الحركيين أنهم جميعًا ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٤] فهل من مدَّكر.

الإسلام، وأنصار الإسلام[١].

ولابد من أن نحرر أرضنا المسلمة المغتصبة، وننتقم منهم، ونصبَّ جامَّ غضبنا عليهم، ونُشَوِّه وجوههم، بحيث ترتسم على أساريرها آثار الكآبة والذل، وسندخل المسجد الأقصى -إن شاء اللَّه- كما دخله سلفنا الصالح ﷺ أول مرة؛ لأن وعد الآخرة الذي أشارت إليه الآيات: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ مما ننتظر وقوعه تصديقًا بموعود اللَّه، وتحقيقًا لمصدوق خبر رسول اللَّه ﷺ. . . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه[٢].

(١) ولا يزال يهود يقومون بمنع المسلمين من الصلاة في المسجد الأقصى إلا لمامًا . . . ويكاد أن يتحقق حديث أبي ذر ﷺ، قال: تذاكرنا ونحن عند رسول اللَّه ﷺ: أيهما أفضل؛ أمسجد رسول اللَّه ﷺ، أم بيت المقدس؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**صلاة في مسجدي أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى هو، وليوشكن أن يكون للرجل مثل شطن فرسه (وفي رواية: مثل قوسه) من الأرض، حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعًا**».

أخرجه ابن طهمان في «مشيخته»، والطبراني في «الأوسط»، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وشيخنا الألباني.

وهذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ: أن يتمنى المرء أن يكون له من الأرض هذا القدر الصغير؛ حتى يرى منه بيت المقدس، فهذه حقيقة أصبحنا نراها رأي العين، مطابقة لحديث رسول اللَّه ﷺ.

قال محقق مشيخة ابن طهمان: «ومن المؤسف أن وقائع الأحداث تشير إلى أننا في طريق تحقيق هذا الحديث، الذي هو من دلائل النبوة، وأن مؤامرات الأعداء على المسجد الأقصى وبيت المقدس ستستمر، وتتصاعد لدرجة أن يتمنى المسلم أن يكون له موضع صغير يُطل منه على بيت المقدس أو يراه منه، ويكون ذلك عنده أحب إليه من الدنيا جميعًا، ولا شك أن يكون بعد ذلك الفرج والنصر إن شاء اللَّه، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، واللَّه غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

(٢) وقد هالني صنيع بعض الكهنة السياسيين، الذين شغلوا أنفسهم وأمتهم بتحديد موعد انتصار المسلمين على اليهود، فقد زعم الدكتور بسام جرار: أن القضاء على دولة اليهود سيكون سنة (٢٠٢٢م)، ولكن من المؤسف أن يتهوك في هذا المهيع دكتور يدعي السلفية -وهو عنها بمعزل، ومنزله عنها بأقصى منزل-، حيث قال في كتابه: «يوم الغضب هل بدأ بانتفاضة رجب»:

«بقي السؤال الأخير والصعب: متى يحل يوم الغضب؟ ومتى يدمر اللَّه رجسة الخراب؟ ومتى تفتح القدس وتعاد لها حقوقها؟

إن الإجابة قد سبقت ضمنًا، فحين حدد (دانيال) المدة بين الكرب والفرج، وبين عهد الضيقة وعهد الطوبى كانت كما سبق (٤٥ سنة).

وقد رأينا أن تحديده قيام دولة الرجس كان سنة (١٩٦٧م)[1]، وهو ما قد وقع، وعليه فتكون النهاية أو بداية النهاية سنة (١٩٦٧و٤٥) (٢٠١٢)، أي: سنة (١٣٨٧و٤٥ و١٤٣٣)!!
وهو ما نرجو وقوعه ولا نجزم؛ إلا إذا صدَّقه الواقع!!! لكن لو دخل معنا الأصوليون في رهان -كما دخلت قريش مع أبي بكر الصديق بشأن الروم- فسوف يخسرون الرهان قطعًا، وبلا أدنى ريب وبدون أن نلتزم بتحديد سنة(!)».
إن هذه الكهانة -بل المهانة- التي يمارسها دكتور العقيدة، الذي زعم مريدوه أنه: ابن تيمية الصغير[2]!! رجم بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وهذا يخدش التوحيد، وبخاصة في بلاد تدعي حماية التوحيد وتزعم حراسته!!
إن تحديد زمن النصر إلى دانيال؛ اعتماد على كتاب محرف باتفاق المسلمين؛ فأين العقول يا أولي الألباب؟!
إن تحديد زمن النصر على يهود استبطاء لنصر الله الذي نسأله أن يجعله قريبًا، وهو قريب يوم يعود المسلمون لدينهم الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ﵃.
ثم لم سماه: يوم الغضب؟! أليس انتصار المسلمين على اليهود يوم فرحتهم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤و٥].
إن يوم الغضب هو يوم خروج الدجال، كما في صحيح مسلم (٢٩٣٢) من حديث ابن عمر، فهل الدكتور ينتظر الدجال؟!! فشر غائب ينتظر، أم كهانة الدكتور نوع من الدجل والشعوذة؛ يريد بها أن يعيش المسلمون في الأوهام والأماني وأحلام اليقظة؟ ولقد صدق الأخ الشيخ سعد الحصين -حفظه الله- عندما قال: (الدال) التي توضع قبل كثير من الأسماء تعني: (دكتور) أو (دجال)!
ثم يأبى الدكتور إلا أن يدخل في رهان مع الأصوليين... ولا شك أنه الخاسر... لأن رهان أبي بكر مع قريش كان مبنيًّا على آيات محكمات: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٢-٤]، وبتوجيه من رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.
وليس مأخوذًا عن كتب أهل الكتاب المبدلة، والتي نهينا عن الأخذ منها أو النظر فيها؛ كما في حديث جابر ابن عبد الله: «أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ، =

---

(١) هذا يدل على مقدار فهم الدكتور سفر الحوالي بالسياسة والتأريخ؛ فقد قامت دولة المسخ سنة (١٩٤٨م)، ولكن لابد من تغيير التأريخ حتى يتوافق مع السياسة... !إن هذا لشيء عجاب.
(٢) حيث نسب القطبيون السروريون هذه المقالة -زورًا وبهتانًا- إلى شيخنا الإمام عبد العزيز بن باز ﵀، فسألناه عنها؛ فأنكرها أشد الإنكار... ولكن لا يزال الحركيون يكذبون وسيكذبون.... لعل الرعاع يصدقون، وهمج الأتباع يتبلدون... وصنيعهم يشبه حكايات (أشعب!) فقد جرى وراءه الأطفال يومًا، فأراد تشتيتهم، فقال لهم: في دار فلان وليمة كبيرة، اذهبوا إليها! فجرى الأطفال إلى الدار... فلما رآهم يجرون نحو دار (فلان)، قالت له نفسه الطفيلية: لعل الأمر صدق... فجرى خلف الأطفال...!

*** من وحي الآيات:**

أولًا: القتال في فلسطين سيكون إسلاميًّا، وهذا ثابت كما سلف[1]، فعلى الذين يتبنون قضية فلسطين أن يجعلوا ذلك نصب أعينهم. . . لأنه لا نصر لهم إلا بالإسلام، فأعداؤهم اليهود يحاربونهم بعقيدة التوراة والتلمود، ولن نكون لهم بالمرصاد إلا بعقيدة التوحيد، كما هي في الكتاب وسنة رسول اللَّه ﷺ وفهم السلف الصالح؛ لأنه

= فغضب، وقال: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا بْنَ الخَطَّابِ؟! وَالذَّي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَقَدْ جِئْتُكُم بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لا تَسْأَلُوهُم عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُم بِحَقٍّ فتكَذِّبوا بِهِ، أَو بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِه، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِي» أخرجه أحمد وغيره؛ وهو حديث صحيح.

ولقد استفاد عمر رضي الله عنه من هذا التوجيه النبوي؛ فقد روى عبد الرزاق وابن الضريس في «فضائل القرآن»، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» وغيرهم من طريق خالد بن عرفطة: «أن عمر بلغه أن رجلًا كتب كتاب دانيال، قال: فكتب إليه يرتفع إليه، فلما قدم عليه؛ جعل عمر يضرب بطن كفه بيده، ويقول: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١-٣] فقال عمر: أقصص أحسن من كتاب اللَّه -تعالى-؟! فقال: يا أمير المؤمنين! اعفني، فواللَّه لأمحونه».

هذه هي التربية الإيمانية: فقه واستجابة، وليس التربية الحركية السياسية: التي نخاعها تهييج الرعاع، وتجميع الهمج من الأتباع.

واعلم أخا الإيمان: أن هذه الكتب موضوعة؛ كما قال الخطيب: «ونظير ما ذكرناه -آنفًا-: أحاديث الملاحم، وما يكون من حوادث؛ فإن أكثرها موضوع، وجلها مصنوع؛ كالكتاب المنسوب إلى دانيال، والخطب المروية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

ولتسويق هذه الكهانة التي مارسها سفر الحوالي؛ يضعها على موقع على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) يسميه: (السلفيون!!!). . .

أهذا من السلفية يا دكتور العقيدة؟!. . . أهذه الأمانة في البلد الأمين؟!. . . أم هذا التلون في المنهج والدين والعقيدة لاصطياد الفريسة الطريدة!!

كنت أتمنى -مخلصًا- أن ينتفع الدكتور بزيارتي له مع أخي الشيخ علي الحلبي قبل بضع عشرة سنة، لنوضِّح له سوء صنيعه، ونبين له عاقبة مشاريعه. . . يومئذ لم ينطق بكلمة واحدة، بل ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

وهو الذي زعم يومئذ أنه انتفع بكتبي، ومؤلفاتي، وحارب بها الحزبيين يوم أن كان طالبًا في الجامعة الإسلامية، فما بالي أراه اليوم قد وقع صيدًا سهلًا للحركيين المستعجلين، الذين يظنون أنهم على شيء وليسوا على شيء. . . أسأل اللَّه له الهداية، ولنا الثبات على السلفية الحقّة إلى يوم نلقاه، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله؛ فهذا غاية ما نتمناه.

(١) لا كما زعم دهاقنة حركة الإخوان المسلمين: أنه اقتصادي من أجل الأرض والاقتصاد، وانظر (ص٣٧-٣٨).

من المعلوم: أن لكل فعلٍ ردّ فعلٍ مساو له في المقدار ومعاكسٌ له في الاتجاه، وهذا ما يشير إليه قول اللَّه -تعالى- في آخر هذه الآيات البينات: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ثانيًا: القضية الفلسطينية لن تحلَّ سلميًّا[1]، لأن اللَّه قرر خلاف ذلك؛ فعلى الذين

---

(١) أما ما يسمى «عملية السلام»[1] التي وقعت في شراكها الدول المحيطة بدولة يهود في فلسطين؛ فهي عملية ذر الرماد في العيون؛ لأن يهودَ استطاعوا أن يخترقوا هذه الدول تحت شعار «التطبيع»، الذي يتأبط شرًّا للمسلمين، ويحقق لليهود كثيرًا من أحلامهم، منها:

١- الاعتراف الرسمي والقبول الشعبي بدولة اليهود.

٢- إلغاء المقاطعة الاقتصادية العربية الإسلامية للاقتصاد اليهودي، وفتح الأسواق الاستهلاكية أمام المنتجات اليهودية.

٣- استثمار الطاقة النفطية العربية.

٤- استثمار الثروة المائية للبلاد العربية الإسلامية.

٥- استقطاب المهاجرين اليهود إلى فلسطين.

أما مخاطر «التطبيع» على المنطقة الإسلامية؛ فهي:

١- استغلال الدين وتطويعه لأهواء الذين لا يعلمون.

٢- الاختراق الثقافي والفكري؛ كإعادة النظر في المناهج الدراسية، وتطبيعها مع أهواء اليهود، ونشر الثقافة والآداب اليهودية.

٣- حرية النشاط التجسسي اليهودي، والعمل على إحداث فتن وإلصاقها بمعارضي التطبيع؛ لتأليب الحكومات عليهم.

٤- إلغاء حقوق الشعب الفلسطيني المسلم، وطرح قضية تعويض اللَّاجئين، والتي هي في الحقيقة بيع قسريٌّ لأرض المسلمين في فلسطين؛ ليقام عليها كيان غريب.

٥- تقييد قدرة المسلمين الدفاعيَّة عن حدودهم، وذلك بإدخالهم في معاهدات وأحلاف مقابل إطلاق اليد اليهودية تملك ما تشاء من أسلحة الدمار الشامل؛ النووية، والجرثومية، والكيماوية... إلخ.

٦- ضمان أمن اليهود وسلامتهم، بحيث تتحول الدول المحيطة بدولة يهود إلى دور الحراسة للكيان اليهودي.

٧- تمزيق الجبهة العربية الإسلامية، بحيث تدخل الأطراف المشاركة في الصراع العربي اليهودي في دوامة النزاعات الداخلية. =

---

(١) يصر الإعلام الصليبي الصهيوني على تسمية المرحلة المقبلة من تاريخ منطقة الشرق الأوسط: «مرحلة السلام»، وهذا اسم المسيح الدجال عند اليهود: «ملك السلام»، والذي يُهَيِّئونَ لخروجه!!
والإنجيليون النصارى يوافقون على الاسم دون المسمى!!

يقامرون على مسرى النبي ﷺ، ويعرضونه في المزاد العلني: أن يثوبوا لرشدهم... ويعلموا أن خط سيرهم سيؤدي بهم إلى الهاوية التي لا ترحم.

ثالثًا: الهجرة اليهودية إلى الديار المقدسة لن تتوقف[1]، واليهود سيأتون إلى الأرض التي تدرُّ عسلًا ولبنًا زرافات ووحدانًا باستمرار؛ كي يلقوا فيها مصارعهم بإذن اللَّه ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]، وهاهم اليهود يهاجرون باستمرار وازدياد إلى فلسطين، من كل حدب وصوب، ومن كل فج عميق، يلبون حكم اللَّه الذي قضى عليهم منذ الأزل.

رابعًا: لعل المسلمين ألا ينخدعوا بأقاويل المعسكر الغربي، الذي يتعلَّل بأنه يمد إسرائيل بالعدة والعتاد، وأسلحة الدمار الشامل؛ ليحافظ على ميزان القوى في المنطقة، فاليهود يملكون أجهزة فتاكة كثيرة وحديثة ومعقدة أكثر من المسلمين، وهذا صميم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

خامسًا: لن يهدأ لليهود بال، ولن يقر لهم قرارٌ، ولن يصلوا إلى الأمن المنشود؛ فهذا حلم صعب التحقق، وأمر بعيد المنال؛ لأن اللَّه منعهم إياه، فكل المحاولات التي تسعى إلى ذلك ستبوء بالفشل الذريع والخسران المبين؛ تحقيقًا للوعد الإلهي، والقضاء الرباني فيهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

هكذا يلفت القرآن أنظارنا إلى أشد الحقائق ثقلًا في قلب العالم المعاصر: قضية فلسطين المسلمة التي حيَّرت البشرية، وإذا كان اللَّه ﷻ قدير على تحقيق العجائب

= ٨- إشاعة الإفساد الجنسي والتحلل الأخلاقي؛ بتصدير بائعات الهوى حاملات مرض الإيدز، وتسريب الأغذية الملوثة بالإشعاع النووي، أو المحقونة بهرمونات تؤثر على الإنجاب أو الغيرة، وتوسيع دائرة تهريب المخدرات.

٩- تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والتضييق على مسلمي فلسطين وحصرهم.

(١) كتبت هذا الكلام منذ سبعة وعشرين عامًا، وقد جاءت الأحداث تؤكده؛ فلقد وقعت هجرتان يهوديتان كبيرتان إلى فلسطين:

الأولى: استقدام يهود الفلاشا من منطقة القرن الإفريقي.

الثانية: استقطاب يهود الاتحاد السوفييتي المنحلّ.

المشهودة في كل لحظة من الزمن، وفي كل شبر من العالم. . . أفيعجز -وحاشاه- عن تحقيق الفصل نفسه على هذه الرقعة من البسيطة؟!

ذلك ما يعلِّمنا إياه القرآن، وهو يشير إلى المستقبل الإسلامي الزاهر المتفجر بالحياة؛ لكي يضع العقل المسلم المعاصر أمام الحقائق العارية المؤثرة والمنظورة. . . بلا جدل سياسي، ولا تعقيد فلسفي، ولا أغاميض إعلامية؛ مما تمارسه وسائل الإعلام التي تحركها الأيدي المشبوهة.

من أكثر من زاوية يتعامل القرآن مع المسلم؛ فمرة بالحقائق التأريخية المعجزة، ذات المعاني المتدفقة، والقيم التي لا تكف عن التمخض والعطاء، فتسري في الكيان البشري؛ فتنعشه وتسوي لجسم خائر صلبًا. . . فلنستمر في الرحلة الطيبة. . . وليكن مرورنا سريعًا؛ كي لا يطول بنا السُّرى. . . ولكن عند الصباح يحمد القوم السُّرى.

*** خلافة راشدة على منهاج النبوة:**

إذن؛ فدخول المسجد الأقصى مرة ثانية، أمر حتميٌّ مؤكد لا مفرَّ منه؛ فهو ثابت بنص القرآن الكريم.

ومما لا شك فيه: أن هذه الانتصارات المؤَزَّرة التي سيحققها الإسلام، وهذه الفتوحات الرائعة التي ستعم العالم بأسره؛ تستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة الإسلامية، حيث تصبح الحاكمة الآمرة الناهية بكتاب الله، وسنة رسوله الصحيحة؛ بمنهج السلف الصالح، وهذا مما بشرنا به رسولنا الكريم ﷺ، كما في حديث حذيفة المتقدم[1].

* * *

(١) انظر تخريجه وفقهه (ص ١٤٣).

المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام فطرة

إن البشرية تعاني خواء مريرًا في حياتها، وفي روحها، ويلفح وجهها هجير محرق؛ لأنها ابتعدت عن الظل الوارف الندي، فكان حتمًا مقضيًّا: أن تجد الشقاق، والقلق، والجور، والحرمان.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

ولذلك؛ فإن البشرية تحتاج منهجًا ينقذها، ويعيد الإنسان؛ ليتناسق مع هذا العالم الذي يعيش فيه، ويؤسس مجتمعًا أفراده إخوة في الله، روابطهم ربانية، تشد بعضهم إلى بعض، وتحفظ كيانهم من نذر السوء.

ولن تجد البشرية نفسها، أو تُبصر الصراط المستقيم؛ إلا إذا رجعت إلى منهج ربها الذي يعيدها إلى فطرتها؛ لأن دين الله هو الفطرة التي فطر الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

الإنسان خيِّر بفطرته، والشر دخيل طارىء على النفس الإنسانية، ولذلك ينبغي على المرء أن يعلم أن الإيمان بالله لا مفر منه؛ لأن عقيدة: «الله ربي وأنا عبده» ذات أصول عميقة في فطرة الإنسان، وإن حاول دهاقنة الإلحاد سترها، ولكنها ظهرت على لسان مقالهم أو حالهم فجأة؛ فإذا بهم يخرِّبون ما بنوه، وينقضون ما قرروه بين عشية وضحاها.

قال (إنجلز) في رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه: «إنني أدعو كل يوم، وأقضي اليوم كله داعيًا أن تنكشف لي الحقيقة، فقد أصبح الدعاء هوايتي منذ وجدت الشكوك

طريقها إلى قلبي، إنني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم، عيني تبكي؛ ولكني أشعر أنني لست بطريد من رحمة اللَّه، بل آمل أن أصل إلى اللَّه، الذي أتمنى رؤيته بكل قلبي وروحي».

وعندما كان طاغية الاتحاد السوفييتي (برجنيف) يوقع معاهدة (ساليوت الثانية) مع الطاغية الأمريكي (كارتر)، وقف (برجنيف)، وقال لـ (كارتر): «إن اللَّه سيحاسبنا إذا لم نتوصل إلى اتفاق. . !!».

فإذا بـ (كارتر) يصعق أمام هذه الكلمات، فتلقفها وزير خارجيته (برجنيف) الأفاك الأشر (غروميكو)، فحرفها قائلًا: أي: إن الأجيال ستحاسبنا. . . !![1].

ومن المعلوم بداهة لدى المُعتبرين بسنن اللَّه الجارية في الكون، أن الإلحاد ليس له قوائم يثبت عليها، ولذلك فعمَّا قريب سيقتل نفسه بنفسه، ولن يجد من يواري سوءته.

وذلك؛ لأنه يصطدم بكل شيء في هذا الكون، فهو قد تفرد بمنهج من تلقاء نفسه، ونسج خياله؛ ولذلك فهو غير متناسق مع النظام الكوني، الذي صنعه اللَّه فأحسن صنعه.

وهو حين يصطدم بالناموس الكوني يتمزق، ولا يؤدي الأمانة التي حملها، إنه كان ظلومًا جهولًا.

والفطرة الإنسانية في أصلها متناسقة مع سنن اللَّه في الكون، مسلمةٌ لربها إسلام كل شيء. . . وكل حي. . . فمن الجهل أن يختار العبد غيرها، ومن الظلم أن يضعها في غير موضعها، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

إن العبد حين يخرج بنظام حياته عن ذلك الناموس، لا يصطدم مع الكون فحسب؛ بل يصطدم بفطرته التي بين جنبيه؛ فيشقى، ويتمزق، ويحتار، ويقلق، ويضطرب،

---

(١) انظر مزيد بيان (ص ٢٨٣-٢٨٤).

ويحيا -كما تعيش البشرية في يومها هذا- في عذاب وحيرة، ونكد.

والإسلام دين الفطرة، فهو المخلِّص للبشرية من الشقاء؛ فقد تبين لأولي النهى أن الإسلام:

هو -وحده- القادر على منح البشرية المنهج الملائم لفطرتها، واحتياجاتها الحقيقية.

وهو -وحده- القادر على تنسيق خطاها في حركة متزنة متناسقة مع كل شيء وكل حي.

وهو -وحده- القادر على إقامة واقع للحياة شامل متكامل، ذي منهج أصيل، مستقل الجذور، وليس مجرد تعديل للحياة الراهنة وأوضاعها القائمة؛ إنه منهج ينظم الاعتقاد والعبادة، والعمل والواقع.

إذن؛ فهو -وحده- الكفء للاضطلاع بمهمة إنشاء الحياة البشرية على قاعدة جديدة؛ كما عرفتها أول مرة منذ بعث اللَّه محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله.

وحين يتقرر ذلك؛ فإن الإسلام هو- وحده- القادر على إنقاذ البشرية مما يحيق بها من أخطار ماحقة تحملها نذر السوء، فلابد أن تدلف إليه في يوم ما مقودة بالسلاسل ليدخلها الجنة؛ لأن المستقبل له وحده بمنهج السلف الصالح الكرام.

يدل على ذلك وجوه متعددة:

١- أن الفطرة ثابتة، وكذلك الحق الذي ارتضاه اللَّه لخلقه ثابت؛ وهو منهج السلف الصالح الذي تحمله الطائفة المنصورة، وبهذا ترتبط فطرة اللَّه بمنهج اللَّه في حقيقته واتجاهه؛ لتسعد البشرية، وتجد الخير والبر والأمن، والسعادة، والطمأنينة، فمن وفَّى؛ وفِّي له، ومن لا؛ فلا.

٢- وصف الفطرة بأنها الدين الحنيف، وهو ملة أبينا إبراهيم، ورسولنا محمد ﷺ ومن معه، فهو المنهج السلفي في نقائه وصفائه الموافق للفطرة.

٣- وصف الفطرة بالدين القيم؛ أي: المهيمن على غيره، الظاهر على الأديان كلها ولو كره المشركون، وهذا يدل على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام.

٤- وصف الفطرة أنه لا تبديل لها، وهذا هو منهج السلف، الذي لم يتبدل، ولم يتغير، ولم يتحول عمَّا كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه.

* * *

المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام عقلًا وواقعًا وتجربةً وقدرًا

إن المدنيَّة المادية الوثنية أصبحت عاجزة عن الحركة أمام النكبات التي أحدثتها، وأمام الفقر الروحي المدقع الذي أوجدته؛ حتى إن البشرية كلها -جماعات وأفرادًا، شعوبًا وحكومات-، باتوا يفكرون في نُذُر السوء المحدقة بهم، فلقد شعروا بالجريمة التي حاكت خيوطها المدنية الوثنية؛ فأصبحوا يعانون من صراعات متعددة، وإحباطات متنوعة، وأخذت الهتافات الكثيرة المنبعثة من القلوب الحائرة، المرتفعة من الحناجر المرهقة التي أضناها السرى في بيداء جاهلية بني الأصفر، فراحوا ينشدون السبيل والسلسبيل؛ عساهم يجدون مخرجًا، أو يقعون على واحة خصبة، وافرة الظلال، ندية النسيم، رقراقة النبع... فهاهم يهتفون بمنقذ، وينقِّبون عن مخلِّص من هذه الورطة الشائكة، وأصبحوا يحيكون في أذهانهم أشكالًا عدة، وملامح متنوعة لطبيعة هذا المنقذ، وكنه هذا المخلص الذي يصبون إليه، وينقِّبون عنه... ولكن...

من المنقذ؟

وأين المخلص؟

وما هو الحل؟

وأين المفر؟

إنه الإسلام -وحده- باعتراف مفكري الغرب، وشهادتهم على أنفسهم؛ فهم يعرفون محمدًا ﷺ وأصحابه ودينه كما يعرفون أبناءهم، ولكن بينهم وبين الإسلام حجرًا محجورًا: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ

لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥-١٤٧].

ولقد تحدث كثير من مفكري الغرب عن بوادر انهيار المدنيَّة المادية الوثنية... كل يرصد الأمر من زاوية نظره الخاصة.

- فالفيلسوف الإنجليزي (برتراند رسل) يقول: لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض، وبقاء تلك السيادة إلى الأبد قانونًا من قوانين الطبيعة.

ثم يعلل الأمر؛ بأن الرجل الأبيض لم يعد لديه ما يعطيه(!)

- والدكتور الفرنسي (الكسيس كاريل) يتحدث في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» عن مظاهر الانهيار في المدنيَّة الغربية الوثنية، ثم يعللها بأن تلك المدنية قد أنشئت على حطام فطرة «الإنسان» التي أنشئت من أجله(!).

ولذلك؛ فهو يطلب منهجًا غير «دين الصناعة»، فهو يريد:

«منهجًا» يعد الإنسان فيه مقياسًا لكل شيء، ولا يجعله غريبًا في العالم الذي ابتدعه، ولا ينهض على الجهل المطبق بخصائصه ومقوماته.

«منهجًا» لا يهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالًا تامًا عند تنظيم الحياة الصناعية، ولا ينهض على مبدأ الحد الأقصى في الإنتاج بأقل قدر من التكاليف.

«منهجًا» لا ينشئ بيئة غير صالحة، لا بالنسبة لمقوماتها، ولا بالنسبة لهيئتها، ولا يجعلنا ننحط أخلاقيًا وعقليًا، ولا يكبت ويعطل نمو وجوه النشاط العاطفي والجمالي والديني؛ فيخلق أشخاصًا في المرتبة الدنيا ذوي عقول ضيقة غير صحيحة.

«منهجًا» لا يلغي شخصية الفرد من حسابه؛ ولكنه كذلك لا ينسى حاجة الفرد للحياة الجماعية.

«منهجًا» لا يلغي شخصية الذكر وشخصية الأنثى؛ فإهمال انعدام العدالة بين الجنسين أمر خطير جدًا.

«منهجًا» لا يدع حياة بني الإنسان نهبًا لخيالات ماركس ولينين وفرويد، ومرتعًا لشهوات الناس وأهوائهم ونظرياتهم ورغباتهم.

«منهجًا» لا يتعدى على قوانين الفطرة، ولا يشجع على ارتياد الأرض المحرمة، ولا يصطدم بالحقائق الحيوية للكينونة الإنسانية.

- **وقول (برنارند شو)**: لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولًا لدى أوربا غدًا، وهو قد بدأ مقبولًا اليوم.

وأما أنا؛ فأرى أن يدعى محمد منقذ الإنسانية، وإن رجلًا مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشاكله، وَأَصَّلَ في العالم السلام والسعادة.

- **ويقول (أرنولد توينبي)**: مشكلة الخمر والعنصرية لن يحلها إلا الإسلام، وهو كفيل بذلك.

هذه نماذج من شهادة علماء المدنية الوثنية، وأما ساستها؛ فماذا يقولون؟

- يتحدث (جون فوستر دلاس)- وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق- في كتابه «حرب أم سلام» عن إفلاس المدنية الغربية؛ ويرده إلى نقص الإيمان، والحيرة القائمة في عقول الناس، والتآكل الموجود في أرواحهم، ولذلك فهو يريد:

«منهجًا» لا يعطي الأولوية المطلقة للتنمية المادية للمجتمع، مع إعطاء الروحية أهمية ثانوية، ولا يَعُدُّ الإيمان أمرًا ثانويًّا بالإفراد.

«منهجًا» لا يقف موقفًا غامضًا من الإيمان وعلاقته بالنشاط الحيوي.

«منهجًا» لا يقوم على الفردية المطلقة؛ كما عرفتها التجربة الأمريكية، هذه الفردية في معناها: الموت المبكر.

«منهجًا» لا يفرق بين الدين وممارسة الدين، ولا يحطم الصلة بين الإيمان والعمل.

وهكذا تتوالى شهادة علماء الغرب وساسته، وتعلو صيحاتهم؛ ولكن أين يطلبون

هذا «المنهج» الذي هذه سماته؟ إنهم يبتغونه في عالم الإنسان وعند رجال الكنيسة!! على الرغم أنهم يعلمون أن العقل الإنساني فيه عجز بطبيعته، وأن رجال الكنيسة هم الذين قادوا المدنية الغربية إلى أحضان المادية الوثنية(!).

إنهم لا يتجهون إلى الإسلام؛ بل يحاربونه، على الرغم من أنهم يعلمون أنه الحق: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

فإن قيل: إذن؛ كيف تورد أقوالهم لتقرير: أن المستقبل للإسلام، وهم يكفرون به؟

فالجواب من وجهين:

١- أن الله ﷻ جعل شهادة علماء أهل الكتاب ومعرفتهم بالإسلام والرسول ﷺ أنه حق حجة على الكافرين وعلى أنفسهم، وأن المستقبل للإسلام، فقال عز شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٠-٤٣].

٢- أن ظهور الدين الإسلامي على الأديان كلها، وتمام النور الرباني سيكون رغم أنوف المشركين ولو كره الكافرون.. وهذا باب عظيم لا يعرف مداخله إلا من شرح الله صدره لمعرفة مراد الله ﷻ، فالكافرون يدركون حقيقة هذا الدين، والمشركون يعلمون عظمته... ولكنهم عنه معرضون... ليظهر عليهم قاهرًا لهم بإذن الله وحده(!).

لقد أدرك بعض منصفي أهل الكتاب هذا المقام؛ فانقشعت عن أعينهم الغشاوة، وشفيت أسماعهم من الوقر، وتفتحت قلوبهم للْهدى والنور:

يقول (شبنجلر): «إن للحضارة دورات فلكية، تغرب هنا لتشرق هناك، وإن حضارة جديدة أوشكت على الشروق في أروع صورة؛ هي: حضارة الإسلام، الذي

يملك أقوى قوة روحانية عالمية نقية»[١].

والمؤرخ (أرنولد توينبي) يستقرئ ما يمكن أن يقوله التأريخ بصدد مستقبل الإسلام، ثم يصدر حكمه، فيقول: «فإذا كان للسوابق التاريخية أي معنى عندنا وهي إشعاعات الضوء الوحيدة التي يمكن أن يلقيها على الظلمات التي تكتنف مستقبلنا؛ فإنها تنذر بأن الإسلام قادر على التأثير في المستقبل بأساليب عدة، تسمو على فهمنا وإدراكنا»[٢].

ويقول الروائي الروسي «سولجستين»: «إن الطريقة الوحيدة نحو تصحيح المسار المادي المنحرف للإنسان الغربي المعاصر، هو عودة الإنسان إلى الإيمان بقوة مهيمنة على مصير الإنسان، وهي التي تحدد له قيمه ومسئولياته الأخلاقية والاجتماعية، وكذلك الإيمان بوجود قيم أخلاقية عالية، وموضوعية شاملة لكل البشر، وهي تعلو على كل اعتبارات الحرية الفردية التي لا تحدها حدود».

ويقول المفكر الفرنسي «ديباسكييه» مرشحًا الإسلام لقيادة البشرية، وإنقاذها من التردي والسقوط: «إن الغرب لم يعرف الإسلام أبدًا، فمنذ ظهور الإسلام اتخذ الغرب موقفًا عدائيًّا منه، ولم يكفَّ عن الافتراء عليه والتنديد به؛ لكي يجد مبررات لقتاله، وقد ترتب على هذا التشويه أن في العقلية الغربية مقولات فظة عن الإسلام».

ويضيف: «ولا شك أن الإسلام هو الوحدانية التي يحتاج إليها العالم المعاصر؛ ليتخلص من متاهات الحضارة المادية المعاصرة، التي لابد إن استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان»[٣].

ويقول المستشرق الأمريكي «سارتون»: «ليس ثمة ما يمنع أن تقود شعوب العالم الإسلامي العالم مرة أخرى في المستقبل القريب والبعيد؛ كما قادته في العصور الوسطى»[٤].

---

(١) «سقوط الحضارة» (ص٣٨-٣٩).

(٢) «الإسلام والغرب والمستقبل» تعريب نبيل صبحي (ص٦٠).

(٣) «الإسلام ومستقبل البشرية» (ص٥٢-٥٣).

(٤) «الفكر الإسلامي بين الأصالة والتجديد» محمد عبد المنعم خفاجي (ص٨٤).

وكتب السفير الألماني في المملكة المغربية (مراد فليفريد هوفمان) كتابًا سمَّاه: «الإسلام كبديل».

وهذا الكتاب أثار ضجة حتى قبل نشره، وصلت إلى حد مطالبة نائبة في البرلمان الألماني عن الحزب الاشتراكي بسحب السفير من منصبه بالرباط، بحجة عدم مراعاته في كتابه حقوق المرأة التي يكفلها الدستور الألماني(!).

والواقع أن «هوفمان» وضع هذا الكتاب عن عقيدة راسخة وإيمان عميق بعظمة الإسلام وتسامحه، ورغبة صادقة منه في إزالة التحاملات الظالمة السائدة في الغرب حول الدين الإسلامي.

وكانت العالمة الألمانية الأستاذة الدكتورة (زيغريد هونكة) قد تصدت قبل فترة؛ لتفنيد التحاملات الغربية ضد الإسلام، في كتابها: «تعالى اللَّه عما يصفون، ألف تحامل وتحامل ضد الإسلام».

جاء كتاب السفير «مراد هوفمان» في عشرين فصلًا، تناول من خلالها علاقة الإسلام مع الغرب، ومفهوم الإسلام للإيمان والعلم، والأصولية، والفن.. وغير ذلك من المواضيع التي تهمُّ الإنسان المعاصر في الشرق والغرب.

ومع أن هذه العجالة لا يمكن أن تفي هذا الكتاب حقه؛ فإننا نود تقديم بعض الأفكار الواردة فيه، وبخاصة تلك التي تثير حاليًّا مناقشات واسعة؛ مثل: علاقة الإسلام بالغرب، والأصولية والإسلام، وحقوق المرأة، والدولة الإسلامية، والنظام الاقتصادي الإسلامي.

يؤكد «هوفمان» في مقدمة الكتاب: أن الإسلام بما يملكه من مقومات إيمانية وأخلاقية وعلمية سيكون الدين المتسيِّد على مستوى دولي في القرن الواحد والعشرين.

فالإسلام لم يعد كما كان يوصف قبل انهيار الشيوعية، بأنه الطريق الثالث بين الشيوعية والرأسمالية، وإنما سيكون هو البديل للمجتمع الغربي الصناعي..».

هكذا تتوالى شهادات علماء الغرب وحكامه، تدعو هذا الجيل أن يعود إلى اللَّه، أن يعود إلى المنهج الرباني الصحيح، الذي سيصف لهم العلاج الشافي من كل أمراض مدنيتهم الزائفة.

وعلى الرغم من أن المدنية الغربية قد أَفَلَتْ وَدَنَتْ شمسها من المغيب؛ فإنهم بحاجة إلى من يقول لهم: هذه هي الطريق.. هذا هو النور.. وهذا واجب الدعاة المسلمين...أن يجيدوا فن العرض...كي يعرضوا الإسلام في الثوب الزاهي القشيب؛ كما أنزله اللَّه -تعالى- على رسوله ﷺ صافيًا نقيًّا...وألَّا يعرضوا الإسلام على أنه بديل من البدائل.. بل هو البلسم الشافي من أمراض المدنية القاتلة...فالبشرية أمام مفترق: اللَّه، أو الدمار.

...وهكذا تتوالى شهادة قادة الفكر الغربي والشرقي: أن المستقبل للإسلام وحده...ومع ذلك فهم لا يتجهون إلى الإسلام بل يحاربونه، ليطفئوا نور اللَّه على الرغم أنهم يعلمون أنه الحق: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

وهذا لحكمة ربانية بالغة في ظهور صدق كلام اللَّه ورسوله: أن تمام هذا الدين وسيطرته سيكون رغم أنوف الكفرة الفجرة، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وتدبر قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فقد ملأها الكافرون والمشركون وأعوانهم من الرويبضات ظلمًا وجورًا...ولذلك؛ فإنها ستُملأ عدلًا ونورًا كما قدَّر اللَّه ﷻ، وأخبر بذلك رسوله ﷺ في أحاديث المهدي عليه السلام: «**يَمْلَؤُها عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا**»...وهذا يدل على أن المستقبل للإسلام وحده؛ بمنهج السلف الصالح الكرام.

* * *

خصائص الأمة الإسلامية وصفاتها ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

حبا اللَّه أمة الإسلام بخصائص، ومنحها ما يجعل ريحها تصير صبًا بعدما كانت دبورًا، فهذه الأمة لا تزال تثمر وتستمر حتى تستقر حضارتها مرة ثانية؛ ولكن عندما تعود إلى دينها الناصع، ترتوي منه نبعًا صافيًا كما أُنزل على محمد ﷺ.

١- قال مرما ديوك باكتول:

«إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروها بها سابقًا؛ بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول؛ لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم».

٢- أما جوستاف ينج مؤلف كتاب «الحساب الأخير الذي اقترب»، فقال:

«إن العالم الإسلامي قد أَفْلَتَ من قبضة الموت الذي أعدَّه ونسق أكفانه الاستعمار الأوربي».

٣- ويقول الأمريكي جورج سامسون في كتابه: «الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين»:

«إن المآثر التي قامت بها الشعوب التي تتحدث اللغة العربية-وذلك ما بين القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر- كانت عظيمة إلى درجة تذهل أفهامنا، وإن شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم في مرحلتين طوال ألفي عام على الأقل قبل أيام اليونان، وفي العصور الوسطى لمدة أربعة قرون، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد».

٤- ويقول أحد علماء السوربون:

«إن في العالم ثلاث قوى: قوة الشرق، وقوة الغرب، وهناك قوة ثالثة لو عرفت نفسها؛ لأمكنها أن ترث القوتين، هذه القوة؛ هي: القوة الكامنة وراء يقظة المسلمين؛ لأن لهم نظرة انفردوا بها عن العالم في تنشئة الرجال».

٥- ويقول برناردشو:

«لقد كنت دائمًا أحتفظ لدين محمد عندي بأعلى تقدير؛ وذلك بسبب حيويته المدهشة، إنه الدين الوحيد الذي -يبدو لي أنه- يمتلك القدرة على استيعاب تغير أطوار الحياة، بما يجعله محل إعجاب لكل العصور.

إني أعتقد لو أن شخصًا مثله تولى الحكم المطلق للعالم المعاصر؛ لنجح في حل مشاكله، بطريقة تجلب له ما هو في أشد الحاجة إليها من سلام وسعادة.

لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولًا في أوربا الغد؛ كما أنه بدأ يكون مقبولًا في أوربا اليوم»[١].

٦- ويقول مونتجمري وات -رئيس قسم الدراسات العربية بجامعة إدنبرة- في «الإسلام والمسيحية اليوم»:

«من المؤكد: أن الإسلام منافس قوي في مجال إعطاء النظام الأساسي للدين الوحيد الذي يسود في المستقبل».

٧- ويقول الصحفي السويسري روجيه دي باسكيه، في كتابه «اكتشاف الإسلام»:

«من المسَلَّم به حاليًا وبوجه عام: أنه بينما تتراجع الديانات الكبرى، أو على الأقل تتخذ موقف الدفاع؛ فإن الإسلام ذاته في تقدم، وتُعطي إفريقيا أكثر الأمثلة وضوحًا على ذلك.

إن قوة الإسلام هذه مُقارنة بضعف المسيحية تمثل حقيقة كبرى في التاريخ

(١) «الإسلام في الفكر الغربي» أحمد عبد الوهاب (ص٢٢).

المعاصر . . . إنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حاليًّا ، وإقرار النظام والنقاء في داخل الإنسان .

إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة .

إن الغرب المسيحي -أو الذي فقد مسيحيته- لم يعرف الإسلام أبدًا ، مهما حدث في العالم الغربي المزدهر وفاسد الأخلاق ، أو حدث للشعوب التي تعاني من الفقر في المستلزمات المادية للحياة- مثل تلك التي يُطلق عليها العالم الثالث- ؛ فإن الإسلام يقدم الحل الأكثر وضوحًا وجوهرية وحتمية ، من أجل مواجهة التحدي الحديث» .

٨- ويقول الدكتور مراد هوفمان -سفير ألمانيا في الجزائر، ثم المغرب-:

«إن الإسلام يحتل القمة فيما يشغل الإعلام العالمي في الربع الأخير من القرن الحالي .

لا يتوقع اليوم أحد أن يختفي الإسلام ، ولكن أن يمتد بل يتفجر ، ويضع جنرالات الناتو في حسبانهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالًا في المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب ، ولا الشمال والجنوب ؛ فالإسلام هو العدو المتنامي المرتقب»[١] .

ويقول -أيضًا- : «إني لا أدعو إلى أي تنازل -أو تجاوز- قد يمس أساسيات الإسلام في القرآن والسنة الصحيحة ؛ فليس الهدف تحويل الإسلام ليناسب الحداثة ، ولكن تجديده حسبما ترمي أصوله ومنهاجه ؛ ليناسب العصر ، وحتى يُقر بذلك أكثر الغربيين نشوزًا .

الجميل في هذا المسعى : أنه سيخدم السلام في نفس الوقت الذي سيهيئ أعظم الفرص ليصبح الإسلام ديانة العالم الأولى في القرن ٢١»[٢] .

---

(١) «الإسلام عام ٢٠٠٠» مراد هوفمان (ص١٧) .

(٢) المرجع السابق (ص٢١) .

٩- ويقول روبرت بين في مقدمة كتابه «السيف المقدس»[(١)]:

«علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم؛ لأنهم حكموا العالم سابقًا، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلة التي أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ، ولهذا كتبت هذا الكتاب؛ لكي يقف القراء على أصل العرب، وسميته بالسيف ذي النصلين، الذي ناله محمد في وقعة بدر؛ تذكارًا لانتصاره؛ لأن السيف أصبح رمزًا لمطالبه الإمبريالية».

نعم؛ المصباح الذي أضاءه محمد ﷺ نورًا للمتقين لن يخبو، والشعلة التي أوقدها نارًا على المجرمين لن تطفأ... فحري بكل مسلم أن يقف متأملًا هذه الخصائص... متدبرًا هذه الصفات التي توقظه من شروده إلى مراده، ومن هزله إلى جده، ومن غفلته إلى يقظته!!

١٠- يقول البيرشادور:

«إن هذا المسلم الذكي الشجاع قد ترك لنا حيث حلَّ علمه وفنه، وآثار مجده وفخاره.

إن هذا المسلم الذي نام نومًا عميقًا مئات السنين قد استيقظ، وأخذ ينادي: هأنذا لم أمت، إني أعود للحياة، لا لأكون أداة طيعة، أو كتلًا بشرية تسيرها العواصم الكبرى ومخابراتها.

من يدري؟ ربما يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالمسلمين، يهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية في الوقت المناسب -أو الزمن الموقوت-.

لست متنبئًا؛ ولكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة، لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها»[(٢)].

---

(١) (ص ١٧).

(٢) «لم هذا الرعب كله من الإسلام؟» جودت سعيد.

وإليك -أخي القارئ الحبيب- بعض هذه الخصائص:

أولًا: خير الأمم وأكرمها على الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنْتُم تُتِمُّون سَبْعين أُمَّةً، أَنْتمُ خَيْرُها وأَكْرَمُها على اللَّهِ**»[١].

قال المناوي:

«ويظهر هذا الإكرام في أعمالهم، وأخلاقهم، وتوحيدهم، ومنازلهم في الجنة، ومقامهم في الموقف، ووقوفهم على تل يشرفون عليه، وغير ذلك، ومما فُضِّلوا به: الذكاء، وقوة الفهم، ودقة النظر، وحسن الاستنباط؛ فإنهم أوتوا من ذلك ما لم ينله أحد من قبلهم»[٢].

ثانيًا: الأمة الوسط:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أرى أن اللَّه -تعالى ذكره- إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه؛ غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم مقصرين فيه تقصير اليهود؛ الذين بدَّلوا كتاب اللَّه، وقتلوا أنبياء اللَّه، وكذبوا على ربهم وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم اللَّه بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى اللَّه أوسطها»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٥/ ٦٥) وغيرهم بإسناد حسن.
(٢) «فيض القدير» (٢/ ٥٥٣).
(٣) «جامع البيان» (٢/ ٦).

أمة الإسلام وسط في كل شيء، وعدل في كل أمر:

١- فهي التي تشهد على جميع الناس في الدنيا والآخرة؛ فتقيم فيهم العدل والقسط.

٢- وهي وسط في الاعتقاد والمنهج.

٣- وهي وسط في التفكير والعاطفة؛ لا تتبع كل ناعق، ولا تميل مع كل ريح.

٤- وهي وسط في التنظيم وإدارة شئون الحياة؛ فلا تدعها للمشاعر والضمائر، ولا تدعها للعقاب والتأديب؛ بل تراوح بين المقامين، وتحوطهم بسوط السلطان وصحوة الوجدان.

٥- وهي وسط في العلاقات الفردية والجماعية؛ فلا تذوب فيها شخصية الفرد في الجماعة، ولا تطلق حبله على غاربه، لا همَّ له إلا ذاته؛ بل هو فرد فاعل، وعضو نافع في الجسد الواحد.

٦- وهي وسط في المكان، فديار المسلمين أوسط بقاع الدنيا، والكعبة المشرفة سرة الأرض؛ فهي الرابط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب.

ولذلك فهي أمة محفوظة؛ لأن الوسط محميٌّ محاط، وإنما يتسارع الخلل إلى الأطراف.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١].

وقال الطائي:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت   بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

ثالثًا: الشهداء على الأمم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يَجيءُ نوحٌ وَأُمَّتُه، فيقولُ اللَّهُ: هل بلغت؟ فيقولُ: نَعم أي ربُّ، فيقولُ لأُمَّته: هل بَلَّغَكُم؟ فيقولون: لا، ما جاء**

لنا من نبيٍّ، فيقولُ لنوحٍ: مَنْ يَشْهَد لَك؟ فَيَقولُ: مُحَمَّدٌ وأُمَّتهُ؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]، والوَسَطُ: العَدْلُ، فيُدعون فيَشْهدون له بالبَلاغِ، ثُم أَشْهَد علَيكم»(١).

وعنه -أيضًا-؛ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «وَيَجيءُ النَّبِيُّ يوم القيامَةِ ومعه الرَّجُلُ، والنَّبيُّ ومعه الرجلان، والنَّبيُّ ومعه الثَّلاثةُ، وأكثرُ من ذلك، فيقال له: هل بَلَّغْتَ قومَك؟ فيقولُ: نعم، فَيُدْعى قَوْمَه، فيقالُ لهم: هَلْ بَلَّغَكُم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتهُ، فَيُدْعَى محمدٌ وأمته، فيقال لهم: هل بلَّغَ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقالُ: وما عِلْمُكم بذلك، فيقولون: جاءنا نَبِيُّنا، فأخبرنا أن الرُّسُلَ قد بَلَّغوا، فصدَّقناه؛ فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»(٢).

وبهذا يتبين: أن الشهادة تعمُّ جميع الأمم.

قال الحافظ: «ويؤخذ من حديث أبي نعيم ذلك، فأخرج ابن أبي حاتم بسند جيد عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في هذه الآية؛ قال: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾: فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة؛ كانوا شهداء على قوم نوح، وقوم هود، وقوم شعيب، وغيرهم: أن رسلهم بلَّغتهم، وأنهم كذَّبوا رسلهم».

ثم قال: «وفيه بيان أن الشهادة لا تخص قوم نوح؛ بل تعم الأمم».

رابعًا: أمة مجتباة مصطفاة، سمَّاها اللَّه -تبارك وتعالى-:

قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٧١و ٨/ ١٧١). (٢) «الصحيحة» (٢٤٤٨).

أمة اجتباها ربها، واصطفاها خالقها، وسمَّاها مولاها، فلن يُضيِّعها ربها . . . فهي القوامة على الأمم بعد نبيها، فحري بها أن تكون في مقدمتها، وقائدها إلى النور والعدل والسلام.

خامسًا- أمة مثل المطر:

عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَثَلُ أُمَّتي مَثَلُ المَطَرِ؛ لا يُدرى أوَّله خَيْرٌ أم آخِرُهُ**»[1].

قال الرامهرمزي: «إن تعلق متعلِّق بظاهر هذا الحديث، فادَّعى عليه تناقضًا في قوله ﷺ: «**خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم**»، فإن المعنى في قوله ﷺ: «**لا يدرى أوله خير أم آخره**»: أن الخير شامل لها، وإن كان معلومًا أن القرن الأول خير من القرن الثاني، وهذا كما قال عَجَلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وقال الشاعر يذكر امرأة أعجبه منها بيانها وطرفها وثغرها:

أشارت بأطراف لطاف وأجفن ... مراض وألفاظ تنعم بالسحر
فواللَّه ما أدري أفي الطرف سحرها ... أم السحر منها في البيان وفي الثغر

يريد: أن السحر في جماعتها».

وقال ابن كثير: «إن الدين في حاجة إلى من يقوم به في أول الأمة وآخرها، لكن الأول أفضل؛ لأن أول المطر أفضل من آخره، وبه يتم الإنبات، والعلم عند اللَّه»[2].

وقال المباركفوري: «قال الطيبي: وتمثيل الأمة بالمطر، إنما يكون بالهدى والعلم؛ كما أن تمثيله ﷺ الغيث بالهدى والعلم، فتختص هذه الأمة المشبهة بالمطر بالعلماء المكمِّلين لغيرهم؛ فيستدعي هذا التفسير أن يراد بالخير: النفع، فلا يلزم منه هذه المساواة الأفضلية، ولو ذهب إلى الخيرية؛ فالمراد: وصف الأمة قاطبة سابقها ولاحقها وأولها وآخرها بالخير، وأنها ملتحمة بعضها مع بعض، مرحومة بالبنيان،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٩)، وصححه شيخنا فيه (٢٣٠٢)، و«الصحيحة» (٢٢٨٦).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٨٤-٢٨٥).

مفرغة كالحلقة التي لا يدرى أين طرفاها، ويلمح إلى هذا قول الشاعر:

إن الخيار من القبائل واحد وبنو حنيفة كلهم خيار

فالحاصل: أن الأمة مرتبطة بعضها مع بعض في الخيرية، بحيث أبهم أمرها فيها، وارتفع التمييز بينها، وإن كان بعضها أفضل من بعض في نفس الأمر، وفي معناه أنشد مروان بن أبي حفصة:

تشابه يوماه علينا فأشكلا فما نحن ندري أي يوميه أفضل
يوم بداء العمر أم يوم يأسه وما منهما إلا أغر محجل

ومن المعلوم علمًا جليًا: أن يوم بداءة العمر أفضل من يوم يأسه؛ لكن البدء لم يكن يكمل ويستتب إلا باليأس، أشكل عليه الأمر فقال ما قال، وكذا أمر المطر والأمة»[1].

قلت: هذا الحديث يدل على ما يأتي:

١- أول هذه الأمة الأفضل، فأول المطر خير من آخره، وفي كلٍّ خير.

٢- أفضلية سلف هذه الأمة بالنسبة للمجموع لا الأفراد.

٣- بما أن أول الأمة خير وآخرها كذلك، فالخير موصول، وهذا ما تدل عليه أحاديث الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

سادسًا: شهداء اللَّه في الأرض:

عن أنس ﵁، قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة، فأثنوا عليها خيرًا؛ فقال: «وَجَبَتْ. ثم مُرّ بأخرى، فأثنوا عليها شرًّا؛ فقال: وَجَبَتْ، فقيل: يا رسول اللَّه! قلت لهذا: وجبت، ولهذا: وجبت؟ قال: **شَهادَةُ القَوْمِ. المُؤْمِنُونَ شهداءُ اللَّهِ في الأَرْضِ**»[2].

وعنه؛ قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة، فأثني عليها خيرًا؛ فقال نبي اللَّه ﷺ: **«وَجَبَت، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ**. ثم مُرَّ بجنازة، فأثني عليها شرًّا؛ فقال نبي ﷺ: **وَجَبَتْ،**

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٨/ ١٧٠-١٧١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٤٢)، ومسلم (٩٤٩).

وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، فقال عمر: فُدِيَ لك أبي وأمي، مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيرًا فقلت: وَجَبَت وَجَبَتْ وَجَبَتْ، ومُر بجنازة فأثني عليها شرًّا؛ فقلت: وَجَبَت وَجَبَتْ وَجَبَتْ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ أَثْنَيْتُم عَلَيْه خَيْرًا وَجَبَتَ له الجَنَّة، ومن أَثْنَيْتُم عِليه شَرًّا وَجَبَت له النَّارُ، الملائِكَةُ شهداءُ اللَّهِ في السَّماءِ، وَأَنْتُم شهداءُ اللَّه في الأَرْضِ، أَنْتُم شهداءُ اللَّهِ في الأرْضِ، أَنْتم شُهَداءُ اللَّهِ في الأَرْضِ، المؤمنون شهداءُ اللَّه في الأَرْضِ، إنَّ للَّه ملائِكَةً تَنْطق على أَلْسِنَةِ بني آدم بما في المرءِ من الخَيْرِ والشَّرِّ**»[1].

وهذه الشهادة عامة في الأمة؛ بدليلين:

١- عموم قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

٢- قوله ﷺ في الحديثين: «**المؤمنون شهداء اللَّه في الأرض**»، ولذلك قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٢٢٩): «المخاطبون بذلك من الصحابة، ومن كان على صفتهم من الإيمان».

سابعًا: الأمة الباقية المحفوظة:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: «صلَّى بنا رسول اللَّه ﷺ يومًا صلاة فأطال فيها، فلما انصرف؛ قلنا: يا رسول اللَّه! أطلت اليوم الصلاة، قال: **إنّي صَلَّيتُ صلاةَ رَغْبَة وَرَهْبَةٍ، سألتُ اللَّه ﷻ لأُمّتي ثلاثًا؛ فأَعْطَاني اثنتينِ، وردَّ عليَّ واحدة: سألتُه ألا يُسلِّط عليهِم عَدُوًّا من غيرهم؛ فأعطانيها، وسَألتُه ألا يُهْلِكَهُم غَرَقًا؛ فَأعطانيها، وسألته ألا يَجْعَل بأسهم بيْنَهُم؛ فَرَدَّهَا عَلَيَّ**»[2].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سَأَلْتُ ربِّي ثَلاثًا؛ فَأعطانِي اثْنَتَينِ، ومَنَعَنِي وَاحِدةً: سَأَلت ربِّي ألا يُهْلكَ أُمَّتي بِالسّنَةِ؛ فأعطانيها، وسألته**

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٩٥)، وأحمد (٣/ ١٤٦و١٥٦، ٥/ ٢٤٣و ٢٤٧ و٣٤٠) وصححه شيخنا رحمه الله في «الصحيحة» (١٧٢٤).

ألا يُهلِك أمَّتي بالغَرَقِ؛ فأعطانيها؛ وسألته ألا يَجْعَل بأَسَهم بينهم؛ فَمَنَعَنِيها»[١].

وفي الباب عن ثوبان، وخالد الخزاعي، وخباب، وعوف بن مالك.

وكلها تدل على أن الأمة الإسلامية باقية محفوظة، لن يضرها أعداؤها، ولن يخذلها المرجفون منها، ولو اجتمعوا عليها من أقطارها.

ومما يؤيد هذا المعنى: أن القرآن محفوظ حتى يُرفع من السطور والصدور، وهذه الأمة هي حاملة كتاب اللَّه والقائمة به، وهذا يستلزم بقاءها ببقاء القرآن، واللَّه أعلم.

ثامنًا: الأمة المرحومة:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أُمَّتي أُمَّةٌ مَرْحومَةٌ، ليسَ عليها عذابٌ في الآخِرَة، إنما عذابها في الدنيا: الفِتَنُ، والزلازِلُ، والقَتْلُ، والمَصائِبُ**»[٢].

تاسعًا: أمة النصر والتمكين والغلبة إلى يوم الدين:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**بَشِّر هذه الأمَّةَ -أو: أمتي- بالنَّصْر والسَّناءِ والتمكين، فمن عَمِلَ عَمَلَ الآخرةَ؛ للدنيا لم يَكُن له في الآخِرَةِ مِن نَصيبٍ**»[٣].

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٧٨)، وصححه شيخنا رحمه الله في «الصحيحة» (٩٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٤١٤٤). وصححه شيخنا في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣).

خصائص أمة الإسلام ودلالتها على أن المستقبل للإسلام

بعد هذه الجولة العلمية في بعض خصائص الأمة الإسلامية[1] وصفاتها في ضوء الكتاب والسنة؛ فإننا نستطيع الجزم بأن المستقبل للإسلام، لما يأتي:

أولًا: أنها خير الأمم؛ ولذلك الخير فيها موصول، مما يدل على أن آخرها كأولها؛ فالمستقبل للإسلام.

ثانيًا: أمة الوسط؛ فهي خير الأمم لا يأتيها الخلل، ولا تعتريها العلل، ولا تقع في الخطأ والزلل؛ مصداقًا لقوله ﷺ: «**إنَّ اللَّه لا يَجْمَع أُمَّتي على ضلالةٍ، وَيَدُ اللَّه على الجَمَاعَةِ**»[2]، وقوله: «**إنّ اللَّه قد أجارَ أمَّتِي أن تَجْتَمِعَ على ضَلالَةٍ**»[3].

ثالثًا: أنها أمة محفوظة مرحومة، مما يدل على استمرارها وبقائها وانتصارها؛ فالمستقبل لها ولدينها.

رابعًا: أنها أمة النصر والتمكين والاستخلاف؛ فالمستقبل للإسلام.

* * *

(١) وقد استوفيت جميع خصائص الأمة الإسلامية وفضائلها في كتابي: «شخصية الأمة الإسلامية بين التميز والتحيز» يسر اللَّه إتمامه ونشره على خير.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٧)، وغيره كثير بسند ضعيف من حديث عبد اللَّه بن عمر ﷺ؛ لكن له شواهد كثيرة يصح بها؛ كما بينته في تعليقي على كتابي «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» للحافظ ابن كثير (ص ٣٨٠-٣٨٥)، وانظر: «الصحيحة» (١٣٣١).

(٣) صحيح لغيره: كما بينته في تعليقي على كتاب الحافظ ابن كثير «الفصول على سيرة الرسول ﷺ» (ص ٣٨٠-٣٨٥).

خصائص أمة الإسلام ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

هذه الخصائص التي حبا اللَّه بها أمة الإسلام، تدل بوضوح على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام، ودونك التفصيل:

أولًا: خوف أعداء الإسلام من انتشاره وانتصاره وازدهاره، دليل على ظهور الدين بمنهج السلف الصالحين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

ثانيًا: خصائص الأمة جعلتها باقية، ذات رسالة عالمية؛ مما يدل على أن المستقبل لها ولدينها، ولما كان آخرها لا يصلح إلا بما صلح عليه أولها؛ فالمنهج الذي يسود هو منهج السلف الصالح.

ثالثًا: المؤمنون شهداء اللَّه في الأرض؛ يدل على حجية منهج السلف، وأن المستقبل للإسلام في ضوء فهمهم وسبيلهم.

رابعًا: الخير الموصول من أولها إلى آخرها تمثله الطائفة المنصورة، وهم أهل الحديث أتباع السلف؛ فالمستقبل للمنهج السلفي.

* * *

مبشرات السنن الإلهية ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

إن الحياة لا تجري في الكون عبثًا، والتدبير في المعاش والمعاد لا يمضي جزافًا؛ بل هناك نواميس ثابتة تتحقق، لكن لا يعقلها إلا العالمون.

وسنن اللَّه الجارية لا تتبدل، ولا تتخلف، وهي مستمدة من سنن الخلق والاجتماع؛ فتجري على النوع الإنساني: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ومن هذه السنن الإلهية المبشرة بمستقبل زاهر للإسلام، وانتصار قاهر على الكافرين:

*** أولًا: سنة التداول:**

هذه السنة قررها قول اللَّه -تعالى-: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فالأحوال تتحول، والدنيا تتبدل؛ فدوام الحال من المحال، ولذلك من تأمل أحوال الأمم، واستقرأ تأريخ الحضارات؛ يجد أن الأمر ينتقل من أمة إلى أخرى، فكم من حضارة سادت ثم بادت، وسيطرت ثم افتقرت، وعزَّت ثم ذلت؟

وقد انتقلت قيادة البشرية ببعثة رسول اللَّه ﷺ إلى الأمة الإسلامية؛ فكانت أمة متميزة، جمعت بين الدنيا والآخرة، وبين العلم والإيمان.

ولكن لما طال الأمد، وتنسَّخ العلم، وقُبض العلماء، وحاول كثير من بيده أمر الأمة الإسلامية أن يحلق بالأمة بعيدًا عن دينها وتاريخها، وتثاقل الناس إلى الأرض؛ اختطف الأعداء زمام القيادة، فكانت لهم الريادة في دنيا الناس... ولكنهم لن يطول مقامهم على رأس الهرم؛ فقد اقترفوا كل مقومات الفناء، واجترحوا ما يغضب رب

الأرض والسماء. . . ؛ فكان من سنة اللَّه في الإنسان والكون والحياة أن تنتقل القيادة إلى غيرهم. . . ، والمؤهل لذلك هم المسلمون؛ يدل على ذلك أمور كثيرة:

١- لا توجد أمة تملك رسالة عالمية تستوعب حياة الأفراد والشعوب والأمم غير أمة الإسلام، فعلينا أن نتهيَّأ لذلك، فوعد اللَّه قائم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥و١٠٦]

٢- أن مدنية الغرب مادية صرفة، فقد تغلغلت المادية في كل مقوماتها: الحياة والفكر والسلوك، ووصل الانحلال الأخلاقي، والفساد الاجتماعي إلى النخاع، ولذلك فالحضارات دون أخلاق وقيم لا تستمر، والأخلاق والقيم دون إيمان لا تستقر، فمدنية الغرب على شفا جرف هار.

ولقد رأينا كيف انهارت إحدى القوتين المادتين بغتة.

. . . لقد انهار الاتحاد السوفيتي دون مقدمات تذكر، مع أنه يملك أضخم ترسانة نووية، وأسلحة دمار شامل جبارة، وقوى عسكرية واقتصادية هائلة. . . ولكن من نظر في بواطن الأمور، وتدبر في فقه العواقب؛ وجد أن الباطن خراب، والمعنويات يباب. . . فخر عليهم السقف من فوقهم، ومادت الأرض من تحتهم؛ فأصبحوا أثرًا بعد عين. . . فلا تسمع منهم أحدًا، ولا تحس لهم ركزًا.

والغرب الصليبي الذي انفرد بالقوة، والقرار العالمي ليس بأحسن حالًا ولا مآلًا من مدنية الإلحاد التي انهارت واندثرت بين عشية وضحاها.

٣- الأمة التي يوجد فيها الخير موصولًا من أولها إلى آخرها، هي أمة الإسلام، ولذلك؛ فإن عناصر البقاء والاستمرار موجودة فيها، فإذا عادت إلى دينها كما أنزل أول مرة؛ عادت إليها القيادة كما كانت في أسلافهم الذين مضوا.

قال غلادستون: «مادام هذا القرآن موجودًا في أيدي المسلمين؛ فلن تستطيع أوربا

السيطرة على الشرق، ولن تكون هي نفسها في أمان»[١].

وقال المستشرق غاردنر:

«إن القوة التي تكمن في الإسلام؛ هي التي تخيف أوربا»[٢].

وقال سالازار في مؤتمر صحفي:

«إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يُغيِّرون نظام العالم».

فسأله صحفي: لكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم ونزاعاتهم!

فأجاب سالازار: «أخشى أن يخرج منهم من يوجه خلافهم إلينا»[٣].

٤- شهادة عقلاء الغرب بسقوط حضارتهم، ودنو شمسها من المغيب.

٥- شهادة عقلاء الغرب بأن المؤهل لقيادة العالم بعد انهيار حضارتهم هي أمة الإسلام.

*** ثانيًا: سنة التغيير:**

وهذه السنَّة تجدها في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٣و٥٤].

قال محمد رشيد رضا: «... فَنِعَمُ اللَّه -تعالى- على الأقوام والأمم منوطة ابتداءً ودوامًا بأخلاق وصفات وعقائد وأعمال تقتضيها، فمادامت هذه الأشياء لاصقة بأنفسهم، متمكنة فيها، كانت النعم ثابتة بثباتها، حسب سنة اللَّه -تعالى- العامة في خلقه، فإذا هم غيَّروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، وما يترتب عليها من محاسن الأعمال: غيَّر اللَّه عندئذ ما بأنفسهم، وسلب نعمته منهم؛ فصار الغني فقيرًا،

---

(١) «الإسلام على مفترق الطرق» (ص٢٩).

(٢) «التبشير والاستعمار» (ص٣٦).

(٣) «جند اللَّه» (ص٢٢).

والعزيز ذليلًا، والقوي ضعيفًا، هذا هو الأصل المطَّرِد في الأقوام والأمم، وهو كذلك في الأفراد»[١].

وهذه السنَّة قد انطبقت على حضارة الغرب ومدنيته؛ حيث مكَّن اللَّه لهم الأرض، وسخَّر لهم قواها، وفتح عليهم أبواب كل شيء، وأتتهم الأرزاق من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكنهم طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، وبغوا على العباد، ولم يخشوا يوم التناد... ولكن ربك بالمرصاد.

إن الحضارة الغربية مؤهلة أن تجري فيها سنة التغيير؛ فتصبح حصيدًا كأن لم تَغْنَ بالأمس.

١- سنة اللَّه في المعرض عن هداه:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]

وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

ولقد أعرضت الحضارة الغربية عن هدى اللَّه، وهو الإسلام؛ دين الحق والعدل والسلام، بل تنادى أهلها مصبحين أن اغدوا على الإسلام؛ فدمروه وأبيدوا أهله.. فحريٌّ أن يقيم اللَّه دينه، ويظهره على الملل كلها... ولو كره الكافرون... ولو كره المشركون.

٢- سنة اللَّه في المترفين:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٣].

(١) «تفسير المنار» (١٠/ ٣٧).

وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧]

وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]

فمدنيَّة الغرب عبدت المادة، وجعلتها المسيطرة على كل أمر ذي بال في حياة الإنسان.

قال ليوبولدفايس النمساوي الذي أسلم وتسمى بـ: «محمد أسد» في كتابه «الإسلام في مفترق الطرق»:

«إن المدنيَّة الغربية لا تجحد اللَّه ألبتة؛ ولكنها لا ترى مجالًا ولا فائدة للَّه في نظام فكرها الحالي!

إن الأوربي الحديث... سواء عليه أكان ديمقراطيًّا، أم فاشيًّا، أم رأسماليًّا، أم بلشفيًّا، أم صانعًا، أم مفكرًا... يعرض دينًا إيجابيًّا واحدًا؛ هو: التعبد للرقي المادي»[1].

ويقول جود الإنجليزي:

«إن نظرية الحياة التي تسود هذا العصر وتحكم عليه: هي النظرة في كل مسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب»[2].

---

(١) «الإسلام في مفترق طرق» (ص٤١).
(٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» (ص١٥٧).

٣- سنة الله في إهلاك الظالمين:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]

وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢]

قال شيخ الإسلام: «وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم.

ولهذا قيل: إن الله ليقيم الدولة العادلة؛ وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة؛ وإن كانت مسلمة.

ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»[١].

وقال القرطبي: «إن الجور والظلم يُخرِّب البلاد بقتل أهلها، وانجلائهم منها، ويرفع من الأرض البركة»[٢].

وقد جمعت المدنيَّة الغربية الكفر والظلم.

٤- سنة الله في تسليط الظالمين على بعض:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

قال القرطبي: «نُسلِّط بعض الظلمة على بعض؛ فيهلكه ويذلّه، وهذا تهديد

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص٤).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٣٣٤).

للظالم: إن لم يمتنع من ظلمه؛ سلط اللَّه عليه ظالمًا آخر»[1].

ألَّف الكاتب الروسي ميشيل باديف كتابه «ماذا يحدث للشيوعيين؟»، وذكر فيه الذين أعدمهم ستالين من أنصاره بعد وفاة لينين:

أعدم ستالين جميع أعضاء أول مجلس إدارة للحزب أجمع على انتخابه بعد وفاة لينين.

وأعدم كل وزراء لينين، واتهمهم بالخيانة.

وأعدم (٨٠٪) من سكرتيري اتحاد العمال.

وأعدم (١٥) عضوًا من لجنة دستور (١٩٣٦)، وعدد أعضائها (٢٧) عضوًا.

وأعدم (٤٣) عضوًا من مشرفي تنظيمات الحزب الشيوعي، وعددهم (٥٣) عضوًا.

وأعدم (٧٠) عضوًا من أعضاء مجلس الدفاع السوفييتي، وعددهم (٨٠) عضوًا.

وأعدم (٩) وزراء من مجلس وزراء عام (١٩٣٦)، وعددهم (١١) وزيرًا.

وأعدم (٦٠٪) من قادة الجيش الأحمر[2].

وهكذا سلَّط اللَّه ظالمي الشيوعية بعضهم على بعض، وأكل النظام الأحمر نفسه بنفسه؛ حتى انتهى المطاف به في مزبلة التاريخ.

وهكذا ستفعل المدنيَّة الغربية بنفسها، وستئول إلى المصير نفسه.

علَّق مراد هوفمان -السفير الألماني في المغرب- على نبوءة محمد أسد في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»، حيث تكلم عن صعود الإسلام مقابل انحطاط الحضارة الغربية التي تشمل الاتحاد السوفيتي.

قال هوفمان: «بدت تلك الرؤيا غير دقيقة لمدة ستين عامًا؛ فبعد الحرب العالمية

---

(١) المصدر السابق (٧/ ٨٥).

(٢) بواسطة «أفكار للبيع» (ص١٤١) لعلي أمين.

الثانية، بدلًا من أن ينهار الغرب، انقسم إلى معسكرين، ظهر أنهما يوازنان بعضهما البعض لعصور قادمة.

واليوم، بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ (١٩٩٠)، وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية في الغرب؛ تمر المسيحية بتغيير في المشروع، وما كان يسمى: «مشروع التحديث» يتساقط أمام أعيننا.

بدأ مُنظرو وعلماء الغرب يشكُّون إذا كانت افتراضاتهم الأساسية صحيحة»[١].

٥- عاقبة الكفر واحدة:

قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣].

وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهو ﷺ كما يفرِّق بين الأمور المختلفة؛ فإنه يجمع ويسوِّي بين الأمور المتماثلة، فيحكم في الشيء خلقًا وأمرًا بحكم مثله؛ فلا يفرق بين متماثلين، ولا يسوي بين غير متماثلين، وقد بيَّن ﷺ أن السنَّة لا تتبدل ولا تتحوَّل في غير موضع»[٢].

إذا كانت هذه السنن مجتمعة تبشر بأن ظلام الغرب إلى زوال، ومدنيَّتهم إلى بوار؛ فإن تتمة هذه السنة أن الذين تتغيَّر أنفسهم أو يُغيِّرون ما بأنفسهم من الشر إلى الخير، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الظلم والجور إلى العدل؛ فإن اللَّه يغيِّر حالهم، وما بهم من الذل إلى العزة، ومن الهزيمة إلى النصر، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الاستضعاف إلى التمكين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) «الإسلام عام ٢٠٠٠» مراد هوفمان (ص١٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٩).

وقال ﷺ: «إِذا تبايَعْتُم بالعينَةِ، وَأَخْذتُم أذنابَ البقر، ورضيتم بالزَّرْعِ، وتركْتُم الجِهَادَ فِي سَبِيل اللَّه؛ سَلَّطَ اللَّه عليكم ذُلًّا، لا يَنْزِعُه حتى تَعودوا إلى دينكم»[1].

وهذه السنة من المبشِّرات برجوع المسلمين إلى دينهم الذي ارتضاه اللَّه لهم، وعودة الإسلام إلى محل الصدارة والقيادة؛ فالمستقبل للإسلام وحده.

* * *

(١) مضى تخريجه (ص ١١٥).



مبشرات السنن الإلهية ودلالتها على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

أولًا: تعيش أمتنا الإسلامية يقظة إسلامية عميقة الجذور، تسري في كل شرائح المجتمع، وتنمو وتتعاظم على مر السنين والأعوام.

ثانيًا: هذه اليقظة سلفية المرجعية، سنية الأصول والملامح، تستلهم جذوة حياتها من الحركات الإصلاحية السلفية الكبرى؛ كالإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمجدد محمد بن عبد الوهاب.

ثالثًا: آلت قيادة هذه اليقظة إلى علماء سلفيين، أجمع على فضلهم وسبقهم الموافق والمفارق، والمؤالف والمخالف، وهم مشايخنا الأئمة: محمد ناصر الدين الألباني، وعبد العزيز بن باز، ومحمد بن صالح العثيمين -رحمهم اللَّه-.

رابعًا: اتفاق قوى المكر العالمية على توصيف اليقظة الإسلامية بأنها أصوليَّة سلفيَّة.

وهذا التوصيف وإن كان وراءه مكر كبَّار؛ ليضخِّموا هذه الظاهرة، وَيَسْتَعْدُوا عليها الأمم لتنقضَّ عليها وهي في مهدها؛ فهو يدل على أن هذه الدعوة ظاهرة رغم أنوفهم، وكيدهم ومكرهم.

* * *

مبشرات كونية شرعية على أن المستقبل للإسلام بمنهج السلف الكرام

أولًا: وعد اللَّه بنصر المؤمنين، وإنجائهم والدفاع عنهم:

لقد وعد اللَّه بنصر المؤمنين، وتعهد بنجاتهم، وتولَّى الدفاع عنهم، والولاية، والمعية لهم.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

لقد طال ارتقابهم للنصر، واستكمل إيمانهم بالصبر على أذى المشركين، وظنَّت أقوامهم أن اللَّه أخلف رسله ما وعده، ولم يُصدقهمُ الوعد.

. . . وهنا تكون المفاجأة الربانية الجارية على نسق سنن اللَّه الكونية والشرعية بعد استبطاء الرسل نصر اللَّه، وظن السوء من جانب المشركين ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ فنصر اللَّه يأتي في وقته لا يتأخر، ولا يستقدم حيث يكون الناس أحوج شيء إليه، وأرغب ما يكون في تحقُّقه: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ولذلك استقر عند ذوي الألباب والنُّهى: أن الأزمة كلما اشتدت وادلهمَّ خطبها، آذنت بالفَرَجِ.

قال الشاعر:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج!

وقال آخر:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعًا وعند اللَّه منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكنت أظنها لا تفرج

وتمام نصر اللَّه -أيضًا- يكون بإبطال كيد الكفر والكافرين، وإحباط مكرهم بالإسلام ودعاته، يوضِّحه:

ثانيًا: الإخبار بضعف كيد الكفار، وضلال سعيهم في النيل من الإسلام، وفشل كيدهم في الصدِّ عنه والتآمر عليه، ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

يقول الإمام ابن كثير: «فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، أي: ندامة، حيث لم تُجدِ شيئًا؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور اللَّه، وظهور كلمتهم على كلمة الحق، واللَّه متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومعلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قُتل منهم أو مات؛ فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾»[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥-١٧].

إنَّ الآيات الكريمة فيها تثبيت للمؤمنين وتطمينٌ لهم، كما أن فيها تهوين من أمر ما

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٦٩-٧٠).

يصنع الكفار من حرب للإسلام والمسلمين، ونهاية المعركة محسومة لهذا الدين؛ لأن اللَّه -تعالى- لا يقوى أحد على مواجهته أو النيل من دينه ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨].

٣- قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

في هذه الآية يقرر اللَّه: أن الكفار يمكرون بالإسلام والمسلمين ويخطِّطون لتدمير الدين ودعاته، ويحاولون محاربة اللَّه وأوليائه... ولكن أبطل اللَّه مكرهم، وجعل مكرهم في نحرهم وتدبيرهم في تدميرهم: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]

٤- عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنّ اللَّهَ زوى**[١] **لي الأرضَ؛ فرأيتُ مَشَارِقَها ومَغَارِبَهَا، وإن أُمّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لي مِنْهَا، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَر والأَبْيَض**[٢]**، وإنّي سَأَلْتُ ربِّي لأمتي ألا يهلِكَها بِسَنَة عَامَّة**[٣]**، وألا يُسَلِّطَ عليهم عدوًّا من سوى أنفُسِهم، فيستبيح بَيْضَتَهم**[٤]**، وإن ربّي قال: يا محمد! إنّي إذا قضيتُ قضاءً؛ فإنه لا يُردُّ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وألا أسلط عليهم عدُوًّا من سوى أنفسِهِم يستبيح بَيْضتَهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها**[٥] -أو قال: **من بين أقطارها**-، **حتى يكونَ بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بَعْضًا**»[٦].

ثالثًا: الرجوع إلى الإسلام:

من المبشرات الواقعية الدالة على أن المستقبل للإسلام: العودة إلى الإسلام التي يشهدها العالم الإسلامي اليوم، حيث أصبحت الرغبة في الإسلام تيارًا ذاتيًا،

(١) جمع وضم.
(٢) الذهب والفضة، وهما كنزا كسرى وقيصر -ملكي فارس والروم-.
(٣) القحط الذي يعمهم.
(٤) جماعتهم وأصلهم.
(٥) أهل الأرض جميعًا.
(٦) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

وبخاصة عند الشباب وغيرهم من فئات المجتمع، وهذا التيار لا يتعلق بحركة إسلامية معينة، بل يتعلق بالإسلام كمنهج حياة يصلح البشرية كما أصلحها من قبل، وقد أعادت للأمة الثقة بالإسلام، والرجاء في غدِه.

والعودة إلى الإسلام؛ هي: الظاهرة الاجتماعية التي تعني عودة الوعي للأمة واعتزازها بدينها، وإحساسها بذاتها وكرامتها، واستقلالها السياسي، والاقتصادي، وتميُّزها العقيدي والمنهجي، وسعيها للنهوض بدورها في استئناف بناء الحضارة الإسلامية على منهج النبوة؛ باعتبارها خير أمة أخرجت للناس.

وظاهرة العودة إلى الإسلام القائمة اليوم من المبشرات بأن المستقبل للإسلام، وهي حدث تأريخي له دلالته الواقعية، فهي تجيء من جهةٍ بعد الجُهد الكبير الذي بذلته القوى الصليبية والصهيونية العالمية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان؛ لزحزحة الأمة المسلمة عن دينها وسلخها منه، وتجيء من جهة أخرى والبشرية في أَحَدِّ منعطفاتها التأريخيَّة، وقد بدأت تيئس من مدنيتها المادية الجافة، وبدأت تتطلع إلى المخلِّص والمنقذ الجديد.

إن العودة إلى الإسلام هي أبرز خطوط الحاضر، وهي كذلك فيما نتوقع أبرز خطوط المستقبل، وهذا القول ليس من باب إلقاء الكلام على عواهنه، ولا من باب تصديق الأماني، إنما نقول ذلك: تبعًا للسنن الربانية، ووعد اللَّه -تعالى- لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ووعيد للكافرين المتمردين المستكبرين على عبادته بالهلاك وسوء المصير.

والعودة إلى الإسلام بمظاهرها وتياراتها -الظاهرة والخفية- ليست عارضة أو طارئة، كما أنها ليست رد فعل لظروف معينة، أو أوضاع اجتماعية، أو نكسة عسكرية؛ بل هي امتداد طبيعي لرسالة الأمة الإسلامية، جاءت من العمق التأريخي، وامتدت إلى الجذور الأصيلة لعقيدتها.. إنها استمرار التواصل الحضاري الإسلامي من خلال الطائفة المنصورة والفرقة الناجية القائمة على الدين، الظاهرة على الحق، رغم وجود العقبات والتحديات والمؤامرات التي تحاول زحزحتها عن إسلامها العظيم.

ومن روافد العودة إلى الإسلام: فشل النظم المستوردة في حل مشكلات الناس وقضاياهم، وفشل الزعماء العلمانيين وسياستهم في تحقيق ما كانت تُعلِّقه عليهم الشعوب من الآمال والأماني. . . وماذا فعلت النظم المستوردة؟! وماذا فعل الزعماء العلمانيون إلا المزيد من تمزق الدول الإسلامية، وتفتيت العالم الإسلامي، وتراكم الديون الربوية المتفاقمة، وظهور طبقة الأغنياء والمترفين والمفسدين في الأرض، وانهيار الأخلاق، وتدهور القيم، واستفحال الفواحش والمنكرات، واقتطاع القدس وما حولها من قلب العالم الإسلامي، واستمرار العدوان الوحشي على المسلمين؟! ماذا فعلت النظم المستوردة والزعماء العلمانيون والزعامات؟! فأين يتجهون؟ إنه رافد العودة إلى الإسلام، لا يمكن وقفه.

وهي جديرة بأن تعيد للأمة الإسلامية أملها المنشود ومجدها المفقود، وتقودها -بإذن اللَّه- إلى مواطن العز، إذا تولى زمامها العلماء الربانيون من أولي الأيدي والأبصار، الذين آتاهم اللَّه العلم في السنن الكونية، والفقه في الكتاب والسنة النبوية، والسير على منهج خير البرية السلف الصالح الكرام.

. . . نعم؛ لقد تكفل اللَّه -سبحانه- بأن يدخر لهذه الأمة المسلمة جيلًا يغرسهم على عينه، ويستعملهم بطاعته، ويربيهم على منهجه. . . يقاومون الانحرافات في كل أمر من أمور الدين، ويقيمون الدين في أنفسهم، علاقتهم بربهم: الحب ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وعلاقتهم بأمتهم: تكاتف ومودة ورحمة، وعلاقتهم مع أهل الكفر والطغيان: عزة وقوة وجهاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال الإمام ابن كثير: «يقول اللَّه مخبرًا عن قدرته العظيمة: إنه من تولى عن نصرة دينه، وإقامة شريعته بأن اللَّه سيستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سبيلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ [النساء: ١٣٣]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى

ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠].

ثم قال في قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾: «أي: لا يردُّهم عما هم فيه من طاعة اللَّه، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدُّهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل. .»[1].

*** أعداء الإسلام يدركون خطر الإسلام:**

إن إدراك أعداء اللَّه لخطورة الإسلام يجعلهم يفكِّرون في ضربه، ويمكرون في حربه. . . وهذا مؤشر على أن اللَّه متمٌّ نوره ولو كره المشركون.

لقد أدرك أعداء الإسلام خطورة تنامي اليقظة الإسلامية على أنظمتهم واستعبادهم للشعوب المسلمة، وعلى وجود ربيبتهم دولة اليهود في ديار الإسلام؛ فتعاونوا في جُهد مشترك لوقف مسيرة الإسلام، وللقضاء على اليقظة الإسلامية، ومظاهرها مسترشدين بالروح العدائية الصليبية واليهودية للإسلام والمسلمين.

ولقد جاء هذا المعنى على لسان كثير من قادتهم:

١- قال **«روبرت كابلاند»** -الخبير الأمريكي في شئون العالم الثالث-: «في هذا الجزء من العالم سيكون الإسلام بسبب تأييده المطلق للمقهورين والمظلومين أكثر جاذبية، فهذا الدين المطرد الانتشار على المستوى العالمي؛ هو: الديانة الوحيدة المستعدة للمنازلة والكفاح»[2].

٢- **كتب اللورد «كامبل»** -أحد أعضاء مجلس اللوردات البريطاني- في تقرير له يقول: «إن هناك شعبًا واحدًا يقطن ما بين الخليج إلى المحيط لغته واحدة، ودينه واحد، وقبلته واحدة، وثقافته واحدة، وآماله مشتركة، وأرضه متصلة، وهو اليوم في قبضة أيدينا، ولكنه بدأ يتململ، فماذا يحدث لنا غدًا إذا استيقظ العملاق»؟!![3].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٦٩-٧٠).

(٢) «فخ العولمة» (ص٦٤).

(٣) «واقعنا المعاصر» (٣٨٩).

٣- **ويقول«البرمشادور»**: «إن هذا المسلم الذكي الشجاع قد ترك لنا حيث حل آثار علمه وفنه ومجده وفخاره، وإن هذا المسلم الذي نام نومًا عميقًا مئات السنين وأخذ ينادي: هأنذا لم أمت، إني أعود للحياة، لا لأكون أداة طيعة، أو ثقلًا من البشر تسيِّره العواصم الكبرى».

ثم يقول: «ومن يدري؟ قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلادنا مهددة بالمسلمين، فيهبطون من السماء؛ لغزو العالم مرة ثانية في الوقت المناسب، والزمن الموقوت، لست أدعي النبوة، ولكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة لا تقوى الذَّرة ولا الصواريخ على وقف تيارها»[١].

٤- **ويقول المستشرق «جب»**: «إن أخطر ما في هذا الدين إنه يُبعث فجأة دون أسباب ظاهرة، ودون أن تستطيع أن تتنبأ بالمكان الذي يمكن أن يُبعث منه»[٢].

٥- **ويقول المؤرخ الفرنسي«ياباسكبيه»**: «إن الإسلام هو المنقذ الوحيد الذي يحتاج إليه العالم المعاصر؛ ليتخلص من متاهات الحضارة المعاصرة، والتي لابد إن استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان»[٣].

٦- **يقول «ابن غوريون»** -رئيس وزراء دولة اليهود الأسبق-: «نحن لا نخشى الاشتراكيات، ولا الثوريات، ولا الديمقراطيات في المنطقة؛ نحن -فقط- نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلًا، وبدأ يتململ من جديد».

٧- **ويقول اليهودي الماكر «شمعون بيرز»**: «إنه لا يمكن أن يتحقق السلام -حسب الطريقة اليهودية- في المنطقة مادام الإسلام شاهرًا سيفه، ولن نطمئن على مستقبلنا حتى يغمد الإسلام سيفه إلى الأبد..».

٨- **ومثله قول المعلق اليهودي لراديو دولة اليهود الذي أذيع مساء الخامس من أيلول (١٩٧٨م)**، جاء فيه: «إن على اليهود وأصدقائهم أن يدركوا أن الخطر الحقيقي

(١) «جند الله ثقافة وأخلاقًا» (ص١٥).
(٢) «واقعنا المعاصر» (ص٢٨٩)
(٣) «التمكين للأمة الإسلامية» (ص٨٦).

الذي تواجهه إسرائيل هو خطر عودة الروح الإسلامية إلى الاستيقاظ من جديد، وأن على المحبين لإسرائيل أن يبذلوا كل جهدهم لإبقاء الروح الإسلامية خامدة؛ لأنها إذا اشتعلت من جديد، فلن تكون إسرائيل وحدها في خطر، ولكن الحضارة الغربية كلها ستكون في خطر»[1].

وأسباب هذا العداء فيما يأتي:

أ- الإسلام هو الجدار الصلب أمام مطامعهم الاستعمارية:

يقول لورانس براون: «إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي»[2].

ب- الإسلام هو الجدار الوحيد الذي يقف في وجه انتشار النفوذ الشيوعي.

قال محرر جريدة الحزب الشيوعي (كزيل أوزبكستان) اليومية في «أوزبكستان» بتاريخ (٢٢ أيار ١٩٥٢م): «من المستحيل تثبيت الشيوعية قبل سحق الإسلام نهائيًّا»[3].

ت- الإسلام هو الجدار الذي يحول دون انتشار النصرانية.

قال أحد مبشريهم: «إن القوة الكامنة هي التي وقفت سدًّا منيعًا في وجه انتشار المسيحية، وهي التي أخضعت البلاد التي كانت خاضعة للنصرانية».

وقال أشعياء بومان: «لم يتفق قط أن شعبًا مسيحيًّا دخل في الإسلام، ثم عاد نصرانيًّا»[4].

ث- الإسلام هو الذي يهدد بقاء دولة اليهود.

يقول إيرل بوغر في كتابه «العهد والسيف» الذي صدر عام (١٩٦٥م):

«إن المبدأ الذي قام عليه وجود اليهود منذ البداية؛ هو: أن العرب لابد أن يبادروا

---

(١) «عداء اليهود للحركة الإسلامية» (ص٣٧و٤٦و٤٧).
(٢) «التبشير والاستعمار» (ص١٠٤).
(٣) «الإسلام والتنمية الاقتصادية» جاك أوستري (ص٥٦).
(٤) «جذور البلاء» (ص٢٠١).

ذات يوم للتعاون معها، ولكي يصبح هذا التعاون ممكنًا فيجب القضاء على جميع العناصر الذي تُغذِّي شعور العداء ضد إسرائيل في العالم العربي، وهي عناصر رجعية تتمثل في رجال الدين والمشايخ»[١].

وقال **إسحاق رابين**: «إن مشكلة الشعب اليهودي؛ هي: أن الدين الإسلامي ما زال في دور العدوان والتوسع، ليس مستعدًّا لمواجهة الدول، وأن وقتًا طويلًا سيمضي قبل أن يترك الإسلام سيفه»[٢].

هذه اليقظة تبشر أن الأمة المسلمة لا تموت، ومن مزاياها ألَّا تستمر غيبتُها أزمانًا؛ فالإسلام يُوقظُ فيها عوامل التنبه، وبواعث التحرك؛ فالخير فيها موصول: «**مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره**»[٣].

ودلالات هذه البشارة:

١- أن اليقظة الإسلامية علمية:

أ- تدعو إلى عقيدة السلف الصالح: الكتاب والسنة بمنهج الصحابة والتابعين، ومن سار على منهجهم إلى يوم الدين.

ب- أنها مرتبطة بالعلماء الربانيين وطلاب العلم الجادين.

ت- تدعو إلى التدرج؛ فالعلم قبل العمل، وواجب الوقت هو ما ينبغي الاشتغال به.

ث- تدعو إلى تصفية عقائد المسلمين مما علق بها من بدع وضلالات وجهل وخرافات، وتصفية السنة من الأحاديث الموضوعة والضعيفة، وتصفية جميع علوم الشريعة مما أُلصق بها وانتُحل عليها؛ ليعود الإسلام صافيًا كما أُنزل على محمد ﷺ.

---

(١) «الإسلام في معترك الحاضر» (ص٢٨).

(٢) «مجلة المجتمع الكويتية» (عدد ٣٢٤) بتاريخ (٩/ نوفمبر/ ١٩٧٦م).

(٣) مضى تخريجه (ص ٢٥٦).

٢- هي يقظة تربوية:

أ- تُربي الأمة على النبع الصافي؛ فتحقِّق مقاصد البعثة النبوية ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ب- تقوِّم الأخلاق؛ لتُتَمِّم صالحها، وتدعو إلى الخلق الحسن فهو قرين العقيدة والمنهج؛ كما في قوله ﷺ: «**إنّما بُعِثْتُ لأتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخْلَاقِ**»[١].

ت- تصل حاضر الأمة بماضيها التليد ضمن الثوابت والمتغيرات؛ لتستشرف مستقبل الإسلام الذي سيحققه الغرباء المصلحون[٢]، والناجون العابدون[٣]، والتائبون العائدون[٤].

٣- يقظة شعور ومشاعر:

أ- توقظ في قلوب دعاتها حماستهم المرتبطة بمنهجهم؛ فتظهر الغَيرة على حرمات اللَّه، وعملهم على تحكيم شريعة اللَّه.

ب- حماستهم مقيدة بالعلم؛ لأن العاطفة إذا نقصها العلم أضحت عاصفة تدمر كل شيء.

٤- يقظة عمل والتزام:

أ- مزجت بين العلم والعمل، فالعلم يهتف بالعمل؛ فإن أجابه حل، وإلا ارتحل.

ب- انتفع دعاتها بلحظ علمائهم؛ كما قيل: شيخك من حدثك بلحظه قبل أن يحدثك بلفظه، فمن لم ينتفع بصمت العلماء؛ يُحرم الانتفاع بعلمهم.

ت- فرَّ دعاتها من حب الظهور الذي يورث الغرور ويقصم الظهور، وترسَّموا

---

(١) سيأتي تخريجه (ص ٢٨٧).

(٢) انظر أحاديث غربة الإسلام (ص ١٥٣).

(٣) انظر أحاديث قتال اليهود وفتح القسطنطينية (ص ٢١٧).

(٤) كما دل عليه حديث العينة، انظر (ص ١٤١).

صفات عباد الرحمن.

هذه اليقظة الملتزمة جعلت تشارلز -ولي عهد بريطانيا- يقول في محاضرة ألقاها في قاعة المؤتمرات بوزارة الخارجية في شهر كانون الثاني (١٩٩٦م):

«إن الثقافة الإسلامية في شكلها التراثي جاهدت للحفاظ على هذه الرؤية الروحية المتكاملة للعالم، بطريقة لم نجدها نحن الأجيال الأخيرة في الغرب موائمة للتطبيق، وهناك الكثير مما يمكن أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامي في هذا المضمار...

إننا نحن أبناء الغرب نحتاج إلى معلمين مسلمين؛ ليعلِّمونا كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا، وإن اقتراب الألف الثالثة قد يكون الحافز المثالي الذي يدفعنا لاستكشاف هذه الصلات وتحفيزها»(١).

رابعًا: انهيار الأنظمة الشمولية:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤١-٤٢].

قال الإمام ابن كثير: «والقول الأول أولى؛ وهو: ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، وكَفْرًا بعد كفْر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ»(٢).

وقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

وقال ابن كثير- أيضًا-: «والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه عباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، يعني: بل هم المغلوبون، الأسفلون، الأخسرون، والأرذلون»(٣).

---

(١) جريدة الشرق الأوسط (عدد ٦٥٩٢) بتاريخ (١٥/ ١٢/ ١٩٩٦م).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٩٢).

(٣) «المصدر السابق» (٥/ ٤٤٥).

وثمة مؤشرات أخرى تدعم هذه النظرة وتقويها ؛ منها : ما نشاهده من انهيار النظم القائمة اليوم ؛ فإن انهيارها هذا سيعيد البشرية إلى منهج اللَّه وسفينة النجاة .

فالرأسمالية قد استُهْلِكَت عقيدة ونظامًا ، فكرًا وتطبيقًا ، وإن بقي حثالة منها متمثِّلة في أمريكا وغيرها ، فهي لا تزال في طريقها إلى الزوال والفناء ، حيث يرقبها مصيرها المحتوم[1] .

والشيوعية التي تُعدُّ من أشنع ما أنتجته العقول الفارغة ، والضمائر المنحلَّة ، والأهواء الجامحة ؛ حيث زعمت يومًا أنها ستغزو العالم ، وترث الأديان ، وتهزم الفلسفات ؛ فقد بدأت بالانهيار ، وأخذت تتمرد على قوانين وأنظمة وقيود الشقيين : (لينين) و(ماركس) شيئًا فشيئًا .

وما انشقاق الصين عن روسيا وخلافهما في مسائل كثيرة ، وقضايا جمَّة خطيرة ؛ إلا بداية الإرهاصات لهذا الانهيار[2] .

---

(١) بَنَت أمريكا قوتها على أربعة أركان :
١- الخداع والكذب .
٢- الاقتصاد .
٣- القوة العسكرية .
٤- ضعف المسلمين وتفرقهم .
فأما الكذب والخداع ؛ فإن حبلهما قصير ، فقد فقدت أمريكا مصداقيتها أمام جميع شعوب الأرض ؛ لأنها تكيل بمكيالين ، وتلعب على حبلين في جميع مواقفها الدولية وقرارتها السياسية ! !
وأما الاقتصاد ؛ فهو في حكم المنهار ، ولا أمل في إعادته وبنائه من جديد ؛ فمديونية أمريكا تبلغ أربعة آلاف مليار دولار ، بواقع مليار دولار عجز يومي .
وأما القوة العسكرية ؛ فهي تابعة في كثير من فصولها لسياسة الكذب والخداع والاقتصاد . . . وهي إلى دمار وبوار .
فلم يبق من مقومات بقاء أمريكا إلا ضعف المسلمين وتفرقهم ؛ ولذلك هي تركب الصعب والذلول على إبقائهم على وضعهم القائم ، بل زيادة في تفتيتهم وتقسيم بلادهم . . ولذلك ينبغي على الأمة الإسلامية أن تستفيق وتسلك سبيل التوفيق ، وتترك بُنيَّات الطريق .

(٢) وقد حقق اللَّه هذا الانهيار ؛ فقد تفكك الاتحاد السوفييتي عام (١٩٩٠م) إلى دوُيلات متفرقة على يد «غورباتشوف» ، وأصبحت الشيوعية جريمة يعاقب عليها القانون ، وحطمت أصنام الشيوعية على أيدي حماتها . =

وقد صرح «خروتشوف» في عام (١٩٦٤م) قائلًا: «لابد من القضاء على فكرة المساواة في الأجور، وأنه لابد من استغلال الحافز الفردي لزيادة الإنتاج، وأن المزارع الجماعية ضعيفة المحصول».

وهذا أكبر كفر بالشيوعية، وتخلٍّ صريح عن الأفكار الماركسية اللينينية التي قام على أساسها الهش النظام الشيوعي الأحمر، وأن العالم قد بدأ يشعر بهذا وبمدى خطورة هذا النظام وهذه القوانين وعدم جدواها.

قال «دالاس»: «يجب أن نرفض النظرية الماركسية القائلة: إن الأشياء المادية لها الأولوية والروحية تابعة لها.

إنها ردَّة شنيعة عن نُظم ومناهج ثبت بالتجربة والاختبار فشلها الذريع في قيادتها البشرية نحو السعادة، ردة إلى نظام آخر جديد؛ يرتق ما فسد، ويصلح ما خرب، ويقود الصالح من جديد.

إن هؤلاء الحيارى الذين يُنقِّبون عن المنهج الصحيح يتوهمون في بعض السبل والمناهج، ولكنهم لن يلبثوا -آجلًا أو عاجلًا- أن يهتدوا إلى الطريق الذي لابد منه بعد فشل شتى السبل، إلى منار الإسلام وإلى منهج اللَّه.

خامسًا: القوى التي تملكها الأمة.

تمتلك الأمة الإسلامية قوى كبيرة وكثيرة تعينها على بناء مستقبل زاهر:

١- القوى البشرية:

تملك أمة الإسلام ما يزيد عن ربع البشرية، منتشرين في جميع قارات العالم، وتكثير أمة الإسلام من مقاصد البعثة النبوية، وهذه الأعداد من المسلمين على كثرتها، وإن لم تكن هي النوعية التي ستؤثر في مجرى التاريخ، لكن هذا يُخيف أعداء المسلمين، فهاهي تقاريرهم تشهد على ذلك.

= وتتابع الانهيار في دول أوروبا الشرقية... رومانيا، وبلغاريا، وهنغاريا، ويوغسلافيا... وأصبحت أثرًا بعد عين... واللَّه غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

والذي يخيفهم: أن الكثرة في حد ذاتها نعمة؛ لأنها من شروط التفوّق الاقتصادي والحضاري، ولهذا تسعى كثير من الأمم إلى تعويض قلة أعدادها بالتكتل فيما بينها.

ولذلك امتنّ اللَّه على عباده؛ فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

أ- قال هانوتو -وزير خارجية فرنسا-:

«لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر»[1].

ب- قال أشعيا بومان:

«إن شيئًا يجب أن يسيطر على العالم الغربي، لهذا أسباب؛ منها: أن الإسلام منذ ظهوره في مكة لم يضعف عدديًا، بل أتباعه يزدادون باستمرار. من أسباب الخوف: أن هذا الدين من أركانه الجهاد»[2].

ت- ويقول لورد بيرجر في كتابه «العالم العربي المعاصر»:

«إن الخوف من العرب، واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجًا عن وجود البترول بغزارة عند العرب؛ بل بسبب الإسلام.

يجب محاربة الإسلام؛ للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوة العرب؛ لأن قوة العرب تتصاحب دائمًا مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره.

إن الإسلام يُفزعنا عندما نراه ينتشر بيسر في القارة الإفريقية»[3].

٢- القوى الاقتصادية:

يمتلك المسلمون من المعادن والثروات المذخورة في الأرض والظاهرة على سطحها ما لا تملكه أمة غيرها.

---

(١) «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» (ص١٨).

(٢) «التبشير والاستعمار» (ص١٣١).

(٣) «الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي» (ص١٩).

فعندها أكبر مخزون للبترول في العالم . . .

ولديها أكبر احتياطي من المياه الجوفية . . .

وموقعها الاستراتيجي؛ فهو ملتقى القارات، ومنبع الحضارات، ومهبط الرسالات.

وهذه القوى المادية والاقتصادية مددٌ لانتشار الإسلام السياسي، وعودة القوة إلى المسلمينَ.

قال شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا، وإن من المبشِّرات بعودة القوة إلى المسلمين، واستثمارهم الأرض استثمارًا يساعدهم على تحقيق الغرض، وتنبئ عن أن لهم مُستقبلًا باهرًا -حتى من الناحية الاقتصادية والزراعية-؛ قوله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَة حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ العَرَبِ مُرُوجًا وأنهارًا**».

وقد بدأت تباشير هذا الحديث تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العرب؛ بما أفاض عليها من خيرات وبركات وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء، وهناك فكرة بجر نهر الفرات إلى الجزيرة العربية؛ كما قرأنا في بعض الجرائد المحلية، فلعلها تخرج إلى حيز الوجود، وإن غدًا لناظره قريب.

هذا؛ ومما يجب أن يعلم بهذه المناسبة أن قوله ﷺ: «**لا يَأْتِي عَلَيْكُم زَمانٌ إلَّا والذي بعدَه شَرٌّ منه حتى تَلْقَوا رَبَّكم**».

فهذا الحديث: ينبغي أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها، مثل: أحاديث المهدي، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه، بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه؛ فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

أسأل اللَّه أن يجعلنا مؤمنين حقًّا»[١].

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١/ ١/ ٣٦/ ٥٠).

ولكن أعداء الدين يحاولون إبعادنا عن تحصيل القوة الصناعية والزراعية، ومحاولة إبقائنا عالمًا استهلاكيًّا يتبع الغرب.

يقول أحد المسئولين في وزارة الخارجية الفرنسية عام (١٩٥٢م): «إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدًا مباشرًا عنيفًا؛ هو: الخطر الإسلامي؛ فلنُعط هذا العالم ما يشاء، ولنقوِّ في نفسه عدم الرغبة في الإنتاج الصناعي والفني، فإذا عجزنا عن تحقيق هذه الخطة، وتحرر العملاق من عقدة عجزه الفني والصناعي؛ أصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطرًا داهمًا ينتهي به الغرب، وينتهي معه دوره القيادي في العالم»(١).

٣- القوى الأخلاقية:

هذه القوة من أهم عناصر ثبات الأمة الإسلامية واستقرارها، واستمرارها وانتصارها.

فهذه الرسالة تميزت بالربانية، فمصدرها الله، وغايتها الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما بُعثتُ لأتمِّم صالحَ الأخلاق**»(٢).

وتميزت بعالميتها؛ فهي رحمة للبشرية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وتميزت بوسطيتها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وما أحوج الإنسانية إلى هذه القيم الأخلاقية؛ لتنقذها من المادية الطاغية، والنفعية القاتلة، والإباحية المدمرة، ومن كل عناصر البأس والقلق، إلى مراقي الأمن والأمان والسكينة والأمل والاطمئنان.

---

(١) «جند الله» (ص٢٢).

(٢) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤٥).

ويدرك أعداء الدين هذه القوة الأخلاقية؛ فيعملون على تدمير أخلاق المسلمين، وتدمير عقولهم، وإطلاق شهواتهم:

أ- يقول مرماديوك باكتول:

«إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروها بها سابقًا؛ بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول؛ لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم»[١].

ب- يقول صموئيل زويمر -رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد (عام ١٩٣٥م)-:

«إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية؛ فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا، إن مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام؛ ليصبح مخلوقًا لا صلة له باللَّه، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية.

لقد هيَّأتم جميع العقول في الممالك الإسلامية لقبول السير في الطريق الذي سعيتم له؛ ألَّا يعرف الصلة باللَّه، ولا يريد أن يعرفها، أخرجتم المسلم من الإسلام ولم تُدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي مطابقًا لما أراده له الاستعمار؛ لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأيِّ أسلوب، حتى أصبحت الشهوات هدفه في الحياة، فهو إن تعلَّم؛ فللحصول على الشهوات، وإذا جمع المال؛ فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز؛ ففي سبيل الشهوات . . إنه يجود بكل شيء للوصول إلى الشهوات، أيها المبشرون! إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه»[٢].

---

(١) «جند اللَّه» (ص ٢٢).

(٢) «جذور البلاء» (ص ٢٧٥).

ت- ويقول نفسه في «كتاب الغارة على العالم الإسلامي»:

«إن للتبشير بالنسبة للحضارة الغربية مزيتان: مزية هدم، ومزية بناء.

أما الهدم؛ فنعني به: انتزاع المسلم من دينه، ولو بدفعه إلى الإلحاد.

وأما البناء؛ فنعني به: تنصير المسلم إن أمكن؛ ليقف مع الحضارة الغربية ضد قومه»[1].

إن هذه القوى الكامنة في الإسلام رصيد لمستقبل زاهر بإذن اللَّه -تعالى-، ولكن مع الأسف؛ فالمسلمون يجهلون هذه القوى وقدرتها على صناعة قوة الإسلام المادية، بينما الغربيون -الذين يدرسون واقعنا، ويرصدون حركة شعوبنا، ويراقبون طاقات الإسلام الكامنة -يحسبون لها ألف حساب؛ خشية أن تنطلق من عقالها في يوم ما.

ث- يقول البروفسور جب في كتابه «وجهة الإسلام»:

«إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجارًا مفاجئًا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها، إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد».

ج- وكتب الرحالة الألماني بول أشميد كتابًا خاصًّا بهذا الموضوع سماه: «الإسلام قوة الغد»، ظهر سنة (١٩٣٦م)، ومما قال فيه:

«إن مقومات القوى في الشرق الإسلامي، تنحصر في عوامل ثلاثة:

١- في قوة الإسلام كدين، وفي الاعتقاد به، وفي مُثُلِهِ، وفي مؤاخاته بين مُختلفي الجنس واللون والثقافة.

٢- وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الذي يمتد من المحيط الأطلسي، على حدود مراكش غربًا إلى المحيط الهادي، على حدود أندونيسيا شرقًا، وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء

(١) «الغارة على العالم الإسلامي» (ص١١).

ذاتي، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقًا إلى أوربا أو غيرها ؛ إذا ما تقاربوا وتعاونوا .

٣- وأخيرًا، أشار إلى العامل الثالث: وهو: خصوبة النسل البشري لدى المسلمين، مما جعل قوتهم العددية قوة متزايدة.

ثم قال: فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث: فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة، وتوحيد اللَّه، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم؛ كان الخطر الإسلامي خطرًا منذرًا بفناء أوربا، وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله».

ويقترح بول أشميد بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية كما تبلورت في تأريخ المسلمين وتأريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم: أن يتضامن الغرب المسيحي شعوبًا وحكومات، ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى وملائمة للعصر؛ ولكن في أسلوب نافذ حاسم.

* * *



بلاد الشام ومستقبل الإسلام[١]

ورد في شأن بلاد الشام آيات محكمة في كتاب اللَّه، وأحاديث صحيحة ثابتة في سنة رسول اللَّه ﷺ.

ولها فضائل جمَّة كثيرة، ينبغي على المسلمين أن يعرفوها؛ ليأخذوا من يومهم لغدهم، ومن حاضرهم لمستقبلهم، فيُعِدُّوا العدة، ولا يستعجلوا فيستطيلوا المدَّة، ويتأهبوا لما أراد اللَّه ﷻ لهذه الأرض المباركة من خيرٍ قادم -بإذن اللَّه ﷻ-، حيث ستشهد الانطلاقة الكبرى لأهل السُّنَّة والجماعة -أتباع السلف الصالح، أهل الحديث-.

ولتعلمنَّ نبأه بعد حين.

*** معنى الشام:**

تجمع (الشام) على (شامات)، ومن الناس من لا يجعله إلا شامًا واحدًا، ومنهم من يجعله شامات، فيجعل بلاد فلسطين والأرض المقدسة إلى حد الأردن شامًا، ويقولون: (الشام الأعلى)، ويجعلون دمشق وبلادها من الأردن إلى الجبال المعروفة بالطوال شامًا، ويجعلون سورية؛ وهي: حمص وبلادها إلى رحبة مالك شامًا، ويجعلون حماة وشيزر من مضافاتها، ويجعلون قنِّسرين وحلب مما يدخل في هذا الحد إلى جبال الروم وبلاد العواصم والسهول، فأما عكا وطرابلس وكلٌّ ما هو ساحل البحر وكل ما قابل شيء منه شيئًا من الشامات؛ فيحسب منه.

وإطلاق (الشام) على (دمشق) من باب إطلاق العام على الخاص، والعرب كثيرًا

(١) ملخص ندوة أقامها (مركز الإمام الألباني للدراسات المنهجية، والبحوث العلمية)، وشارك فيها: الدكتور باسم الجوابرة، والدكتور محمد موسى نصر، والشيخ هشام العارف، والشيخ مشهور حسن، وأدارها سليم الهلالي.

ما يسمُّون المدن القواعد بأسماء أقاليمها؛ فكانوا يقولون -بلا فرق-: (دمشق) أو (الشام).

* حدُّ الشام:

يحدُّها من الغرب: البحر المتوسط-، أو بحر الروم، أو بحر الملح، أو بحر الشام-، ومن الشرق: البادية، من أيلة[1] إلى الفرات، ثم يذهب الحد من الفرات إلى حد الروم- أو آسيا الصغرى-، ثم شمالًا إلى الروم، وجنوبًا: حدَّ مصر وتيه بني إسرائيل، وأيلة: هي آخر الحجاز وأول الشام، ورفح: هي حد الشام الجنوبي الغربي، ومعان: نِصْفان فيقال: معان الشاميَّة، ومعان الحجازيَّة.

* اهتمام علماء الإسلام ببلاد الشام:

اهتم علماء الإسلام ببلاد الشام؛ فكثرت مؤلفاتهم ومصنفاتهم التي صنفت في فضائل هذه البلاد وأهميتها، والحض على الهجرة إليها، منها:

١- للتَّمُرتاشي كتاب بعنوان: «الخير التام في حدود الأرض المقدسة والشام».

٢- كتاب للهيثم بن عدي المتوفى سنة (٢٠٧هـ) وبعنوان: «مديح أهل الشام»، وذكره ابن النديم في كتابه: «الفهرست».

٣- لأبي الحسن علي بن محمد الربعي المالكي المتوفى سنة (٤٤٤هـ): «فضائل الشام وفضل دمشق»، واختصره ابن الفركاح الفزاري المتوفى سنة (٧٢٩هـ)، واختصر ابن عمَّار كتاب ابن الفركاح وسماه: «الإعلام بفضائل الشام».

٤- كتاب السمعاني: «فضائل الشام»، فيه عشرون حديثًا مسندًا، وفيه آثار وأشعار.

٥- وله كتابٌ آخر اسمه: «فرط الغرام إلى ساكني الشام» كتبه بخطه ووجهه إلى محبه وصديقه ابن عساكر المتوفى سنة (٥٦٠هـ).

---

(١) وهي مدينة قديمة على البحر الأحمر -أو القلزم-، وهي تُسمَّى -اليوم-: العقبة.

٦- للعز بن عبدالسلام المتوفى سنة (٦٦٠هـ) كتاب اسمه: «ترغيب أهل الإسلام بسكنى الشام».

٧- وكذلك المحدث الحافظ الشاب تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية: محمد بن عبدالهادي المتوفى سنة (٧٤٤هـ) له كتاب بعنوان: «فضائل الشام».

٨- كتاب الحافظ ابن رجب بعنوان: «فضائل الشام».

٩- كتاب أبي المعالي المشرف بن المرجّى بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة (٤٩٢هـ)، واسمه: «فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام»[١].

٩- كتاب: «مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام» لشهاب الدين أبي محمود أحمد ابن محمد بن سرور المقدسي المتوفى سنة (٧٦٥هـ).

١٠- لضياء الدين المقدسي كتاب بعنوان: «فضائل بيت المقدس».

١١- «الإعلام بسن الهجرة إلى بلاد الشام» للبقاعي.

١٢- وكذلك: «حدائق الإنعام في فضائل الشام» لابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفى سنة (١١٣٨هـ).

١٣- وكذلك «بغية المرام في سكنى المدينة والشام»[٢].

١٤- وكذلك: «الروضة البهيَّة في فضائل دمشق المحميَّة»[٣] لمحمد عز الدين عربي كاتب الصيادي.

١٥- لابن الإمام كتاب بعنوان: «تحفة الأنام في فضائل دمشق والشام».

١٦- «الإعلام بنبذة من فضائل الشام».

---

(١) طبع مرتين، وكان السبق في طبعه -للأسف- لرجل يهودي اسمه (عوفر لينة)، وهذا هو المثبت على النسخة المحفوظة في توبنغن في ألمانيا الغربية، ثم نشر بتحقيق(!) أيمن نصر الدين الأزهري(!) عن دار الكتب العلميّة(!).

(٢) طبع بدمشق قديمًا.

(٣) طبع عن مطبعة المقتبس، سنة (١٣٣٠).

١٧- لحسن المحمدي كتاب بعنوان: «رسالة في الأحاديث الواردة في فضل الشام».

١٨- للطرابلسي الأفيوني: «الروض البسَّام في فضائل الشام».

١٩- ولعماد الدين بن محمد الحنفي المتوفى سنة (٩٢٠هـ)، «فضائل الشام»، وللبصراوي المتوفى سنة (١٠١٥هـ)، «تحفة الأنام في فضائل الشام».

٢١- وله: «فضائل الشام ودمشق».

٢٢- و«فتوح الإسلام على أيدي الصحابة الكرام».

ولدى اليهود حبٌّ عجيب وولعٌ شديد في اقتناء الكتب في فضائل البلدان لاسيما مكة والمدينة، ولديهم دراسات عن مشاعر المسلمين نحو مقدساتهم من خلال كتب الفضائل؛ كي يتبيَّن لهم الخط البياني لنمو هذه المشاعر أو ضمورها، فحينئذٍ يساهمون في بث ما يؤدي إلى ضمورها استعدادًا للمعركة.

إنَّ اهتمام سلفنا الصالح من علمائنا الأعلام بهذه الأرض المباركة؛ لما ورد في فضائلها في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، وأنَّها أرض المحشر والمنشر -كما ورد في أحاديث كثيرة صحيحة-، وأنَّ مستقبل الإسلام سيكون من هذه البلاد المباركة؛ كما سيتبيَّن -إن شاء اللَّه-.

*** بلاد الشام في خير الكلام:**

ولأهميَّة بلاد الشام وعظمها عند اللَّه ﷻ، فقد ذكرها في كتابه الكريم، ذكرها بالأرض المباركة، والأرض المقدسة.

١- قال اللَّه -تعالى-: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا﴾، أي: إبراهيم -عليه الصلاة السلام- ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، واختار له الأرض المباركة: اختار له فلسطين من بلاد الشام.

٢- وأمر كليم اللَّه موسى -عليه الصلاة السلام- قومه بدخول الأرض المقدسة من الشام فاتحين، ويقاتلوا الكفرة العمالقة، ويطهِّروا الأرض المقدسة من رجسهم؛

لكنهم نكلوا ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١-٢٥].

ولذلك دعا موسى عليه السلام ربه عندما كان أجله أن يدنيه إلى الأرض المقدسة رمية بحَجَر[1]، والقرب من الشيء يعطيه حكمه، ولذلك قال النبي ﷺ: «**لَو كُنْتُ عِنْدَه؛ لأَرْيتُكُم قَبْرَه عند الكثيبِ الأَحْمر**»[2].

وكان الإسراء بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ بروحه وجسده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكان عروجه من المسجد الأقصى إلى السموات العلا، وقد ذكر ربنا ذلك في كتابه؛ فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]؛ فقوله تعالى-: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾: يدل على أنَّ المسجد الأقصى وما حوله مما يحيط به من بلاد كلها مباركة.

٤- بلاد الشام ميراث الصالحين، قال اللَّه -تعالى-: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

الأرض المقصود بها: أرض الشام.

٥- وأجرى اللَّه ﷻ الريح لسليمان -عليه الصلاة والسلام- إلى الأرض المباركة، وكانت القدس موطن سليمان -عليه الصلاة السلام- ومكانه ومقرّ مملكته، قال اللَّه -تعالى-: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

قال ابن جرير الطبري: «تجري الريح بأمر سليمان إلى الأرض التي باركنا فيها؛ يعني: أنها الشام، وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: إلى الأرض التي باركنا فيها»[3].

٦- وقال اللَّه -تعالى-: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ [سبأ: ١٨]؛ أي: قرى بلاد الشام المتاخمة لقرى اليمن.

---

(١) يعني: مقدار رمية حجر.

(٢) «صحيح الجامع» (٨٩٨).

(٣) «جامع البيان» (١٠/ ٧٣).

٧- وأقسم اللَّه بالأرض المقدسة في كتابه المبين؛ فقال ﷻ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «قال بعض الأئمة[٢]: «هذه مَحالّ[٣] ثلاثة، بعث اللَّه في كلّ واحد منها نبيًّا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار؛ فالأول[٤]: محلة التين والزيتون؛ وهي بيت المقدس التي بعث فيها عيسى بن مريم عليه السلام، والثاني: طور سينين؛ وهو طور سِيناء أو سَيناء -فيها وجهان- الذي كلم اللَّه عليه موسى بن عمران عليه السلام، والثالث: مكة؛ وهو البلد الأمين، الذي من دخله كان آمنًا، وهي التي أرسل اللَّه ﷻ فيها محمدًا ﷺ، ولهذا أقسم بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما».

٨- كذلك ذكر اللَّه ﷻ بلاد الشام والأرض المقدسة، وجعلها مُبوَّأ صدق، قال اللَّه -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣].

قال ابن كثير: «هو بلاد مصر والشام مما يلي بلاد المقدس ونواحيه»[٥].

وروى الطبري عن قتادة: «بوَّأهم اللَّه الشام وبيت المقدس»[٦].

* * *

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٦٣).
(٢) ويعني: شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٠٧-٢٠٨).
(٣) جمع محلّ، وهو: المكان.
(٤) يعني: المحل الأول.
(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٤٧).
(٦) «جامع البيان» (٧/ ٢٠٦).

بلاد الشام في أحاديث خير الأنام محمد -عليه الصلاة والسلام-

وأما الأحاديث في فضائل الشام؛ فكثيرة:

١- فيها الطائفة المنصورة:

عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا تَزَالُ مِنْ أُمَّتي أمَّة قائمة بأمر اللَّه، لا يَضُرّهم مَنْ كَذَّبَهُم، ولا مَن خَذَلهمْ حتى يَأتيَ أَمْرُ اللَّهِ وهُم عَلى ذَلِكَ**»[١].

قال مالك بن يخامر: سمعت معاذًا يقول: «وهُم بالشَّام».

٢- عُقر[٢] دار المؤمنين بالشام:

عن سلمة بن نفيل الكندي ﷺ، قال: «كنت جالسًا عند رسول اللَّه ﷺ، فقال رجل: يا رسول اللَّه! أذال الناس الخيل، ووضعوا السلاح، وقالوا: لا جهاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول اللَّه ﷺ بوجهه، وقال: **كَذَبُوا؛ الآن جاء القتالُ، ولا تزالُ من أُمتي أمَّة يقاتِلُونَ على الحقِّ، ويزيغُ اللَّه لهمْ قُلوبَ أقوام، ويرزُقُهم منهم حتى تقوم السَّاعة، ويأتي وعدُ اللَّه، والخَيْلُ معقودٌ في نواصيها الخَيْرُ إلى يومِ القيامة، وعُقرُ دارِ المؤمنين بالشَّامِ**»[٣].

وهذا فيه تصريح: أنّ الطائفة المنصورة في الشام.

٣- الوصيَّة بسكنى الشام والهجرة إليها:

عن عبداللَّه بن عمر ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سَتَخْرُجُ عليكم فِي آخِر**

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي: أصل الشيء وموطنه، وتقرأ: عَقر أو عُقر -بفتح العين وضمها-.

(٣) رواه النسائي، وأحمد، وصححه شيخنا الألباني ﷺ في «الصحيحة» (١٩٣٥).

الزَّمَان نَارٌ من حَضرَمَوت قبلَ يوم القيامةِ تَحْشُرُ النَّاسَ»، قالوا: يا رسول اللَّه! فما تأمرنا؟ قال: «**عَلَيكم بالشَّام**»[(١)].

وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده؛ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ، وأومأ بيده نحو الشام، وقال: «**إنكم محشورون رجالًا وركبانًا، ومُجَرُّون على وجوهكم**»[(٢)].

وعن عبداللَّه بن حَوَالة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «**ستُجَنَّدون أجنادًا مجندة: جُندًا بالشام، وجُندًا بالعراق، وجُندًا باليمن**».

قال عبداللَّه: فقمت، فقلت: خِرْ لي[(٣)] يا رسول اللَّه!

فقال: «**عَليكُمْ بالشَّامِ، فَمن أَبَى؛ فَليلْحَق بِيَمنِهِ، وليَستَقِ من غُدرِه؛ فإنَّ اللَّه عز وجل قد تكفّلَ لي بالشَّام وأهْلِه**»[(٤)].

٤- الملائكة باسطة أجنحتها على الشام:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**طُوبَى للشَّام، طُوبَى للشَّام**»، قلت: ما بال الشام؟! قال: «**الملائِكَةُ باسِطَة أَجْنِحَتَها على الشَّامِ**»[(٥)].

٥- الإيمان حين تقع الفتن بالشام:

عن عبداللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنّي رَأَيْتُ عَمُودَ الكِتَاب انْتُزِعَ من تَحْت وِسَادَتِي، فَنَظرتُ؛ فإذَا هُو نُور ساطع عُمِد بِهِ إلى الشَّام، ألا إنَّ الإيمان إذا وقَعَت الفِتَن بالشَّامِ**»[(٦)].

---

(١) رواه الترمذي وأحمد، وصححه شيخنا رحمه الله في «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق» (ص٣٣).

(٢) رواه الترمذي وأحمد بإسناد صحيح، وحسنه شيخنا في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٥٨٢) بلفظ: «إنكم تحشرون رجالًا وركبانًا وتُجرُّون على وجوهكم»، وهو عند أحمد والترمذي بلفظ: «إنكم محشورون رجالًا وركبانًا وتُجَرُّون على وجوهكم» وهو في «صحيح الترمذي» برقم (٢٥١٢).

(٣) أي: اختر لي ودُلَّني على بلاد أسكنها؛ أي: عند تقسيم بلاد المسلمين، ووقوع الفتن.

(٤) رواه أبو داود وأحمد بإسناد صحيح، وصححه شيخنا في «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق» (ص١٣).

(٥) رواه الترمذي -وحسنه-، ووافقه شيخنا رحمه الله في «الصحيحة» (٥٠٣).

(٦) رواه الإمام أحمد، وصححه شيخنا في «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق» (ص١٤).

٦- نفيُ الخير عن المسلمين إذا فسد أهل الشام:

عن قرة بن إياس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا فَسَدَ أهْلُ الشَّام؛ فلا خَيْرَ فِيكُم، لا تزالُ طَائِفَةٌ من أمَّتي منَصْورِينَ لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم حَتَّى تَقُوم السَّاعَةُ**»[1].

فانظر -رحمك الله-؛ فإنّ أكثر الأحاديث في الشام يأتي قبلها أو بعدها: «**لا تزال طائفة من أمتي**»، وفيه دلالة وبيان على أن الطائفة المنصورة والفرقة الناجية في بلاد الشام.

٧- دعاء الرسول ﷺ لأهل الشام:

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهم! باركِ لنَا في شَامِنَا، اللَّهمَّ! باركْ لنَا في يَمَنِنَا**»، قالوا: وفي نجدنا؟ قال: «**اللَّهم بَارك لنَا في شامِنَا، اللَّهم! بارك لنَا في يَمَنِنَا**»، قالوا: يا رسول الله! وفي نجدنا[2]؟ يريدون أن يدعو النبي ﷺ لأهل نجد، فما دعا لهم -ألبتّة-، قال: «**هنالِكَ الزَلازِلُ والفِتَنُ، وبِهَا يَطْلُع قرنُ الشَّيطانِ**»[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد، وصحَّحه شيخنا في «صحيح الجامع» (٧٠٢).

(٢) المراد: شرق المدينة النبويَّة، وهي العراق على الراجح؛ كما فصَّل ذلك شيخنا الإمام الألباني رحمه الله، فقال في «الصحيحة» (٢٢٤٦): «وإنما أفضت في تخريج هذا الحديث الصحيح، وذكر طرقه وبعض ألفاظه؛ لأنَّ بعض المبتدعة المحاربين للسنَّة، والمنحرفين عن التوحيد يطعنون في الإمام محمد بن عبدالوهاب -مجدد دعوة التوحيد في الجزيرة العربية-، ويحملون الحديث عليه باعتباره من بلاد (نجد) المعروفة اليوم بهذا الاسم، وجهلوا -أو تجاهلوا- أنها ليست هي المقصودة بهذا الحديث، وإنما هي (العراق)، كما دلَّ عليه أكثر طرق الحديث.

وبذلك قال العلماء قديمًا وحديثًا؛ كالإمام الخطَّابي، وابن حجر العسقلاني وغيرهم.

وجهلوا - أيضًا - أنَّ كون الرجل من بعض البلاد المذمومة لا يستلزم أنه هو مذموم - أيضًا - إذا كان صالحًا في نفسه، والعكس بالعكس، فكم في مكة والمدينة والشام من فاسق وفاجر، وفي العراق عالم وصالح.

وما أحكم قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء حينما دعاه أن يهاجر من العراق إلى الشام: «أما بعد؛ فإنَّ الأرض المقدسة لا تُقدِّس أحدًا، وإنما يُقدِّس الإنسانَ عملُه».

(٣) «الصحيحة» (٢٢٤٦).

٨- فسطاط المسلمين يوم الملحمة في دمشق في الشام:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**يَوْمُ الملْحَمَةِ الكُبْرى فُسْطَاطُ المسلمين بأرضٍ يقال لها: الغوطة، فيها مدينة يقال لها: دِمَشْقُ؛ خَيرُ منازلِ المُسلمين يومئذٍ**»[1].

* * *

(١) رواه أبو داود وأحمد، وصححه شيخنا رحمه الله في «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق» (ص٣٦).

بلاد الشام والفرقة الناجية والطائفة المنصورة

ولا شك -عندنا- أنَّ بلاد الشام هي موطن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، وهذا باتفاق علماء الأمَّة، لا نعلم في ذلك خلافًا بين أهل الحديث ودعاة الأثر وأتباع السَّلف الصالح -رضوان اللَّه عليهم-.

ولذلك يجب على السلفي أن يهتم بدراسة بلاد الشام: تأريخيًّا وعقديًّا؛ لأنَّ السلفي:

منهجيٌّ في دراسته.

منهجيٌّ في عباراته.

منهجيٌّ في تصوُّراته.

الشامُ مهاجر إبراهيم عليه السلام، ومنشأ إسحاق ويعقوب وكثير من النبيين إلى عيسى بن مريم -عليهم الصلاة السلام-، ثم أُسري بمحمدٍ ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأهل الحديث ورثة الأنبياء.

ودخل الشام عمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمر بن عبدالعزيز، والشافعي، وابن تيمية، وابن قيِّم الجوزيَّة، وأبي الفداء بن كثير وغيرهم.

وأهل الحديث أتباع منهج الصحابة الأبرار، والعلماء الأخيار.

أرض الشام: هي الأرض المقدسة، والأرض المباركة، وخيرة اللَّه من أرضه، وأرض الرباط والجهاد، ومحل حزب اللَّه من عباده، وهم الطائفة المنصورة: أهل الحديث والعلم بالآثار، ومن تبعهم بإحسان، اقتداء بمنهج السَّلف الصالح -رضوان اللَّه عليهم-؛ عقيدةً، ومنهجًا، وسلوكًا، وتربيةً.

أهل الشام سوط اللَّه في أرضه، ينتقم بهم ممن يشاء كيف يشاء، قال علي:

«فلا تسبوا أهل الشام، ولكن سُبُّوا شرارهم؛ فإنّ فيهم الأبدال»[1].

أرض الشام فيها المسجد الأقصى؛ وهو: محل إسراء النبي ﷺ من مكة.

والإسراء رابط مهم بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

والإسراء رابط مهم بين إبراهيم ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-.

والإسراء رابط مهم بين الأنبياء، بيان للخلق أجمعين: أنَّ رسالتهم واحدة.

والإسراء رابط مهم بين النبي محمد ﷺ والصديقين.

والإسراء رابط مهم بين منهج النبوة ومنهج الطائفة الناجية.

ولعظم حادثة الإسراء والمعراج؛ سُمِّيت سورة في القرآن بـ: الإسراء، وفي هذه السورة بناء منهجيٌّ وعقديٌّ للمسلم.

والمعراج رابط مهم بين الأرض والسماء.

والمعراج فهمٌ لمعنى صفة الاستواء، وفيه ردٌّ على أهل البدع والأهواء.

والمعراج رابط مهم بين المؤمن وعقيدته.

والمعراج رابط مهم بين المؤمنين والأنبياء.

والمعراج رابط مهم بين المؤمنين والملائكة.

والمعراج رابط مهم بين عبد اللّه المؤمن وبين نبيه محمد ﷺ.

والمسجد الأقصى منبر دعوة التوحيد منذ إبراهيم إلى قيام الساعة.

وفي فهم منهج الطائفة المنصورة العِبَر المهمَّة من كتاب اللّه، ومن سنَّة المصطفى ﷺ

---

(١) صححه شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ في «الضعيفة» (٤٧٧٩) موافقًا للحاكم والذهبي، وهو موقوف.
لكن لا يصح في (الأبدال) حديث مرفوع، وذكر الشيخ في «الضعيفة» (١٤٧٤-١٤٧٩) جملة من أحاديث (الأبدال) حاكمًا عليها بالردّ.
ومراد علي بن أبي طالب: أولياء اللّه الصالحين، وليس الأبدال على المصطلح الصوفي المنكر.
وانظر -غير مأمور-: «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (ص١٠١).

على أرض الشام:

فينبغي أن يهتم المسلمون بهذا الدين، وعلى هذا المنهج المنير البصير، وهو: منهج النبوة على هذه الأرض؛ فتتوافق بركة الدعوة مع بركة المحل.

والنبي ﷺ ربط في حديثٍ بين مسألتين:

١- مسألة فساد أهل الشام.

٢- ومسألة وجود الطائفة المنصورة.

قال ﷺ: «**إذا فَسَدَ أهْلُ الشَّامِ؛ فَلا خَيْرَ فِيكُم**»(١).

وقال: «**لا تَزالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهرينَ عَلى الحَقِّ لا يَضُرُّهُم من خَذَلَهم، ولا من نَاوأهُم، حتَّى يَأتِيَ أمْرُ اللَّه وهمْ على ذَلِكَ**»(٢).

فعندما نقول: إنّ أرض الشام حلبة الصراع ومُعترك النزاع؛ يعني هذا: أنه يتوالى عليها الفساد والإصلاح، والفساد يفعله المُخَرِّبون، والإصلاح يفعله المصلحون على منهج النبوة.

ولذلك؛ فحين يتسلَّطُ أعداء اللَّه نرى أنَّ أهلها في فسادٍ عقَديٍّ وعملي، فمن أجل الإصلاح لابدَّ من الإخلاص في النيَّة والتعاون الشرعي، والإقبال على العلم، واتباع منهج النبوة، والعمل الصالح.

إن ارتباط بلاد الشام بالفرقة الناجية والطائفة المنصورة: ارتباط منهج وعقيدة.

ونحن لا نُفرِّق بين مكة والمدينة وبلاد الشام؛ فقد ربط اللَّه ﷻ بين مكة وبلاد الشام في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] فكما كانت البداية في مكة، وانطلق نور الإسلام من بطحائها؛ ستكون النهاية نصرًا مؤزرًا للإسلام

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٦٣).

(٢) «الصحيحة» (١٩٥٩)، و«صحيح الجامع» (٧٢٩٤).

في بلاد الشام، ففي حديث عِمران بن حصين رضي الله عنه؛ قال: قال ﷺ: «**لا تَزَال طائفةٌ من أُمَّتِي يُقاتِلُونَ على الحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلى من نَاوَأَهُم، حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُم الدَّجالَ**»[1].

وقتال الدجال معروف أنه في فلسطين؛ وأنه يقتل بباب لدّ[2]، وأنَّ عيسى عليه السلام يقتله بحربته، ويُري المؤمنين دمه، وأنَّ اليهود يومئذٍ يُقتلون شرَّ قِتْلَة، وينطق الحجر والشجر: «**يا مُسلم! يا عَبَدَاللَّه! هَذا يَهُوديٌّ ورائِي تَعالَ فَاقْتُلْهُ**»[3]، فلا شكَّ أنَّ الخير قادم، والنصر آتٍ بإذن اللَّه تعالى.

* * *

(١) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح؛ كما هو في «الصحيحة» برقم (١٩٥٩)، و«صحيح الجامع» (٧٢٩٤)، والحديث ألفاظه كثيرة، وأصله في «الصحيحين».

(٢) وهي مدينة في فلسطين -أعادها اللَّه للمسلمين، ونصرهم على عدوهم نصرًا مُبينًا-، والحديث عند مسلم في «صحيحه» (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهما.

بلاد الشام والفتن والملاحم

هذه الملاحم نهايتها -كما أخبر النبي الأمين ﷺ، بجزم ويقين، لا بظنٍّ وتخمين- إنما هي للمسلمين، والكلام حولها كثير، ويحتاج إلى فهم وربط، والذي يتأمل الأحاديث الصحيحة الواردة في الملاحم والفتن تأملًا جيدًا، ويربطها مع بعضها بعضًا؛ يجد أنَّ اللَّه ﷻ سَيُعيدُ الخيْرَ للمسلمين قبل هذه الملاحم، ولا يَبْعُدُ أن يكون لهم خليفة عامّ قبل المهدي[1]، فقد ثبت من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: «**لن يجمع اللَّه على هذه الأمَّة سيفين؛ سيفًا منها، وسيفًا من عدوها**»[2]، وأمتنا تجتمع عندما يزول الخلاف بينها، وعندها تكون مستعدة لمواجهة عدوها.

وقد فسر شيخ الإسلام قوله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] بأنَّ العذاب الأليم الوارد في هذه الآية هو قوله ﷻ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

فبلاد الشام معقل المسلمين في الفتن، واللَّه ﷻ يبعث منها موالي يؤيد بهم الدين؛ كما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «**إذا وقَعَت الملاحِمُ؛ بعثَ اللَّهُ مِنْ دِمَشْقَ بَعثًا من المَوالِيَ، أكْرَمُ العَرَبِ فُرسانًا وأجْوَدُهم سِلاحًا، يُؤيّدُ اللَّهُ بِهم الدِّينَ**»[3].

وقد تقدّم[4] قول النبي ﷺ: «**فُسْطاطُ[5] المُسلمينَ بأرْضٍ يقالُ لها: الغوطة، فيها مدينة يقال لها: دمشق؛ خير منازل المسلمين يومئذ**».

---

(١) وهذا الذي تؤيده الأدلة النقلية والعقلية وانظر -لزامًا- (ص ١٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود، وصححه شيخنا في «صحيح الجامع» (٥٢٢١).

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم، وحسَّن إسناده شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصحيحة» (٢٧٧٧).

(٤) (ص ٣٠٠).

(٥) أي: مجمع، والمراد: المكان الذي يجتمع فيه المسلمون، ويتميز صفُّهم من فسطاط النفاق والكفر.

إنَّ الملاحم -بلا شك- لها مقدمات، تهجم على الناس دون مقدمات، ولعل مقدماتها: طمع الكفار بخيرات هذه البلاد[١]، ولا سيما أنه ثبت من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**منعت[٢] العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مُدْيَها ودينارها، ومنعت مصر إردبَّها ودينارها، وعُدتم[٣] من حيث بدأتم، وعُدتم من حيث بدأتم، وعُدتم من حيث بدأتم**»[٤] شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه.

والقفيز والمُدْي والإردبُّ: مكاييل معروفة معيَّنة في ذلك الزمان، وفي تسمية النبي ﷺ مكيال كل قومٍ باسمه المعروف عندهم؛ دليلٌ على أنه ﷺ كان يعرف كلام الناس، وإن بعدت أقطارهم، واختلفت عباراتهم.

والنَّاظر في كتب الشُّرَّاح يجد أنهم -على اختلاف أعصارهم وأمصارهم، وعلى تباعد الزمن بينهم- كلٌّ منهم يقول: وقع هذا الحديث في زماننا، فلو نظرنا عند الخطابي -مثلًا- في «المعالم»[٥]، وابن حزم في «المحلَّى»[٦]، أو الحميدي في «الجمع بين الصحيحين»، أو القاضي عِيَاض في «إكمال المُعْلِم»[٧]، أو النووي في «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»[٨]، أو صدّيق حسن خان في «السراج الوهاج»[٩]، كلهم يقولون: وقع الحديث في زماننا، مع تباعد هذه الأزمنة(!).

وهذا الحديث يحتاج إلى تأنٍّ في إدراكه وفهمه.

لذا؛ فإنّ الفقهاء قد استنبطوا منه فوائد كثيرة، والذي يهمُّنا منه ما يخصُّ الملاحم، والراجح أنّ هذا المنع لم يقع -بعد- بقرائن قويَّة:

---

(١) كما في حديث تداعي الأمم، وانظر: «بدائع الحكم بفوائد حديث تداعي الأمم».
(٢) أي: ستمنع، بضميمة وقرينة (وعدتم).
(٣) أي: عدتم غرباء كما بدأ الدين.
(٤) أخرجه مسلم.
(٥) انظر: «معالم السنن» (٣/ ٣٥).
(٦) «المحلّى» (٥/ ١٧٠و ٧/ ٢٥٤).
(٧) «الإكمال» (٧/ ٢٥٤ و ٨/ ٤٣٤).
(٨) «شرح صحيح مسلم» (١٨/ ٢٨).
(٩) «السراج الوهاج» (١١/ ٣٦٧-٣٦٨).

١- منها ما ورد عن جابر بن عبدالله ﵄ موقوفًا -وهو في حكم الرفع؛- قال: «**يوشك أهل العراق ألا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم**»، قيل: من أين ذاك؟ قال: «**مِن قِبَلِ العجم**»، ثم قال: «**يوشك أهل الشام ألا يُجبى إليهم دينار ولا مُدْي**»، قيل: من أين ذاك؟ قال: «**من قِبَلِ الروم**»، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيًا**»، أو قال: «**يحثو المال حثوًا، ولا يعدُّه عدًّا**»[(١)].

فذكر المهدي بعد هذا الأمر؛ وفي هذا إشارة إلى أنّ هذا المنع إنما يكون **قبل** المهدي، وهذا الطمع لا يبعد أن يكون هو بدايات الملاحم المذكورة.

ومما ينبغي أن نُلفت إليه الأنظار في كلام جابر: أنَّ الذي يمنع أهل العراق خيرات بلادهم إنما هم العجم[(٢)]، بينما الذي يمنع أهل الشام خيرات بلادهم هم الروم[(٣)].

وهناك رواية عند البيهقي -بإسناد صحيح- فيها زيادة على ما ذكر في الحديث الأول، قال: «**والذي نفسي بيده؛ ليعودنَّ الأمر كما بدأ**»، ذكرها ثلاثًا، ثم قال: «**ليعودنّ كلّ إيمان إلى المدينة كما بدأ منها، حتى يكون كلّ إيمان بالمدينة**».

لذا وضع أبو عمرو الداني هذا الحديث تحت باب: «ما جاء في المهدي»، وكذا صنع القرطبي في «التذكرة»[(٤)]، فوضعه تحت باب: «الخليفة الكائن في آخر الزمان المسمى بالمهدي، وعلامة خروجه»، جعل هذا المنع علامة على خروج المهدي، وكذا كلام صديق حسن خان في «السراج الوهاج»[(٥)]، قال: «وهذا الحثو الذي يفعله هذا الخليفة يكون لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات مع سخاء نفسه[(٦)]».

وطوَّل في تقرير: أنَّ المهدي هو المعنيُّ.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) من العُجْمة، وإن كان عربيًّا وإذا كان في لسانه عجمة، ولا يحسن العربية؛ فهو أعجمي.

(٣) جنس من الناس معروف؛ كالعرب والفرس والزنج، وهم الذين نسميهم: الإفرنج، وهم اليوم أهل أوربا، وهم من ولد روم بن عيص بن إسحاق.

(٤) «التذكرة» (ص٥٥٨-٥٥٩).

(٥) «السراج الوهاج» (١١/ ٣٨١).

(٦) يعني: المهدي.

فهذه الملاحم تكون عند الطمع في خيرات العراق، وخيرات الشام، والباقي من الدنيا أقلُّ من الزائل.

ومما ينبغي أن يذكر في هذا المقام -وهو مهم-: حديث أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال ﷺ: «**يوشِكُ الفُرَاتُ أَنْ يُحْسَرَ عن كَنْزٍ من ذَهَبٍ، فمن حَضَره؛ فَلَا يَأْخُذ مِنه شَيئًا**»[1].

وهذا الانحسار ليس (البترول)، فهو مردود من وجوه عديدة.

وهذا الانحسار يكون قبل المهدي؛ بدلالة ما ثبت عن علي؛ قال: «الفتن أربعة: فتنة السراء، وفتنة الضراء، وفتنة ذكر فيها معدن الذهب، وانحسار الفرات»، ثم قال: «ثم يخرج رجل من عترة النبي ﷺ»[2]، فهذا الانحسار يكون قبل المهدي.

ويؤكد هذا: ما ثبت عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، قال: شُكي إلى عبد اللَّه بن مسعود الفرات، فقالوا: نخاف أن ينفتق علينا[3]، فلو أرسلت من يسكّره[4]، فقال عبد اللَّه: «يوشك أن تطلبوا في فراتكم هذه طستًا من ماء فلا تجدونه، ينزوي كل ماء إلى عنصره، فيكون بالشام بقية المؤمنين والماء»[5].

والشاهد قوله: «ويكون بقية المؤمنين بالشام»، فعند الانحسار يكون بقية المؤمنين في الشام، وتبدأ الملاحم من هنا، فهذه كلها إرهاصات ومقدمات.

وهذا لا يعني: أنَّ بلاد الشام لا يوجد فيها مصائب ولا فتن، لا؛ فالشام لابدَّ أن يصيبها شيء كثير، سواء في السابق أو اللاحق، وفتنة (التتار) لم تبق مدينة من بلاد الشام إلا وقد أصابها منها شرٌّ عظيم فيها؛ فإنهم أسعروا الدنيا نارًا.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة بسنده إلى علي ﷺ.

(٣) أي: يغرقنا.

(٤) أي: يسد فاه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق، والحاكم، وابن عساكر، وصححه شيخنا في «الصحيحة» (٣٠٧٨).
قال شيخنا: «والحديث وإن كان موقوفًا؛ فهو في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال من قبيل الرأي كما هو ظاهر».

والكلام في هذا طويل وكثير، وهنالك نصوص عديدة وكثيرة فيها بيان وصول الشر في كل مكان في آخر الزمان، والفتن ستشتد، والسعيد من يجنبها، وييسّر له المقام في آخر الزمان في الشام.

عن أبي أمامة رضي الله عنه؛ قال -وهو موقوف وله حكم الرفع-: «**لا تقومُ الساعةُ حتّى يتحوّل خِيارُ أهل العِرَاقِ إلى الشام، ويتحوَّل شرارُ أهل الشام إلى العِراق**»[١].

قال أبو أمامة على إثره قال ﷺ على أثره: «**عَلَيْكُم بالشَّامِ**».

وله شواهد كثيرة جدًّا، أجودها وأوضحها: عن شرحبيل بن مسلم، عن أبيه؛ قال: «بَلَغَنَا أنَّه لَن تقومَ الساعةُ حتَّى يخرجَ خيارُ أهلِ العراقِ إلى الشَّامِ، ويخرجَ شِرارُ أهل الشَّام إلى العِراق»[٢].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «**ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا يَبقى فيهُ مؤمنٌ إلا كان بالشَّام**»[٣].

والآثار والأحاديث تدلُّ على أنَّ تحوُّل المؤمنين في آخر الزمان سيكون إلى الشام، ولاسيَّما عند اشتداد الفتن في أقطار الأرض، ولذا ثبت من حديث عبد الله بن حوالة: أنَّ النبي ﷺ قال: «**يا بنَ حوالة! كيف تَصْنَع في فِتْنَةٍ تَثور في أقطارِ الأرضِ كأنها صَيَاصي**[٤] **بقرٍ؟**»، قال: قلت: أصنع ماذا يا رسول الله؟! فقال: «**عَلَيْكَ بالشَّام**»[٥].

عن مكحول؛ قال: «لَيَتمخَّرَنَّ الرومُ الشامَ أربعين صباحًا، لا يمتنع عنها إلا دمشقَ وعمانَ»[٦]، وفي رواية: «لا يَمْتَنِع منها إلا دمشقَ وأعالي البلقاءَ»[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٤٥)، وهو صحيح.

(٢) أخرجه ابن عساكر (١/ ٣٠١٦) بسند جيد.

(٣) أخرجه عبدالرزاق بسند جيد.

(٤) أي: قرونها، وشبّه الفتنة بها؛ لشدتها، وصعوبة الأمر فيها.

(٥) أخرجه أحمد والطيالسي.

(٦) أخرجه أبو داود في رواية اللؤلؤي -ومن طريقه ابن عساكر- بإسناد صحيح إلى مكحول.

(٧) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن».

وعن عبد الرحمن بن سلمان؛ قال: «سيأتي ملكٌ من ملوكِ العَجَمِ يظهرُ على المدائنِ كلِّها؛ إلا دمشقَ»[١]، فهو يَمْخَرُ المدائن كلها إلا دمشق.

وعليه؛ فالأحاديث التي فيها ذِكْرٌ للفتن والملاحم وبلاد الشام شيء كثير يفيدنا مجملها: أنه يقع صلح بين المسلمين -والظاهر أنه يكون لهم كيان وإمام- وبين الروم، ونقاتل معهم عدوًّا آخر، ويرفع واحد من الروم الصليب، ويثور رجل مسلم عليه فيقتله ويكسر الصليب، وحينئذ يغدر الروم، وتبدأ الملحمة بيننا وبينهم.

وفي هذا حديثٌ عن يُسَير بن جابر، قال: هاجت ريحٌ حمراء بالكوفة؛ فجاء رجل ليس له هجّيرى[٢] إلا: يا عبد اللَّه بن مسعود! جاءت الساعة. قال: فقعد ابن مسعود وكان متكئًا، فقال: «إنَّ الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث، ولا يُفرح بغنيمة»[٣]، ثم قال ابن مسعود بيده هكذا، ونحَّاها نحو الشام، وقال: «عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام».

وفي رواية: «عدوٌّ يجمعون لأهل الشام»، قلت: الروم تعني؟ قال: «نعم؛ ويكون عند ذاك القتال ردة شديدة، فيشترطُ المسلمُونَ شُرْطةً للموتِ لا ترجعُ إلَّا غالبة، فيقتتلون ثلاثة أيام حتى يحجز بينهم الليل؛ فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرَطة[٤]، ثم يشترط المسلمون شُرَطةً للموت لا ترجع إلا غالبة؛ فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشُّرْطة، ثم يشترط المسلمون شُرْطةً للموت، لا ترجع إلا غالبة».

وفي المرة الثالثة -في هذه المقتلة، أو الملحمة- يكون فيها المسلمون في دمشق،

---

(١) أخرجه أبو داود -ومن طريقه ابن عساكر-، وصحّح إسناده مقطوعًا على عبدالرحمن -هذا- شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح أبي داود» (٣٨٧٧).

(٢) أي: ليس له عادة.

(٣) أخرجه مسلم.

أورد السخاوي في «الضوء اللامع» (١/ ٣٧٧) في ترجمة عالم بالفرائض والمواريث أنه كان يقول: «ما دمت بين أظهركم فأنتم آمنون من ظهور الدجال»، مستدلًا بقول ابن مسعود: «لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة».

(٤) تقع مقتلة عظيمة في صفوف المسلمين.

ويكون الروم فيها بدابق -أو بالأعماق-[1]، ويكونون في هذا المكان بحكم الهدنة الأولى التي كانت بينهم، ثم في المرة الثالثة قال النبي ﷺ: «**لا تَرْجِعُ إلا غالبةً، فيقتتلون حتى يُمْسوا؛ فيفيءُ هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غيرُ غالبٍ**»، حتى إذا جاءت المرة الرابعة يأتيهم مَدَدٌ من المدينة، من خيار أهل الأرض؛ كما قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة[2].

ثمّ أخبر النبي ﷺ في آخر هذا الحديث: أنَّ الشيطان يأتيهم ويقول: «**إنَّ المسيح قد خلفكم في أهليكم**».

لقد أخبر عن الفتن والملاحم؛ لكي لا نستعجلها، ولا نتمنَّاها، ولكن نُبيِّن أنَّ هذا أمر قادم؛ ليعدّ الإنسان عُدَّته، ويأخذ أهبته من يومه لغده.

وإنَّ دعوتنا السلفيَّة المباركة -بإذن اللَّه- هي دعوة الإيمان والأمن والأمان؛ فهي تحافظ على أمن بلاد المسلمين: فلا تؤمن بالتفجيرات، بل تحاربها -ديانةً-، ولا تؤمن بالتهيُّجات السياسية، وإثارة الرعاع والدهماء على أولياء أمورهم، فهي دعوة للعلم، ودعوة للتربية، ودعوة لجمع شمل المسلمين على منهج الكتاب والسنَّة بفهم سلف الأمَّة، ودعوة يسعد بها المسلمون، يفرحون بها ومنها بنصر اللَّه ﷻ.

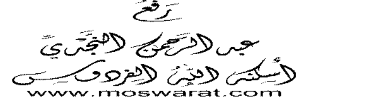
والدعوة السلفية مستمرة حتى يرث اللَّهُ الأرض ومن عليها، وحتى يأتي أمر اللَّه، ويفرح المؤمنون يومئذٍ بنصر اللَّه، وعسى أن يكون ذلك قريبًا.

إنّ الدعوة السلفيَّة-وهي تستشرف النصر للإسلام والتمكين للمسلمين-: دعوة خير، وأمن وأمان وإيمان، لا تؤمن إلا بالإصلاح والتربية والدعوة إلى اللَّه -بالتي هي أحسن للتي هي أقوم -منهجًا وطريقًا لنصر الإسلام والمسلمين، وأن ما يُروِّج له التكفيريّون -أو الخوارج المعاصرون -وإن انتسبوا ظلمًا وزورًا إلى الدعوة السلفية، أو نسبوا إليها من قِبل بعض وسائل الإعلام -خديعةً ومكرًا- كل ذلك ليس من الدعوة السلفيَّة في شيء؛ بل هي براء من الغلو في فتنة التكفير التي تؤدي إلى التفجير والتدمير، وقتل المسلمين، وترويع المستأمنين -براءة الذئب من دم ابن يعقوب -عليهما الصلاة والسلام-.

---

(١) وهما قريتان بالقرب من حلب.

(٢) أخرجه مسلم.



الألباني الإمام ومستقبل الإسلام

لقد كان شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ من أشد الناس تفاؤلًا في النصر والتمكين لهذا الدين؛ لأن التفاؤل تقوية للعزم، وباعث على الجد، ومعونة على بلوغ الهدف، ومؤنة لبلوغ المنزل، رغم ما يدركه من عقبات وعقابيل وعراقيل توضع في طريق أمة الإسلام؛ بيَّن ذلك في محاضراته ودروسه، وكتبه، وسجله في رسائله، فقد افتتح سلسلته الذهبية -«سلسلة الأحاديث الصحيحة»- بعنوان: «المستقبل للإسلام».

وبدأ رَحِمَهُ اللَّهُ بتأصيل هذه المسألة؛ فقال:

«المستقبل للإسلام: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

تبشِّرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك؛ فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق؛ كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله:

١- «**لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللّات والعزى**»، فقالت عائشة: يا رسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ أن ذلك تامًّا.

قال: «**إنَّه سَيكون مِن ذلك ما شاءَ اللَّهُ**».

وقد وردت أحاديث أخرى توضِّح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره؛ بحيث لا يدع مجالًا للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه.

وهٰأنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث؛ عسى أن تكون سببًا لشحذ هِمم العاملين للإسلام، وحجة على اليائسين المتواكلين.

٢- «إِنّ اللَّهَ زَوى لي الأَرْضَ ؛ فَرَأَيْتُ مشارِقَها وَمَغارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنها» .

وأوضح منه وأعم ؛ الحديث :

٣- «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمْرُ ما بَلَغَ اللَّيْلُ والنَّهارُ، ولا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هذا الدين ؛ بِعِزِّ عَزِيزٍ ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ، عزًّا يُعِزُّ اللَّه به الإِسْلَام، وذُلًّا يذِلُّ بِهِ الكُفْرَ» .

و مما لا شك فيه : أن تحقيق هذا الانتشار يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنويَّاتهم و مادياتهم و سلاحهم؛ حتى يستطيعوا أن يتغلّبوا على قوى الكفر والطغيان، وهذا ما يبشرنا به الحديث :

٤- عن أبي قبيل ؛ قال : كنا عند عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ، و سئل أي المدينتين تفتح أولًا : القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد اللَّه بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتابًا ، قال : فقال عبد اللَّه : بينما نحن حول رسول اللَّه ﷺ نكتب ؛ إذ سُئل رسول اللَّه ﷺ : أي المدينتين تفتح أولًا : أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : **«مَدِينَة هِرقْل تُفْتَحُ أَوَّلًا»** ، يعني : قسطنطينية.

و(رومية) : هي روما ، وهي : عاصمة إيطاليا اليوم .

وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني -كما هو معروف- ، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح ، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن اللَّه -تعالى- ولا بد ، ولتعلمنَّ نبأه بعد حين .

ولا شك أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة ، وهذا مما يبشرنا به ﷺ بقوله في الحديث :

٥- «تَكُونُ النُّبوَّةُ فِيكُم ما شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكوْنَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا اللَّه إذا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثمَّ تكونُ خلافةٌ على منهاج النبوَّة ، فتكونُ ما شاءَ اللَّه أن تَكُونَ ، ثم يَرْفَعُهَا إذا شاءَ أن يرفعها ، ثمَّ تكونُ مُلكًا عاضًا ؛ فيكونُ ما شاءَ اللَّه أن تكون ، ثم يَرفَعُهَا إذا شاءَ اللَّهُ أَنْ

يَرْفَعَها، ثمَّ تكونُ ملكًا جبريًّا، فتَكُون ما شاء اللَّه أن تكُون، ثمَّ يَرفَعُهَا إذَا شَاءَ أن يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»، ثُمَّ سَكَت.

ومن البعيد عندي حمل الحديث على عمر بن عبد العزيز؛ لأن خلافته كانت قريبة العهد بالخلافة الراشدة؛ ولم تكن بعد ملكين: ملك عاض، وملك جبري، واللَّه أعلم.

هذا، وإن من المبشرات بعودة القوة إلى المسلمين، واستثمارهم الأرض استثمارًا يساعدهم على تحقيق الغرض، و تنبىء عن أن لهم مستقبلًا باهرًا، حتى من الناحية الاقتصادية والزراعية: قوله ﷺ:

٦- «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ العَرَبِ مُروجًا وَأَنْهَارًا».

وقد بدأت تباشير هذا الحديث تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العرب، بما أفاض اللَّه عليها من خيرات وبركات وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء، وهناك فكرة بجر نهر الفرات إلى الجزيرة؛ كنا قرأناها في بعض الجرائد المحلية، فلعلها تخرج إلى حيز الوجود، و إن غدًا لناظره قريب[1].

---

(١) أجاب البرفسور ألفريد كرونر -من أشهر علماء الجيولوجيا- لما سئل: «هل كانت بلاد العرب بساتين وأنهارًا؟ فقال: نعم.

فسئل: متى كان هذا؟

قال: في العصر الجليدي الذي مر بالأرض، إن الجليد يتراكم في القطب الشمالي، ثم يزحف نحو الجنوب؛ فإذا اقترب من جزيرة العرب قُربًا نسبيًّا -طبعًا- تغير الطقس، وتكون بلاد العرب بساتين وأنهارًا.

فسئل: وهل ستعود بلاد العرب بساتين وأنهارًا؟!

قال: نعم؛ هذه حقيقة علمية.

فتعجب منه سائلوه: كيف يقول هذه حقيقة علمية، وهي مسألة تتعلق بالمستقبل!!

وسئل: لماذا؟!

قال: لأن العصر الجليدي قد بدأ، فهذه الثلوج تزحف من القطب الشمالي مرة ثانية نحو الجنوب، وهي في طريقها لتقترب من المناطق القريبة من بلاد العرب، ثم قال: إن من أدلتنا على ذلك: ما تسمعون عنه من العواصف الثلجية التي تضرب في كل شتاء المدن الشمالية في أوربا وأمريكا.

هذه من أدلة العلماء على ذلك، ولهم أدلة كثيرة على أنها حقيقة علمية.

ولما علم أن هناك حديثًا لرسول اللَّه ﷺ؛ قال: إن هذا لا يمكن أن يكون إلا بوحي من أعلى.

انظر: «إنه الحق» (ص٤٦).

هذا، ومما يجب أن يُعلم بهذه المناسبة أن قوله ﷺ: «**لا يَأْتِي عَلَيْكُم زَمانٌ إلَّا والذي بَعْدَه شَرٌّ منه حتى تَلْقَوا ربَّكُم**».

فهذا الحديث ينبغي أن يُفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها؛ مثل: أحاديث المهدي، و نزول عيسى عليه السلام؛ فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه، بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه؛ فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، أسأل اللَّه أن يجعلنا مؤمنين به حقًّا.

*** حض الإسلام على استثمار الأرض وزرعها:**

فيه أحاديث كثيرة؛ أذكر ما تيسر منها:

٧- عن أنس؛ قال النبي ﷺ:

«**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرُسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زرعًا، فَيَأكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أو إنْسَانٌ، أو بَهِيمَة؛ إلا كانَ له بِهِ صَدَقَةٌ**».

٨- عن جابر مرفوعًا:

«**ما مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا؛ إلَّا كانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَة، وما سُرِقَ منه له صَدَقَة، وما أكَلَ السَّبُعُ منه؛ فهو لَهُ صَدَقة، وما أكَلَت الطَيْرُ؛ فهُوَ لهُ صَدَقَةٌ، ولا يرزؤه أحَدٌ؛ إلا كان له صَدَقَة إلى يوم القِيَامَةِ**».

٩- عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«**إن قامَت السَّاعَةُ وفي يَدِ أحَدِكُم فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطاعَ ألَّا تَقُومُ حَتّى يَغْرسُهَا؛ فَلْيَغْرِسْهَا**».

الفسيلة: هي النخلة الصغيرة.

ولا أدلُّ على الحض على الاستثمار من هذه الأحاديث الكريمة، لاسيما الحديث الأخير منها؛ فإن فيه ترغيبًا عظيمًا على اغتنام آخر فرصة من الحياة في سبيل زرع ما ينتفع به الناس بعد موته؛ فيجري له أجره، وتُكتب له صدقته إلى يوم القيامة.

وقد ترجم الإمام البخاري في «الأدب المفرد» لهذا الحديث بقوله: «باب اصطناع المال».

ثم روى عن الحارث بن لقيط قال:

«كان الرجل منا تُنتج فرسه فينحرها، فيقول: أنا أعيش حتى أركب هذه؟ فجاءنا كتاب عمر: أن أصلحوا ما رزقكم اللَّه؛ فإن في الأمر تنفسًا».

وسنده صحيح.

وروى بسند صحيح عن داود؛ قال: قال لي عبد اللَّه بن سلام: «إن سمعت بالدجال قد خرج، وأنت على ودية تغرسها؛ فلا تعجل أن تصلحه؛ فإن للناس بعد ذلك عيشًا».

وروى ابن جرير، عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: «ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غدًا.

فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنَّها.

فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي».

ولذلك عدَّ بعض الصحابة الرجل يعمل في إصلاح أرضه عاملًا من عمَّال اللَّه ﷻ.

فروى البخاري في «الأدب المفرد» عن نافع بن عاصم: أنه سمع عبد اللَّه بن عمرو قال لابن أخ له خرج من (الوهط): أيعمل عمالك؟ قال: لا أدري، قال: أما لو كنت ثقفيًّا؛ لعلمت ما يعمل عمالك، ثم التفت إلينا فقال: إن الرجل إذا عمل مع عماله في داره (وقال الراوي مرة: في ماله)، كان عاملًا من عُمال اللَّه ﷻ».

و سنده حسن -إن شاء اللَّه تعالى-.

و(الوهط) في اللغة؛ هو: البستان، وهي أرض عظيمة كانت لعمرو بن العاص بالطائف على ثلاثة أميال من (وج)، يبدو أنه خلفها لأولاده.

وقد روى ابن عساكر في «تاريخه» بسند صحيح عن عمرو بن دينار؛ قال:

دخل عمرو بن العاص في حائط له بالطائف يقال له: الوهط، فيه ألف ألف خشبة، اشترى كل خشبة بدرهم.

يعني: يقيم بها الأعناب.

هذه بعض ما أثمرته تلك الأحاديث في جملتها من السلف الصالح ﷺ.

وقد ترجم البخاري في «صحيحه» للحديثين الأوَّلين بقوله:

«باب فضل الزرع إذا أُكل منه».

قال ابن المنيّر:

«أشار البخاري إلى إباحة الزرع، وأن من نهى عنه -كما ورد عن عمر-؛ فمحّله ما إذا شغل الحرث عن الحرب ونحوه من الأمور المطلوبة، وعلى ذلك يحمل حديث أبي أمامة المذكور في الباب الذي بعده».

*** التكالب على الدنيا يورث الذل:**

ذكرت بعض الأحاديث الواردة في الحض على استثمار الأرض، مما لا يدع مجالًا للشك في أن الإسلام شرع ذلك للمسلمين، ورغبهم فيه أيَّما ترغيب.

والآن نورد بعض الأحاديث التي قد يتبادر لبعض الأذهان الضعيفة، أو القلوب المريضة: أنها معارضة للأحاديث المتقدمة، وهي في الحقيقة غير منافية لها، إذا ما أحسن فهمها، وخلت النفس من اتباع هواها!

١٠- عن أبي أمامة الباهلي؛ قال، ورأى سكَّة، وشيئًا من آلة الحرث، فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«**لا يدْخلُ هذا بيتَ قومٍ؛ إلا أدخله اللَّهُ الذُّلَّ**».

وقد وفق العلماء بين هذا الحديث والأحاديث المتقدمة، بوجهين اثنين:

الأول: أن المراد بالذل: ما يلزمهم من حقوق الأرض التي تطالبهم بها الولاة من خراج أو عشر، فمن أدخل نفسه في ذلك؛ فقد عرضها للذلّ.

قال المناوي في «الفيض»:

«وليس هذا ذمًّا للزراعة؛ فإنها محمودة مثاب عليها؛ لكثرة أكل العوافي[1] منها، إذ لا تلازم بين ذل الدنيا وحرمان ثواب البعض».

ولهذا قال ابن التين:

«هذا من إخباره ﷺ بالمغيبات؛ لأن المشاهد الآن أنَّ أكثر الظلم إنما هو على أهل الحرث».

الثاني: أنه محمولٌ على من شغله الحرث والزرع عن القيام بالواجبات؛ كالحرب ونحوه، وإلى هذا ذهب البخاري حيث ترجم للحديث بقوله:

«باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع، أو مجاوزة الحد الذي أُمر به».

فإن من المعلوم أن الغلو في السعي وراء الكسب: يُلهي صاحبه عن الواجب، ويحمله على التكالب على الدنيا، والإخلاد إلى الأرض، والإعراض عن الجهاد؛ كما هو مشاهد من الكثيرين من الأغنياء.

و يؤيد هذا الوجه: قوله ﷺ:

١١- «إِذَا تَبَايَعْتُم بِالعِينَة[2]، وَأَخَذْتُم أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُم الجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُم ذُلًّا لا يَنْزِعُهُ حَتّى تَرْجِعُوا إلى دِينِكُم».

فتأمل كيف بيَّن هذا الحديث ما أُجمل في حديث أبي أمامة المتقدم قبله، فذكر أن تسليط الذل ليس هو لمجرد الزرع والحرث؛ بل لما اقترن به من الإخلاد إليه، والانشغال به عن الجهاد في سبيل الله، فهذا هو المراد بالحديث، وأما الزرع الذي لم يقترن به شيء

---

(١) جمع (عافية). قال في «النهاية»:
«العافية والعافي: كل طالب رزق؛ من إنسان، أو بهيمة، أو طائرة».

(٢) (العينة): أن يبيع شيئًا من غيره بثمن مؤجل، ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقدًا.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذا مع التواطؤ يبطل البيعين؛ لأنها حيلة».

من ذلك؛ فهو المراد بالأحاديث المرغِّبة في الحرث، فلا تعارض بينها ولا إشكال.

(تنبيه): من البواعث على كتابة هذا المقال: أن مستشرقًا ألمانيًّا زعم لأحد الطلاب المسلمين السوريين هناك: أن الإسلام يحذِّر من تعاطي أسباب استثمار الأرض! واحتج بهذا الحديث، وقال: إنه في البخاري؛ متعاميًا عن المعنى الذي ذكره البخاري -نفسه- في ترجمته للحديث السابق.

١٣- «لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبوا في الدُّنيا».

قال القرطبي: يجمع بينه وبين حديث الباب بحمله على الاستكثار والاشتغال به عن أمر الدين، وحمل حديث الباب على اتخاذها للكفاف أو لنفع المسلمين بها وتحصيل توابعها».

قلت: ومما يؤيد هذا الجمع: اللفظ الثاني من حديث ابن مسعود؛ فإن (التبقر) في حديث عبد اللَّه بن مسعود: التكثر والتوسع. واللَّه أعلم.

واعلم أن هذا التكثر المفضي إلى الانصراف عن القيام بالواجبات التي منها الجهاد في سبيل اللَّه؛ هو المراد بالتهلكة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وفي ذلك نزلت الآية خلافًا لما يظن كثير من الناس!

فقد قال أسلم أبو عمران:

١٣- غزونا من المدينة، نريد القسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم مُلصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل منَّا على العدو؛ فقال الناس: مه مه! لا إله إلا اللَّه! يلقي بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب الأنصاري: إنما تؤولون هذه الآية هكذا أن حمل رجل يقاتل يلتمس الشهادة، أو يبلي من نفسه! إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار: لما نصر اللَّه نبيه وأظهر الإسلام؛ قلنا بيننا خفيًّا من رسول اللَّه ﷺ: هَلُمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها؛ فأنزل اللَّه -تعالى-: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها، وندع الجهاد.

قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل اللَّه، حتى دفن بالقسطنطينية.

إعلام الأنام بفقه مستقبل الإسلام عند الشيخ الإمام

أولًا: مستقبل الإسلام ينقسم إلى قسمين:

١- قسم تحقق في عهده ﷺ، والخلفاء الراشدين، والملوك الصالحين.

٢- وقسم لم يتحقق بعد.

ثانيًا: أن القسم الذي تحقق جزء من هذا الوعد الصادق؛ لأن الآتي هو انتشار الإسلام في كل مكان، وظهوره على جميع الملل والنحل.

ثالثًا: أن القسم الذي تحقق مقدمة ودليل على القسم الذي لم يأت أوانه، فالذي صدق في إخباره أول مرة؛ يدل على صدقه كل مرة؛ لأن ما وعد به تحقق، وسيتمُّ اللَّه وعده.

رابعًا: أن الإيمان بأن المستقبل للإسلام وحده -بإذن اللَّه وتوفيقه-؛ عون للمسلمين على العمل لتحقيق ذلك، وسبب لشحذ هممهم، وحجة على اليائسين البائسين الذين جلسوا متواكلين متخاذلين، رغم أن الخير في أمة محمد ﷺ موصول.

خامسًا: المرجعية في تأصيل هذا المنهج وتفصيله: كتاب اللَّه، وسنة رسوله ﷺ:

١- السنة تفسر القرآن، وتفصل مجمله، ولذلك استدل بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، ثم فسَّرها بما ثبت عن رسول اللَّه ﷺ.

٢- أن أحاديث رسول اللَّه ﷺ يوضِّح بعضها بعضًا، ولذلك لابد من جمعها في الباب الواحد.

سادسًا: أن تحقيق ذلك وفق سنن اللَّه الجارية؛ فلابد أن يرجع المسلمون أقوياء

في معنوياتهم برجوعهم إلى دينهم الحق، ومادياتهم وسلاحهم باستثمارهم أرضهم، واستخراج ثرواتها.

سابعًا: أن رجوع المسلمين إلى مكانتهم العالمية، وتمكنّهم من القوتين الإيمانية والمادية؛ يكون بإقامة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، وتطبيق حكم اللَّه في الأرض، فالخلافة الراشدة تنشر التوحيد، وتوحِّد كلمة المسلمين.

ثامنًا: أن القوة السياسية والعسكرية ينبغي أن يردفها قوة اقتصادية هائلة، تجعل الأمة الإسلامية في اكتفاء ذاتي؛ فلابد أن تلبس مما تصنع، وتأكل مما تزرع، وتستثمر الأرض زراعة، وتعمرها صناعة.

تاسعًا: أن الإسلام دين عملي ينتقل بالإنسان من مجال الفكرة المجردة إلى الإيمان القلبي والعقلي إلى التطبيق العملي، ولذلك حض على ذلك كله.

عاشرًا: أن السلف الصالح فهموا ذلك كله، فعاشوه عمليًّا، وطبقوه واقعيًّا؛ فكانوا لغيرهم أئمة وقدوة صالحة.

حادي عشر: أن التقدم السياسي والعسكري والاقتصادي وسائل وليس غايات؛ فإذا انقلبت الوسائل إلى غايات، وانتكست النتائج فصارت مقدمات؛ أصاب الأمة ذل، وطمع بها أعداؤها، وغزوها في عقر دارها؛ فمزَّقوها شر ممزق.

ثاني عشر: إذا وقعت الأمة في ذلك؛ فلا نجاة لها إلا بالرجوع الأمين لهذا الدين، فإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها، وما لم يكن يومئذ دينًا؛ فليس بدين.

ثالث عشر: أن الدعاة المصلحين والعلماء الربانيين لابد أن يحذِّروا الأمة المسلمة من فتنة الشهوات، المتمثلة في حب الدنيا، وفتنة الشبهات التي ينشرها أعداء الأمة من المستشرقين والمستغربين.

* * *

رفع الملام عن شيخنا الإمام

في ضوء ما سبق ذكره؛ يتبيَّن لكل منصف: أن شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ على بصيرة بشرع اللَّه وقدره، وأنه من عدول هذه الأمة الذين أطاعوا اللَّه في نهيه وأمره.

لأن هذه القرائن لغة بذاتها، لا يفهمها إلا الرجال الذين هم مفاتيح الخير مغاليق الشر؛ كما في قوله ﷺ: «**عِنْدَ اللَّهِ خَزَائِنُ الخَيْرِ والشَّرِّ، مَفَاتِيحُهَا الرِّجالُ، فَطُوبَى لِمَنَ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا للخَيْرِ، مِغْلاقًا للشَّرِّ، وويلٌ لمن جَعَله اللَّهُ مِفتاحًا للشَّرِّ، مِغلاقًا للخَيْر**»[1].

وإليك مفردات هذه القرائن:

أولًا: معرفة شيخنا الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ التامة بفقه التربية الربانية ومنهج رسول اللَّه ﷺ، الذي أشاع الأمل في نفوس أصحابه بمستقبل الإسلام في عصري التكوين والتمكين؛ فقد ربَّى رسول اللَّه ﷺ أصحابه على الأمل واليقين في فجر مستطير لأمة الإسلام، يملأ أرجاء الكون، ويبسط سلطانه على أصقاع المعمورة.

ثانيًا: اهتمام شيخنا الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ بأمر المسلمين، ومعرفته الشاملة لواقع الأمة:

سياسيًّا؛ فهو يدعو إلى توحيدها في ظلال الخلافة الراشدة؛ مما يستلزم نبذ التفرق والتشرذم والاختلاف.

واقتصاديًّا؛ فهو يدعو إلى استثمار الأرض بزراعتها، وإعمارها باستخراج خيراتها وبركاتها.

وعسكريًّا؛ فهو يدعو إلى رجوع المسلمين أقوياء بمادياتهم وسلاحهم؛ ليفتحوا البلاد، ويحرروا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

---

(١) «صحيح الجامع الصغير» (٣٩٨٧).

ثالثًا: إدراك شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ لعناصر النهضة الإسلامية القادمة، ومعرفته الحقيقية بها، وأنها شاملة عالمية، ويتجلى ذلك فيما يأتي:

١- اعتقاد شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ الجازم بأن المستقبل للإسلام وحده، تصديقًا بموعود اللَّه ورسوله ﷺ.

٢- أمله الواسع، ورجاؤه الكبير بذلك كله؛ فالمؤمن أوسع الناس أملًا، وأكثرهم تفاؤلًا واستبشارًا؛ لأن قلبه موصول باللَّه، واثق بما عنده، مطمئن بالإيمان.

قال أبو حاتم السجستاني:

إذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطأت المكاره واطمأنت ... وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهًا ... ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث ... يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت ... فموصول بها الفرج القريب

٣- ذكره للأحاديث الدالة على رجوع المسلمين أقوياء في عقيدتهم ومنهجهم، واقتصادهم وسلاحهم في ظلال أمة واحدة ودولة واحدة؛ يدل على أن عناصر النهضة الإسلامية القادمة:

- القوة المعنوية الإيمانية.
- القوة الاقتصادية.
- القوة العسكرية.

رابعًا: محاربته للوساوس القاتلة، والأفكار الهدامة التي تروِّج لليأس والقنوط، وتدعو إلى العجز والقعود، والتواكل على ما هو موعود؛ يظهر ذلك فيما يلي:

١- تصحيح مفاهيم الناس حول الأحاديث التي ظاهرها كذلك.

٢- ردُّه على شُبَهِ المستشرقين والمستغربين.

وتأمل قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصدق الله إذ يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

من أجل ذلك؛ لا يجوز للمسلمين اليوم أن يتركوا العمل للإسلام، وإقامة دولته على وجه الأرض؛ انتظارًا منهم لخروج المهدي ونزول عيسى -عليهما الصلاة والسلام-؛ يأسًا منهم أو توهمًا أن ذلك غير ممكن قبلهما(!) فإن هذا توهم باطل، ويأس عاطل فإن الله -تعالى- أو رسوله ﷺ لم يخبرنا أن لا عودة للإسلام ولا سلطان له على وجه الأرض إلا في زمانهما، فمن الجائز أن يتحقق ذلك قبلهما؛ إذا أخذ المسلمون بالأسباب الموجبة لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ولقد كان هذا التوهم من أقوى الأسباب التي حملت بعض الأساتذة المرشدين، والكتّاب المعاصرين: على إنكار أحاديث المهدي وعيسى -عليهما السلام- على كثرتها وتواترها؛ لما رأوا أنها عند المتوهمين مدعاة للتواكل عليها، وترك العمل لعز الإسلام من أجلها! فأخطئوا في ذلك أشد الخطأ من وجهين:

الأول: أنهم أقروهم على هذا التوهم؛ على اعتبار أن مصدره تلك الأحاديث المشار إليها؛ وإلا لم يبادروا إلى إنكارها!

والآخر: أنهم لم يعرفوا كيف ينبغي عليهم أن يعالجوا التوهم المذكور؟ وذلك بإثبات الأحاديث، وإبطال المفاهيم الخاطئة من حولها، وما مثلهم في ذلك إلا كمثل من أنكر عقيدة الإيمان بالقدر خيره وشره؛ لأن بعض المؤمنين به فهموا أن لازمه الجبر، وأن المكلف لا كسب له ولا اختيار، ولما كان هذا الفهم باطلًا بداهة سارعوا إلى إنكاره، ولكنهم أنكروا معه القَدَر؛ لتوهمهم مع المتوهمين أنه يعني: الجبر، فوافقوهم في خطئهم في التوهم المذكور، ثم زادوا عليهم خطأ آخر -فرارًا من الأول- وهو إنكارهم القَدَر نفسه(!) فلولا أنهم شاركوهم في فهمهم منه الجبر لما أنكروه(!).

وهذا هو عين ما صنعه البعض المشار إليه من الأساتذة والكتاب؛ فإنهم لما رأوا

تواكل المسلمين -إلا قليلًا منهم- على أحاديث المهدي وعيسى؛ بادروا إلى إنكارها؛ لتخليصهم بزعمهم من التواكل المذكور! فلم يصنعوا شيئًا؛ لأنهم لم يستطيعوا تخليصهم بذلك من جهة ولا هم كانوا على هدى في إنكارهم للأحاديث الصحيحة من جهة أخرى.

والحقيقة: أن هؤلاء المنكرين -الذين يفهمون من هذه الأحاديث ما لا تدل عليه من التواكل المزعوم، ولذلك يبادرون إلى إنكارها تخلصًا منه- قد جمعوا بين المصيبتين:

الضلال في الفهم، والكفر بالنص!

ولكنهم عرفوا أن الفهم المذكور ضلال في نفسه؛ فأنكروا بإنكار النص الذي فهموا ذلك منه! وعكس ذلك العامة؛ فآمنوا بالنص مع الفهم المذكور، فمع كل من الفريقين هدى وضلال، والحق الأخذ بهدي كل منهما، ونبذ الضلال الذي عندهما؛ وذلك بالإيمان بالنص دون ذلك الفهم الخاطئ.

وما مثل هؤلاء وهؤلاء إلا كمثل المعتزلة من جهة والمشبهة من جهة أخرى؛ فإن الأولين تأولوا آيات وأحاديث الصفات بتأويلات باطلة أودت بهم إلى إنكار الصفات الإلهية، وما حملهم على ذلك إلا فرارهم من التشبيه الذي وقع فيه المشبهة، والحقيقة أن المعتزلة أنفسهم شاركوا المشبهة في فهم التشبيه من آيات الصفات؛ ولكنهم افترقوا عنهم بإنكار التشبيه بطريق التأويل الذي هو باطل أيضًا كالتشبيه لما لزم منه من إنكار الصفات الإلهية، وأما المشبهة؛ فلم يقعوا في هذا الباطل، ولكنهم ثبتوا على التشبيه، والحق الجمع بين صواب هؤلاء وهؤلاء، ورد باطل هؤلاء وهؤلاء؛ وذلك بالإثبات والتنزيه؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكذلك أقول في أحاديث نزول عيسى عليه السلام وغيرها؛ فإن الواجب فيها إنما هو الإيمان بها، ورد ما توهمه المتوهمون منها؛ من ترك العمل والاستعداد الذي يجب القيام به في كل زمان ومكان، وبذلك نكون قد جمعنا بين صواب هؤلاء وهؤلاء، ورددنا باطل هؤلاء وهؤلاء، والله المستعان»[1].

---

(١) «قصة المسيح الدجال» (ص ٣٦-٣٨).

أحاديث أُسيء فهمها ينبغي تصحيحها[١]

يفهم بعض الناس الأحاديث المتعلقة بـ (آخر الزمان) أو (أحاديث الفتن والملاحم) أو (أشراط الساعة) فهمًا يوحي باليأس من كل عمل للإصلاح والتغيير؛ مّدّعيًا أن هذه الأحاديث تدل على تدهور دائم، وسقوط مستمر، وتخلف متتابع، فالأمة لا تنتقل في تصوره إلا من سيئ إلى أسوأ حتى قيام الساعة على شرار الخلق.

فأُسقط في أيدي الجهال، وكان هذا الفهم السقيم ذريعة للمتثاقلين والمبطئين والمستطارين، الذين تهزهم الشاردة والواردة.

وهذا فهم سقيم؛ لأنه لا يتصور أن يدعو الرسول ﷺ الأمة إلى اليأس والقنوط، والعجز والقعود، والجبن والكسل، وترك الفساد يستشري في الناس، والمنكرات تنخر في عظام المجتمع، دون أن يصنع الناس شيئًا يقوِّم الاعوجاج، أو يصلح الفساد، أو يقمع أهل العناد(!)

كيف يتصور ذلك ورسول اللَّه ﷺ يأمر بالعمل لعمارة الأرض، إلى أن تلفظ الحياة آخر أنفاسها؟! يتضح ذلك من قوله: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وفِي يَدِ أَحَدِكُم فَسِيلَة، فإن اسْتَطاع ألا تَقُوم حتَّى يَغْرُسها؛ فَلْيَغْرِسهَا**»[٢].

ومعنى هذا: أنه لن يأكل أحد من ثمر هذا الغرس، مادامت الساعة قد اقتربت أو قامت.

فإذا كان هذا مطلوبًا في أمر الدنيا؛ فأمر الدين أعظم وأجل، وفهم هذه الأحاديث في ضوء الأخرى التي تبعث الأمل، ولابد من العمل من أجله إلى آخر رمق في هذه الحياة وعلى عجل: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

---

(١) استفدنا في هذا الفصل من كتاب: «المبشرات لانتصار الإسلام» باختصار وتصرف وزيادة.

(٢) مضى تخريجه (ص ٣١٦).

ومن هذه الأحاديث:

١- «لا يَأْتي عليكُم زمانٌ إلا والذي بَعْدَهُ شَرٌّ منهُ حتَّى تَلْقَوا رَبَّكُم».

ودونك بيان معنى الحديث:

أولًا: هذا الحديث صحيح؛ فقد أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» بسنده إلى الزبير بن عدي؛ قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا؛ **فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**»، سمعته من نبيكم ﷺ.

فلا مجال لرده من حيث السند.

ثانيًا: قد يتوقف آخرون في قبول الحديث، ويتعجَّل بعضهم في ردِّه؛ لأن معناه في ظنه: أننا في انحدار دائم، وتدهور مطرد، وأننا ننتقل من سيئ إلى أسوأ، ومن أسوأ إلى أكثر سوءًا... مع أن الواقع أن الحياة تترقى، والدنيا تتطور، والإنسان يزداد علمًا بالكون من حوله ومن تحته، ولذلك فالحديث عنده:

١- يدعو إلى اليأس والقنوط.

٢- عدم الدعوة إلى إصلاح الراعي والرعية.

٣- يتناقض مع حقيقة التطور المستمر، والتقدم المثمر الذي ينظِّم الكون والحياة والإنسان.

٤- يتناقض مع واقع الأمة الإسلامية الناهضة، التي ما كبت مرة إلا واعتدلت مرات، وما هُزمت كرة إلا وانتصرت كرات... فهي أمة قوية لا تعرف العثرات(!).

ثالثًا: هذا الحديث من العام المخصوص، فقد تكاثرت الآيات والأحاديث الدالة على مستقبل الإسلام الزاهر، وانتصاره القاهر، وانتشاره الباهر.

قال شيخنا الإمام الألباني:

«رواه البخاري في «الفتن» من حديث أنس مرفوعًا.

فهذا الحديث ينبغي أن يُفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها، مثل أحاديث المهدي ونزول عيسى عليه السلام؛ فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه، بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه؛ فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. أسأل اللَّه أن يجعلنا مؤمنين به حقًّا»[1].

رابعًا: حمل بعض العلماء الحديث على الأغلب، ولهذا قال الحسن البصري -عن عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج-: «لابد للناس من تنفيس».

خامسًا: قال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «لا يأتي عليكم زمان إلا وهو شرٌّ مما كان قبله، أما إني لا أعني أميرًا خيرًا من أمير، ولا عامًا خيرًا من عام؛ ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون، ثم لا تجدون منهم خلفًا، ويجيء قوم يفتون برأيهم (وفي رواية: فيثلمون الإسلام ويهدمونه)».

ورجح الحافظ تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية، قائلًا: «وهو أولى بالاتباع»[2].

وعليه؛ فالحديث لا يثبِّط الأمة، ولا يعلِّمها الخنوع والذل، ولا يكتِّف أيديها عن المعالي الدنيوية والأخروية، وإنما الحديث يقرر منهجًا سلفيًّا في التعامل مع الحكام وولاة الأمور الظالمين بالصبر على أذاهم، وعدم الخروج عليهم؛ لما في ذلك من بلايا ورزايا، وفتن ومحن؛ شهد بذلك التأريخ، واعترف بذلك المحققون من العلماء.

فقد صبر الصحابة والتابعون على الحجاج وأذاه، فذهب الحجاج وأبدلهم اللَّه مكانه خليفة على منهج الخلفاء الراشدين؛ هو: عمر بن عبد العزيز، وثار بعض التابعين على الحجاج، فكانت مقتلة القرَّاء، وموقعة دير الجماجم.

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١/ ٣٦).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٢١).

هذا المنهج قرره السلف الصالح بقولهم: «إمام غشوم خير من فتنة تدوم»، و«ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة بغير إمام».

ولذلك أجمع السلف على عدم الخروج على الأئمة الظلمة، وولاة الجور.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: **أن الأمر قد استقر بعد ذلك على المنع من الخروج**[١].

ولذلك نقل غير واحد من أهل العلم الإجماع عليه، منهم:

١- **البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد ذكر هذه العقيدة (أي: ترك الخروج على الولاة)، وقال: «لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم -أهل الحجاز، ومكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، وواسط، وبغداد، والشام، ومصر-، لقيتهم كرات، قرنًا بعد قرن، ثم قرنًا بعد قرن، أدركتهم وهم متوافرون منذ أكثر من ست وأربعين سنة، أهل الشام ومصر والجزيرة مرتين، والبصرة أربع مرات في سنين ذوي عدد، بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدثي أهل خراسان منهم... واكتفينا بتسمية هؤلاء كي يكون مختصرًا، وألا يطول ذلك، فما رأيت واحدًا منهم يختلف في هذه الأشياء»[٢].

٢- **وأبو حاتم وأبو زرعة الرازيان- رحمهما اللَّه-**، فقد قررا هذه العقيدة، وقالا: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار: حجازًا، وعراقًا، وشامًا، ويمنًا...»[٣].

٣- **ابن بطة العكبري** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ثم من بعد ذلك الكف، والقعود في الفتنة، ولا تخرج بالسيف على الأئمة وإن ظلموا»[٤].

قال -بعد قوله-: «ونحن الآن ذاكرون شرح السنة ووضعها، وما هي في نفسها، وما الذي إذا تمسك به العبد، ودان اللَّهَ به؛ سمِّي بها، واستحق الدخول في جملة

---

(١) «منهاج السنة» (٤/ ٥٢٩).

(٢) «شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٢١-٣٢١-٣٢٣).

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٢١-٣٢٢).

(٤) «الشرح والإبانة» (ص٢٧٦-٢٧٧).

أهلها، وما إن خالفه -أو شيئًا منه-؛ دخل في جملة ما عبناه وذكرناه، وحذر من أهل البدع والزيغ، مما أجمع على شرحنا له أهل الإسلام وسائر الأمة، مذ بعث اللَّه نبيه ﷺ إلى وقتنا هذا»[١].

٤- **والمزني صاحب الشافعي؛ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ترك الخروج عند تعديهم وجورهم، والتوبة إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ؛ كيما يعطف بهم على رعيتهم».

ثم ذكر إجماع الأئمة على هذا؛ فقال: «هذه مقالات وأفعال اجتمع عليها الماضون الأولون من أئمة الهدى، وبتوفيق اللَّه اعتصم بها التابعون قدوة ورضا، وجانبوا التكلف فيما كفوا، فَسُدِّدوا بعون اللَّه ووفِّقوا، ولم يرغبوا عن الاتباع فيقصروا، ولم يتجاوزوه تزيدًا فيعتدوا، فنحن باللَّه واثقون، وعليه متوكلون، وإليه في اتباع آثارهم راغبون»[٢].

٥- **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الخروج عليهم وقتالهم: فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين؛ وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق»[٣].

٦- **الطيبي**: «وأما الخروج عليهم، وتنازعهم؛ فمحرم بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين، وأجمع أهل السنة على أن السلطان لا ينعزل بالفسق؛ لتهيُّج الفتن في عزله، وإراقة الدماء، وتفرق ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه»[٤].

٧- **ومحمد بن أحمد بن مجاهد البصري الطائي**[٥].

٨- **وابن المنذر**: «كل من يحفظ عنه من علماء الحديث، كالمجمعين على استثناء

---

(١) المصدر السابق (١٧٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٨٨).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٢/ ٢٢٩).

(٤) «الكاشف عن حقائق السنن» (٧/ ١٨١-١٨٢).

(٥) «مراتب الإجماع» لابن حزم (ص ١٧٨).

السلطان؛ للآثار الواردة بالأمر بالصبر على جوره، وترك القيام عليه»[١].

وذلك؛ أن الخروج على الأئمة يفضي إلى إراقة دماء المسلمين، ومن ثم ضعفهم، وشماتة أعدائهم فيهم.

قال هشام بن حسان: «أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا؛ فبلغ مائة وعشرين ألف قتيل»[٢].

وأما فتنة الجزائر في عصرنا الحاضر؛ فقد حصدت أكثر من مائة وخمسين ألف قتيل! ولذلك نهى العلماء الأفاضل عن الخروج، ولكن المستعجلين لا يرون رأيهم، ولا يقفون عند فقههم، جريًا على عادة أسلافهم الخوارج الأولين.

عن سليمان بن علي الربعي؛ قال: «لما كانت الفتنة -فتنة ابن الأشعث، إذ قاتل الحجاج بن يوسف-؛ انطلق عقبة بن عبد الغافر وأبو الجوزاء وعبد اللَّه بن غالب في نفر من نظرائهم، فدخلوا على الحسن، فقالوا: يا أبا سعيد! ما تقول في قتال هذا الطاغية؛ الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل، وفعل. . ؟! قال: وذكروا من فعل الحجاج

قال: فقال الحسن: أرى ألا تقاتلوه؛ فإنها إن تكن عقوبة[٣] من اللَّه؛ فما أنتم برادِّي عقوبة اللَّه بأسيافكم، وإن يكن بلاء؛ فاصبروا حتى يحكم اللَّه، وهو خير الحاكمين.

قال: فخرجوا من عنده، وهم يقولون: نطيع هذا العلج؟! قال: وهم قوم عرب!

قال: وخرجوا مع ابن الأشعث، قال: فقتلوا جميعًا»[٤].

---

(١) «سبل السلام» (٣/ ٢٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٢٠)، وصححه شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) لقد كان الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن اللَّه ما سلط الحجاج إلا عقوبة، ففي رواية: «يا أيها الناس! إنه واللَّه ما سلط اللَّه الحجاج عليكم إلا عقوبة، فلا تعارضوا اللَّه بالسيف، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع».
أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٦٤)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٥٢)، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٦٣-١٦٤)، والدولابي في «الكنى» (٢/ ١٢١) بسند صحيح.

ولقد سأل أبو الحارث الصائغ[(١)] الإمام أحمد بن حنبل عن أمر حدث في بغداد، وهمَّ قوم بالخروج! فقال له: ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم؟! فأنكر ذلك عليهم، وجعل يقول: «سبحان اللَّه! الدماء.. الدماء.. لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة؛ يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان للناس فيه- يعني: أيام الفتنة؟!

قلت: والناس اليوم.. أليس هم في فتنة يا أبا عبد اللَّه؟!

قال: وإن كان؛ فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمَّت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا، ويسلم لك دينك خير لك».

٢- «بَدَأَ الإِسْلَام غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأ، فَطُوبَى للغُرَبَاءِ».

وإليك تفصيل المعنى الجميل لهذا الحديث، الذي يدل على خلاف ما يظنه الناظر إليه أول مرة دون إنعام النظر فيه، والوقوف على خوافيه:

أولًا: هذا الحديث رواه مسلم، وثبت عن جمع من الصحابة ﵃، فهو في جملة المتواتر.

ثانيًا: هذا الحديث لا يعني ضعف الإسلام وأفول نجمه، وأنه يعود غريبًا غربة شاملة دائمة.. فالحديث يخبر عن دورات تأتي وتذهب، وموجات تظهر وتتغير، وأن الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف، والامتداد والانكماش، والازدهار والذبول، وفق سنن اللَّه التي لا تتبدل، فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية، التي لا تعامل الناس بوجهين، ولا تكيل لهم بكيلين، فما يجري على الأديان والمذاهب يجري على الإسلام، وما يجري على سائر الأمم يجري على أمة الإسلام.

فالحديث ينبئ عن ضعف الإسلام في فترة من الفترات، ودورة من الدورات؛ ولكنه سرعان ما ينهض من عثرته، ويقوم من كبوته، ويخرج عن غربته كما فعل حين بدأ.

---

(١) هو من جلة أصحاب الإمام أحمد ﵀، وانظر: «المنهج الأحمد» للعليمي (١/ ٣٦٣).

فقد بدأ غريبًا، ضعيفًا؛ ليقوى، ثم يقوى، مطاردًا ليظهرَ، ثم يظهر على الدين كله، ملاحقًا مضطهدًا، لينتشر وينتشر، ثم ينتصر وينتصر.

فلا دلالة في الحديث على اليأس من المستقبل؛ إن أحسنَّا فهمه.

ومما يدل على أن الحديث لا يعني الاستسلام أو اليأس، ولا يدعو إليه بحال: ما جاء في وصف لهؤلاء (الغرباء) من أنهم الذين يُصلحون ما أفسد الناس من المنهج والعقيدة، ويُحيون ما أماته الناس منها من السنة والاتباع، ويجدِّدون فهمه على ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه.

فهم إيجابيون مصلحون، وليسوا من السلبيين أو الانعزاليين أو الاتكاليين، الذين يدعون الأمور تجري في أعنتها، ولا يحركون ساكنًا، أو ينبهون غافلًا؛ بل يقابلون فساد الناس بصلاح أنفسهم، وإفسادهم بصلاح الأمة، ولو خالفهم الكثيرون.

وقد بينت دلالة هذا الحديث على مستقبل الإسلام بمنهج السلف الكرام[1]، لكن من المفيد هنا أن ننقل شرح الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال اللَّه -تعالى-: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]».

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن؛ فإن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**».

قيل: ومن الغرباء يا رسول اللَّه؟.

قال: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**».

«فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلَّتهم في الناس جدًّا سُمُّوا: غرباء؛ فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء،

(١) انظر -غير مأمور- (ص ١٥٣).

والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المسلمين غرباء، وأهل السنة -الذين يميزونها من الأهواء والبدع- فيهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل اللَّه حقًّا، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال اللَّه ﷻ فيهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧]، فأولئك هم الغرباء من اللَّه ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم؛ كما قيل:

فليس غريبًا من تناءت دياره ولكن من تنأين عنه غريب!

ولما خرج موسى ﷺ هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر اللَّه، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: «يا رب وحيد مريض غريب، فقيل له: يا موسى! الوحيد: من ليس له مثلي أنيس، والمريض: من ليس له مثلي طبيب، والغريب: من ليس بيني وبينه معاملة».

فالغربة ثلاثة أنواع:

غربة أهل اللَّه وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق؛ وهي الغربة التي مدح رسول اللَّه ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه «بدأ غريبًا»، وأنه«سيعود غريبًا كما بدأ»، وأن «أهله يصيرون غرباء».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه الغربة هم أهل اللَّه حقًّا؛ فإنهم لم يأووا إلى غير اللَّه، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم.

فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم، فيقال لهم: «**أَلا تَنْطَلِقونَ حيثُ انطلقَ الناسُ؟ فيقولون: فارَقْنا النَّاس، وَنَحْنُ أَحْوَجُ إِلَيهم مِنَّا اليوم، وإنا نَنْتَظِرُ ربّنَا الذي كنا نَعْبُده**».

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها؛ بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس وجفوه.

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذي طِمْرَين لا يُؤْبَه له، لو أقسم على اللَّهِ لأَبَرَّه**».

وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب؛ لا يجزع من ذلّها، ولا ينافس في عزّها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير اللَّه ورسوله؛ لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى اللَّه بالعبودية له وحده وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا، وأكثر الناس -بل كلهم- لائم لهم؛ فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي ﷺ: «**هم النزاع من القبائل**»: أن اللَّه -سبحانه- بعث رسوله، وأهل الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عباد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا، وكان من أسلم منهم واستجاب للَّه ورسوله غريبًا في حيه وقبيلته، وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم، تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقًّا حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجًا؛ فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريبًا كما بدأ، بل الإسلام الحق -الذي كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه- هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة؛ فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًّا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة؛ ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن

نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعلمهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإرادتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى اللَّه على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شيخهم، وأُعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ: «**مُرُوا بالمَعْروف، وانْهَوا عن المُنْكَر، حتى إذا رَأَيْتُم شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوى مُتَّبَعًا، ودنْيَا مُؤْثَرة، وإعْجَابَ كُلِّ ذى رَأْيٍ بِرَأْيِه، وَرَأَيْتَ أَمْرًا لا يَدَ لك به؛ فَعَلَيكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِك، وإياك وعوامِّهِم؛ فإنّ وراءَكُم أياما صَبْرُ الصَّابِرِ فِيهم كالقَابِضِ علَى الجَمْرِ**».

ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت -إذا تمسك بدينه- أجر خمسين من الصحابة، ففي سنن أبي داود والترمذي -من حديث أبي ثعلبة الخشني- قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عن هَذهِ الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: «**بل ائتَمِروا بالمعروفِ، وتَنَاهوا عن المُنْكر، حتى إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا، وهوىً مُتَّبَعًا، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه؛ فَعَليكَ بخِاصَّة نَفْسِك، ودع عنك العوامَّ؛ فإنَّ مِن ورائكم أيامَ الصَّبر، الصَبْرُ فيهنَّ مثل قَبْضٍ على الجَمْرِ، للعاملِ فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**».

قلت: يا رسول اللَّه! أجر خمسين منهم؟

قال: «**أَجْرُ خَمْسِين مِنْكُم**».

وهذا الأجر إنما هو لرغبته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه اللَّه بصيرة في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه؛ كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ، فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح فيما هو عليه؛ فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له

الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بِخيل كبيرهم ورَجِله.

فهو غريب في دينه؛ لفساد أديانهم.

غريب في تمسكه بالسنة؛ لتمسكهم بالبدع.

غريب في اعتقاده؛ لفساد عقائدهم.

غريب في صلاته؛ لسوء صلاتهم.

غريب في طريقه؛ لضلال وفساد طرقهم.

غريب في نسبته؛ لمخالفتهم نسبته.

غريب في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة؛ فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعدًا، ولا معينًا؛ فهو:

عالم بين جهال.

صاحب سنة بين أهل بدع.

داع إلى اللَّه ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع.

آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر، بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف»[1].

٣- «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثم يَأْتِي مَن بَعْدَهم قَومٌ يَتَسَمَّنُون، ويحبُّون السِّمَنَ، يُعْطَون الشَّهادة قَبْلَ أن يُسألوها**».

لقد زعم الدكتور فهمي جدعان[2]: أن هذا الحديث يدل على أن الإنسانية التي يحتضنها الإسلام تتقدم نحو الهاوية والأسوأ.

ولذلك؛ فهذا يدل على أن هذا الحديث موضوع مصنوع، إما لتسويغ ما حدث

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٩٤-٢٠٠).

(٢) «أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث» (ص٢١).

بالفعل -إذا فرضنا أن الوضاعين مسلمون-، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام في طريق اليأس-إذا فرضنا أن الوضاعين منافقون- .

وهاك القول الفصل في هذا الحديث الذي يدعو البشرية إلى الخير الحثيث :

أولًا : هذا الحديث اتفق على صحته المحققون من أئمة الصناعة الحديثية، وذكروه في جملة الأحاديث المتواترة .

ثانيًا : الحديث لا علاقة له بالتقدم المادي عند الأمة، وإنما يدل بمنطوقه ومفهومه على فضل جيل الصحابة ﷺ، الذي تلقى الدين طريًّا نديًّا عن رسول اللَّه ﷺ، وتربى في أحضان النبوة، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات اللَّه الكونية والشرعية ومن هدي رسول اللَّه ﷺ فحمل من المهمات ما لم يحمله غيره؛ فهو الجيل الذي نقل القرآن للأمة، وروى لها السنن، وفتح اللَّه على يديه البلاد، وهدى به العباد .

ثم جاء التابعون؛ ذلك الجيل الذي تتلمذ على هؤلاء الأصحاب، واقتبس من مشكاتهم، واقتفى آثارهم، فأتباع التابعين -الجيل الثالث-؛ الذي سار على دربهم واتبعهم بإحسان، فرضي اللَّه عنهم، ورضوا عنه .

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

لا يشك باحث منصف أن الالتزام الديني لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة كان من القوة والعمق والسعة، بحيث لا يلحقه جيل آخر، وهذا في أمر التفقه في الدين والتقوى والعمل الصالح لا في أمر الحياة والعمران، فهذه قد تتفوَّق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضلة في العمل الصالح والالتزام الديني، والعلم الشرعي؛ فقد بشر الرسول ﷺ أمته أنهم سينفقون كنوز كسرى وقيصر في سبيل اللَّه، ويرثون ممالكها، وأنهم سيملكون مشارق الأرض ومغاربها يومًا، وأن الرخاء سيبلغ مدى لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل منه صدقة، وأن الأمن سيستتب؛ حتى أن المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام، لا تخاف إلا اللَّه، وأن أرض العرب ستعود مروجًا وأنهارًا .

فهل يعد هذا كله تخلفًا وتقدمًا نحو الأكثر سوءًا؟!

إن أي قارئ لأبجديات التأريخ يعلم أن الخلفاء بعد رسول اللَّه ﷺ طوَّروا كثيرًا من أمور الحياة، وأدخلوا عليها ما لم يكن في عصر النبوة، وهم الذين أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نتبع سنتهم، ونعض عليها بالنواجذ، فهي امتداد أمين للسنة النبوية.

وبعد عصر الراشدين، وجدنا المسلمين يبتكرون علومًا، ويضيفون أشياء مادية لم تكن في العصر النبوي، أقرهم عليها علماء الأمة، وانعقد الإجماع على مشروعيتها، بل صارت عند الفقهاء من الفروض الكفائية.

ويكفي أن تم فيه استبحار علوم الدين وتأصيلها، وتقعيد علوم اللغة وتدوينها، وظهور المدارس العلمية في شتى أنواع العلوم.

وفي هذا المضمار نشأت الحضارة الإسلامية اليافعة الفارعة الرائعة، ثابتة الأصول، باسقة الفروع، وارفة الظلال، مباركة الثمار، شامخة البنيان، قوية الأركان.

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة في مختلف مجالاتها وشتى فنونها وأفنانها؛ بدعوى أن هناك أحاديث تغلُّ أيديهم، أو تقيِّد أرجلهم، أو تشل تفكيرهم، أو تعطل حركتهم.

ولذلك؛ فحديث القرون يقدم للأمة مرجعية تجديد دينها؛ إذا ضعف، وصلاح حالها إذا فسد، واستقامة أمرها إذا انحرف واعوج، ويربط حاضر الأمة ومستقبلها بماضيها الأغر في عصر النبوة الأزهر، حتى إذا غلبت الماديات على الروحيات، وقلَّت الشفافيات الإيمانية؛ عاد الناس إلى سيرتهم الأولى في عصر النبوة والخلافة الراشدة؛ فاستقامت دنياهم، وصلح دينهم، وبذلك تكون لهم العزة والسيادة والقيادة، ويستحقون الاستخلاف والتمكين.

* * *



الخاتمة
رزقنا الله الحسنى وزيادة

حين ينعكس الواقع، وتنتكس الفطر، وتحتار العقول، وتضطرب الفهوم: يظن كثير من أصحاب الفرق الهالكة، والمذاهب الضالة، والحركات الفاشلة: أن العاقبة لهم، والمستقبل لأفكارهم(!).

لكن الذي لا يرتاب فيه أولو الأحلام، والذي يستيقنه أولو النهى: أن المستقبل للإسلام وحده، والظهور والغلبة له على الأديان كلها.

ولا عجب في ذلك كله؛ فإن مزايا الإسلام ومحاسنه لا تقع تحت حصر، ولا يحيط بها مقول من القول، ولا يستوعبها البيان، ولذلك لا غرو؛ فالعاقبة المحمودة، والمآل الكريم له وحده دون غيره.

... نعم؛ المستقبل للإسلام الذي رضيه الله، وأسس به مقومات نظام عالمي مترابط كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكذلك كان المجتمع المسلم كالجسد الواحد.

... نعم؛ المستقبل للإسلام؛ لأنه حفظ الضروريات الخمس.. فلماذا لا تكون للإسلام وحده حسن العاقبة، وكرم المآل، وطيب المصير؟!

ولن توهن عرى الإسلام، أو تزعزع بنيانه، أو تزلزل أركانه أعاصير الباطل، وصولة أهله؛ مهما أرعدوا وأبرقوا، وأجلبوا بخيلهم ورَجِلهم، وأنفقوا أموالهم، وبغوا في الأرض طولًا وعرضًا؛ فقتلوا، وهدموا، وشردوا -كما يفعلون في كثير من أقطار المسلمين-.

فهذا غيض من فيض، وقطر من غيث، ينهمر من بشائر المستقبل للإسلام، بظهوره وانتشاره، وسيادة حضارته في العالمين؛ فكل أخبار القرآن صدق، وأحكامه عدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]...

وفي تعاليم الإسلام والسنة بشائر لا تُحصى، وفي فقه الشريعة الإسلامية دلائل لا تستقصى؛ تشير كلها إلى أن المستقبل للإسلام: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولا يزال في موضوع المستقبل للإسلام كثير مما يحفز الدعاة إلى اللَّه للعمل على بصيرة، وفقنا اللَّه ومن والانا لتصحيح النظر إلى قضايا المستقبل للإسلام، نجدد بحسن تقديمها أمر ديننا، ثم إننا نجدد دعوتنا إلى أمتنا، ونحرض عدة المستقبل، وَنُعِدُّها كي تسارع إلى الاستجابة لداعي الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. . . وأن يكونوا عند أمل أمتهم بهم، فيلتزموا ذكر اللَّه ومجالس العلم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ويعتصموا بحبل اللَّه المتين، ويلجئوا إليه؛ ليكونوا حملة لواء الشريعة والدعاة إلى تطبيقها، وإحياء الشعائر، وإقامة الدين كله مراعين واقع مجتمعاتهم، وأدب التدرج والانتقال في المراحل، حاملين رسالة الرحمة والرأفة، مقتدين بإمامهم ونبيهم -عليه الصلاة والسلام- في رأفته ورحمته بالمسلمين، ومن يعيش في كنفهم من المستأمنين؛ ليعيشوا السعادة الحقيقية مع المسلمين، في ظل التزامهم شريعة الإسلام، وإقامتها في شئون حياتهم كلها.

سائلين اللَّه أن يهدي شباب الإسلام وقادة المسلمين، وأن يعزهم بالإسلام، ويعز الإسلام بهم؛ ليصنعوا مستقبل الإسلام المشرق.

ولكن؛ إذا أرادت الأمة الإسلامية المرحومة الظفر بهذا المستقبل الموعود المتوج بالنصر والظهور والعزة والتمكين في الأرض. . . فعليها أن تكون أمة مؤمنة حقًّا ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]؛ لتستحق نصر اللَّه حقًّا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

. . . فمتى كان المؤمنون مؤمنين حقًّا؛ استحقوا نصر اللَّه حقًّا. . . ولن يكون المؤمنون كذلك حقًّا؛ إلا باتباع الهدى والدين الحق الذي كان عليه ﷺ وأصحابه.

... إذن؛ فالمستقبل للإسلام بمنهج السلف الصالح الكرام بإذن الملك العلام(!).

* * *

الفهارس العامة

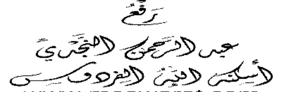
فهرس الآيات القرآنية

سورة الفاتحة

سورة البقرة

سورة آل عمران

* * *



فهرس الأحاديث

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الكاف

حرف الفاء

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام ألف

حرف الياء

* * *



فهرس الآثار

أبي بن كعب

أحمد بن حنبل

أحمد بن سنان

أسلم أبو عمران

البراء بن عازب

جابر بن عبد الله

الحارث بن لقيط

حذيفة بن اليمان

الحسن البصري

خالد بن عرفطة

سفينة

سلمان الفارسي

سليمان بن علي الربعي

شرحبيل بن مسلم عن أبيه

الضحاك

عبد اللَّه بن سلام

عبد اللَّه بن عباس

عبد اللَّه بن عمرو

عبد اللَّه بن المبارك

عبد اللَّه بن مسعود

عبد الرحمن بن سلمان

علي بن أبي طالب

علي بن الحسين

علي بن المديني

عمر بن الخطاب

عمر بن عبد العزيز

أبو العالية

أبو هريرة

* * *



فهرس الأشعار

حرف الألف

حرف الباء

حرف الجيم

حرف الراء

حرف اللام





فهرس البلاد والأماكن والبقاع

* * *

فهرس الرواة والأعلام

الأبناء

الكنى

الألقاب

الشخصيات الأجنبية





فهرس المذاهب والثقافات والمناهج

* * *



فهرس الأديان والفرق



فهرس الغزوات والوقائع

* * *

فهرس الموضوعات

* * *



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



المستقبل للإسلام

بمنهج السلف الكرام

التوزيع في جميع أنحاء العالم

دار الإمام أحمد للنشر والتوزيع

٦ شارع عزيز فانوس منشية التحرير جسر السويس - القاهرة

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨